مقبرة عبريا

كشف في سقارة

تأليف الان زيفى

ترجمة عماد عدلى

تقديم الدكتور/ زاهى حواس



الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٩٦



القاهرة - باريس

القاهرة : ش هشام لبيب - رقم ٤٠
مدينة نصر - المنطقة الثامنة
أسسها
الدكتور طاهر عبد الحكيم ١٩٨٤

تليفون : ٢٧٣٥٠٧٤

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة

رقم الايداع ٧٢٥٥ / ٩٥

الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 5091 - 22 - 5

ترجمة كتـــاب

Alain Zivie

Découverte à SAQQARAH

Le vizir oublié

Seuil

إلى ابنى داڤيد رفائيل
الذى أضاعت طفولته هذه السنين كلها

تمهيد

يشرفني أن أكتب مقدمة كتاب مقبرة « عبريا »، والكتاب يتضمن قصة كشف مثير، ويتناول قصة الكشف وخطواته ومراحله حتى تم العثور على حجرة الدفن الخاصة بـ« عبريا »، كبير الوزراء في عهد « أمنحتب الثالث » وإبنه « أمنحتب الرابع » المعروف باسم « إخناتون ». ويُعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب المترجمه من الفرنسية إلى العربية حيث يتعرف القارىء العربي على عمل البعثات الأجنبية في مصر ومدى الجهد الذي يعانيه الأثري في سبيل الكشف عن الآثار بالاضافة إلى مشاعر الأثري نفسه، ولحظات التأمل والتفكير التي تنتاب المكتشف أثناء الحفائر، ووصف مشاعر الفرح عندما تم العثور على حجرات المقبرة.

وهذا الكشف يلقي الضوء على منطقة سقارة خلال عصر الدولة الحديثة عندما كانت « منف » العاصمة الثانية لمصر. وكان يستقر فيها الوزراء المسئولون عن شمال مصر، بالاضافة إلى المهام والأعباء الملقاة على كاهل هؤلاء الموظفين المسؤولين أمام الملك الذي يقيم في « طيبه »، عاصمة البلاد الأولى. ونعرف الكثير عن الموظفين الذين عاشوا في عصر الملك « أمنحتب الثالث » الذين دُفنوا في البر الغربي من الأقصر، وأهمهم « راموزة » و« خع ام حاث » و« سررو » و« خرو-إف ». وهذه أول مرة يتم الكشف عن أحد الموظفين الكبار الذين عاشوا في عصر هذا الملك ودُفنوا بمنطقة سقارة.

وتُعتبر منطقة آثار سقارة من أغنى وأهم المناطق الأثرية في مصر. وهي جزء هام من جبانة « منف »، أول عاصمة لمصر القديمة،

حيث استقرت بها أول حكومة مركزية في التاريخ. وظلت عاصمة مصر الأولى حتى نهاية الدولة القديمة. وإعتُبرت العاصمة الثانية في الدولة الحديثة حيث تدرب فيها الأمراء على فنون الحرب. وتمتد جبانة سقارة على حافة الهضبة الصحراوية غرب العاصمة «منف» على بعد ستة كيلومترات. وتقع منطقة «أبو صير» والجيزة شمال سقارة، بينما تقع منطقة «دهشور» جنوب سقارة. وكل هذه المواقع تُكَون جبانة واحدة إستُخدمت كمدافن قرابة ثلاث آلاف عام.

وسوف نوجز هنا ملخصاً لأهمية منطقة سقارة على مر العصور لكي يلم القاريء بالفترة التي سبقت هذا الكشف، ويتعرف أيضاً على أحدث الآراء العلمية الخاصة بعصر الأهرامات، بالاضافة إلى وصف أهم الإكتشافات الأخرى بالمنطقة.

اسم منطقة سقارة الحالي مشتق من اسم إله الموتى بالدولة القديمة لجبانة «منف» وهو الإله «سوكر». وحتى الآن يُطلق على القرية القريبة منها قرية سقارة نسبة لهذا الإله. وترجع أقدم الآثار بمنطقة سقارة إلى عصر الأسرة الأولى. وقد حُفرت جبانة الأسرة الأولى بمعرفة «كويبل» عام ١٩١٢، وتبعه «فيرث» عام ١٩٣٢، ثم «إمري» منذ عام ١٩٣٦ حتى ١٩٥٢. وكانت حفائر هذا الأخير من أهم الحفائر حيث قام بمسح أثري شامل لجبانة العصر العتيق. وقد تعرف «إمري» على المصاطب الكبيرة ذات حوائط من الطوب اللبن والتي تحاكي في شكلها واجهة القصر، على أنها مقابر كبار الموظفين في هذه الفترة. وكان ذلك بناء على ما عثر عليه من أختام من الفخار والتي وُجدت في حجرات هذه المقابر.

وبعد ذلك تغير هذا الرأي بنظرية أخرى. وذلك بأن عدداً كبيراً من المصاطب الأربعة عشرة تُنْسَب لملوك الأسرة الأولى، إبتداء من «حور-عحا» (المعروف باسم «مينا» أو «نعرمر») أول ملوك الأسرة الأولى. والمعروف أنه أسس «منف» كعاصمة للبلاد وعُرفت في ذلك الوقت باسم «إنب-حدج» أي الجدار الأبيض.

وقد إستمر البحث والدراسة حتى وصل العلماء إلى تفسير جديد بأن منطقة «أم الجعاب» بأبيدوس هي منطقة الدفن الحقيقية لملوك الأسرة الأولى، وأن مقابر سقارة خاصة بكبار الموظفين لهذه الفترة. أما مقابر ملوك الأسرة الثانية، فقد عُثر عليها جنوب مجموعة «زوسر» بسقارة، وتقع حالياً أسفل مجموعة «أوناس»، ماعدا مقبرتي الملك «بر-إب-سن» و«خع سخموي» حيث أنهما دُفِنا في أبيدوس. وتشير أحدث الحفائر الهامة التي تقوم بها البعثة الإنجليزية برئاسة «داڤيد چيفري» أن موقع «إنب-حدچ» في الأسرة الأولى والثانية كان شمال سقارة وليس «منف» كما تذكر ذلك الأبحاث السابقه التي إستندت على الأدله اللغوية. ولكن هذه أول مرة تشير أعمال المسح الأثري والحفائر إلى هذا الرأي الجديد.

وينتشر في منطقة سقارة ثلاثون هرماً منهم خمسة عشر هرماً للملوك، بينما الأهرامات الأخرى تخص في الغالب الملكات زوجات الملوك أو أنها أهرامات خاصه بعقيده الملك.

والمعروف أن أول مقبرة ملكية بُنيت من الحجر الجيري ترجع للأسرة الثالثة على شكل هرم مدرج يرتفع ستة درجات أو مصاطب بارتفاع ٦٠ متر، ومايزال يطل على الوادي من فوق هضبة سقارة. وهذا الهرم بناه الملك «تتري-خت». وقد عُثر على هذا الاسم الحوري في الحجرات أسفل الهرم. أما اسمه الذي نعرفه به وهو «زوسر»، فقد عُرف منذ الأسرة الثانية عشرة. أما الهرم نفسه فهو محاط بسور مستطيل وبداخله نماذج لأبنية ومقاصير كانت تُستخدم في الاحتفالات والأعياد والطقوس الخاصه بالملك في العالم الآخر، وتحاكي القصر الذي كان يعيش فيه الملك. وقد استطاع المهندس «إيمحوتب» أن يقلد السور المبني من الطوب اللبن والخاص بالملك «خع-سخموي» في «شونه الزبيب» بأبيدوس.

واعتُبرت «منف» منذ الأسرة الثالثة عاصمة للبلاد. وعرفنا هذا الاسم من خلال اسم هرم الملك «بيبي الأول» «من-نفر» بمعنى الميناء الجميل. وهناك رأي حديث يعتقد فيه بعض علماء المصريات أن «منف» كانت الميناء التجاري، ولكن الملك كان يحكم ويعيش في

المنطقة التي يبني فيها هرمه. ويؤيد هذا الرأي النص الذي يشير إلى أن الملك «چد-كارع-إيس» كان يعيش في القصر المجاور لهرمه، بالاضافة إلى الإكتشافات الحديثة من مدن كاملة بجوار الأهرامات، وأهمها المدينة التي عثرنا عليها في الجيزة بطول ٣ كم أسفل قرية «نزله السمان». كما قام الملك «سخم خت» والذي حكم بعد «زوسر» ببناء سور بداخله هرم مدرج آخر. وتقع مجموعته جنوب شرق مجموعة «زوسر»، ولكن لم يكمل الملك بناء الهرم أو مجموعته الجنائزية.

أما عن ملوك الأسرة الرابعة، فالبناء الوحيد بمنطقة سقارة هو المصطبه الضخمة المعروفة باسم مصطبه فرعون جنوب سقارة، بُنيت للملك «شبسسكاف» وهو ابن «منكاورع» الذي بنى الهرم الثالث بمنطقة الجيزة. وبُنيت بقية أهرامات الأسرة الرابعة بأحجام كبيرة في دهشور والجيزة. وبنى الملك «أوسركاف»، أول ملوك الأسرة الخامسة، هرمه بسقارة بالقرب من الجانب الشرقي من سور الهرم المدرج.

وإنتقل الملوك الثلاثة بعد «أوسركاف» وهم «ساحورع» و«نفر إير كارع» و«ني أوسر رع» إلي منطقة «أبو صير» حيث بنوا أهراماتهم هناك بأحجام صغيرة وبنمط موحد، حتى جاء «چد-كارع-إسيس» وشيد هرمه جنوب منطقة سقارة والمعروف باسم الهرم الشواف. وقد بنى بعده آخر ملوك الأسرة الخامسة «ونيس» هرمه على مقربه من سور الهرم المدرج من الناحيه الجنوبية الغربية. ولكونه على الجانب الجنوبي للمنطقة مما سمح ببناء طريق صاعد طويل يربط الجزء العلوي للمجموعة الهرمية بالمعبد السفلي (معبد الوادي) أسفل هضبه سقارة. ويتميز هرم «ونيس» عن غيره بأنه أول هرم نُقش بداخله (حجرة الدفن والحجرة الأمامية) ما عُرف باسم «متون» أو «نصوص الأهرام». وهي تشمل على نصوص تخص رحلة الملك إلى العالم الآخر. وتمكن العلماء من خلال دراستها من إلقاء الضوء على جوانب كثيرة من جوانب الديانة المصرية القديمة. كما كانت هذه النصوص هي المصدر لما سُمي فيما بعد بنصوص التوابيت في الدولة الوسطى، وأخيراً بما

عُرف بكتاب الموتى في الدولة الحديثة.

وتتميز أهرامات الأسرة الرابعة بأن حجم أحجارها يوازي ۳۰ مرة حجم أهرامات الأسرة الخامسة. ولكن أهرامات الأسرة الخامسة تتميز بكثرة النقوش والمناظر الممثله على جدران المجموعة الهرمية.

وبنى الملك «تتي»، أول ملوك الأسرة السادسة، هرمه شمال شرق هرم الملك «أوسركاف» بمنطقة سقارة. كما بُنيت أهرامات الأسرة السادسة الأخرى جنوب منطقة سقارة، وخاصة «مرنرع» و«بيبي الأول» و«بيبي الثاني». وقد قام «لوير» و«ليكلان» بأعمال التنقيب والترميم بهذه الأهرامات. كما قاما بدراسة نصوص الأهرام المنقوشة داخل هذه الأهرامات. وقد عُثر حديثاً إلى جانب المجموعه الهرمية للملك «بيبي الأول» على بقايا أربعة أهرامات خاصه بزوجات الملك، بالاضافه إلى العثور على أسماء لملكتين لم تكن معروفتين من قبل، كما عُثر على أربع مسلات.

وقد عثرنا على لوحه أُعيد إستعمالها بمعبد الملكة «إبوت الأولى»، زوجة الملك «تتي»، مُمثل عليها اسم «نتري-خت» أعلاها الصقر «حورس» يرتدي التاج المزدوج، وأسفلها تسجيلات مكرره لابن أوي والأسد وثعابين ممثله على الجوانب. وتُعتبر هذه اللوحة من الآثار الفريدة التي عُثر عليها بالمنطقة.

ومن المعروف أن أسرة الملك وحاشيته إتخذت من حول الأهرامات أماكن لتشييد مقابرهم على مقربة من هرم الملك. وبمرور الوقت إتخذت مقابرهم أحجاماً أكبر، كما نُقشت جدرانها بنقوش مختلفه تمثل صوراً من الحياة اليومية، والتي تؤكد استمرار التقدمات والقرابين وضروريات الحياة للمتوفي في العالم الآخر. وأفضل وأشهر هذه المقابر هي مقبرة «تي» من كبار موظفي الدولة في الأسرة الخامسة وتقع شمال السرابيوم، ومقبرة «بتاح حوتب» و«آخت حوتب» جنوب هرم «زوسر»، ومقبرة الأخوين «ني-عنخ-خنوم» و«خنوم حوتب» في إمتداد الطريق الصاعد لهرم «أوناس». كما يجدر بالذكر مقبرة «مري روكا» أمام هرم «تتي» بمناظرها العديدة

والمتنوعة.

وبنى الملك «إبي» من ملوك الأسرة الثامنة هرماً صغيراً شرق هرم الملك «بيبي الثاني». وتدل مواد البناء وحجم الهرم على تدهور الحال في الدولة القديمة في نهاية حكم الملك «بيبي الثاني» الطويل. كما يقع شرق هرم «تتي» بقايا هرم صغير ربما يرجع إلى عصر الأسرة التاسعة أو العاشرة في فترة الانتقال الأول.

ويوجد في أقصى جنوب سقارة هرمان من الأسرة الثالثة عشرة أحدهما لملك يُدعى «خنجر». وبالمقارنة بآثار الأسرة الثالثة عشرة يوجد قليل جداً من آثار الدولة الوسطى بمنطقة سقارة. وربما يرجع ذلك إلى أن العاصمة كانت في الجنوب بجوار «اللشت».

لقد دبت الحياة من جديد في كل من سقارة و«منف» في عصر الدولة الحديثة. وعُثر على العديد من الاكتشافات الأثرية الخاصه بهذه الفترة، أهمها بلا شك حفائر مؤلف هذا الكتاب الأثري الفرنسي «آلان زيڤي» الذي اكتشف مقبرة «عبريا» موضوع هذا الكتاب، ومقبرة «مري سخمت» و«مري-رع».

كما قام المرحوم سيد توفيق، رئيس هيئة الآثار السابق، بالكشف عن العديد من المقابر الهامه التي ترجع إلى عصر الرعامسه وهي خاصه بالموظفين المسئولين عن الدلتا في ذلك الوقت، وأهمها مقبرة كبير وزراء «رمسيس الثاني»، «نفر رنبت».

وقد أعاد «چيفري مارتن» كشف مقبرة «حور محب» والتي بناها عندما كان قائداً للجيوش قبل أن يصبح آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وكشف أيضاً عن مقابر أشار إليها العالِم الألماني «لبسيوس» وهي مقابر وزير الخزانة «مايا» في عصر الملك «توت عنخ آمون». وسوف تُظهر أعمال الحفائر العديد من المقابر الأخرى التي ترجع لهذا العصر. وقد كان لهذه الاكتشافات الأثر في قيام أحد الباحثين الأجانب بإعداد رسالة دكتوراة عن سقارة في الدولة الحديثة.

ومن العلامات المميزة لمنطقة سقارة «السرابيوم»، ويقع جنوب شرق الهرم المدرج. وقد إكتشفه العالِم الفرنسي «أوجست ماريت» عام ١٨٥٢. وكان يعلوه على جانبيه تماثيل لأبو الهول من المدخل إلى حافة الهضبة شرقاً، كما يؤدي المدخل لممرات سفليه على جانبيها حجرات منحوته في الصخر وتحتوي على توابيت حجرية ضخمة لدفنات العجل المقدس. وقد دُفن هذا الحيوان في السرابيوم ليكون صورة مجسدة للإله «أوزوريس». وقد استُخدم السرابيوم إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة، بدءاً من حكم الملك «أمنحتب الثالث» حتى بداية العصر اليوناني الروماني.

ومن الآثار التي ترجع للعصور المتأخرة في منطقة سقارة بقايا دير القديس «جرماس» جنوب شرق هرم «أوناس»، ويرجع تاريخه لعام ثلاثة وأربعين ميلادية. وقد نُقلت عناصره المعمارية للمتحف القبطي بالقاهرة، وتُعتبر من أهم معروضات هذا المتحف.

ونستطيع أن نعرف إسهامات المدارس الأثرية المختلفه في الإكتشافات والترميم ومنها المدرسة المصرية والإنجليزية والهولندية والألمانية والإسكوتلندية. ولكن دور المدرسة الفرنسية بالذات بمنطقة سقارة ذو بصمة واضحة وخاصه في مجال الترميم. ولا ننسى هذا الدور بدءاً بـ« مارييت » وكشفه العظيم عن السرابيوم بسقارة، وتبعه « ماسپيرو » في إضافة الكثير إلى علم الآثار المصرية.

وبلا شك فإن الدور الذي يقوم به المهندس الفرنسي العبقري مسيو «چان فيليپ لوير» الذي تجاوز التسعين من عمره ومازال متجدد العطاء، والذي إرتبط اسمه باسم الملك «زوسر» (صاحب أقدم مقبرة حجرية في التاريخ) نتيجة لقيام «لوير» على مدى نصف قرن بترميم ودراسة العناصر المعمارية المرتبطه بهرم «زوسر»، مما أظهر لنا معابد ومقاصير والمباني الرمزية الملحقه بالهرم كما كانت عليه منذ أربعة آلاف وسبعمائة عام. وقد أقام «لوير» "ماكييت" أو نموذج يُظهر مجموعة «زوسر» الهرمية كما كانت عليه في عهد الملك «زوسر». ويحلم «لوير» بأن يُقام هذا المبنى بمنطقة سقارة لكي يزوره السواح قبل الدخول لزيارة آثار «زوسر». وتُعتبر إسهامات

البعثة الفرنسية برئاسة «چان ليكلان» بجنوب سقارة إمتداداً لهذا الرعيل الأول من العلماء الفرنسيين. إذ تقوم البعثة حالياً بالكشف حول هرم الملك «بيبي الأول». وقد أعادت البعثة عن طريق الترميم العلمي الجاد الحياة إلى المعبد العلوي (معبد الشعائر) لهذا الهرم، حيث قام المهندس الفرنسي «أودران لابروس» بتنظيف المعبد، وأعاد الحياة مرة أخرى للمعبد عن طريق تقديمه برؤيا خاصه به. وتقوم على استخدام كسر الحجر الجيري الصغير دون استخدام "المونه" لتوضيح وإبراز الشكل المعماري له. وبلا شك فإن ما تقوم به البعثة من تجميع نصوص الأهرام على الحاسب الآلي سوف يؤدي إلى نتائج هامة يستفيد منها علماء المصريات للكشف عن كثير من أسرار اللغه المصرية القديمة. وتُعتبر أعمال الترميم التي تقوم بها البعثة وخاصه للأهرامات الجديدة المُكتشفه لزوجات الملك «بيبي الأول» من أهم أعمال الترميم للبعثات الأجنبية في مصر. وتوضح لنا أيضاً ضرورة تشجيع بل وإلزام البعثات الأخرى الموجودة في مصر على أن تنهج نفس النهج. والحقيقة تشير إلى أن البعثات الأجنبية ومنها الانجليزية والفرنسية والألمانية تقوم بترميم ما يتم الكشف عنه وذلك بأيدي الفنيين المصريين بتفتيش آثار المنطقة.

ومؤلف هذا الكتاب «آلان زيڤي» يُعد أحد الأثريين الشبان الفرنسيين الذين أفرزتهم مدرسة «چان ليكلان». إذ تدرب لسنوات طويله مع البعثة بمنطقة سقارة على أسلوب الحفائر والترميم. وقد عاش في مصر لمدة ٤ سنوات كعضو بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة. وقد استطاع «زيڤي» أن يدبر تمويل مالي للحصول على ترخيص من هيئه الآثر المصرية للعمل في الموقع المعروف باسم «أبواب القطط». وهذا الموقع يقع مباشرة أسفل إستراحه كبار الزوار بمنطقة سقارة. ولم نكن نتصور أن هذا الموقع يخبيء لنا هذا الكشف الهام. ولكن استطاع «زيڤي» أن يبحث في المراجع العلميه عن معلومات عن هذا الموقع حتى وضحت له الرؤيه. وألقى بحثاً أمام أعضاء الجمعية الفرنسية لعلم المصريات في مارس ١٩٧٩. وفي نفس العام ألقى نفس البحث في مؤتمر المصريات الذي عُقد في «جرونبل». وكانت هذه هي البداية لكي نتعرف على المنطقة التي أُطلق عليها

« أبواب القطط » نظراً لانتشار موميــاوات القطه « باستت » في هذا الموقع.

وقد بدأت البعثة العمل في الكشف عن هذه المقبرة في ظروف صعبه جداً نظراً لأن هذه المقبرة ذات أربعة مستويات مختلفه. ولذلك فقد كان الحفر فيه خطوره على حياة الأثري صاحب الكشف وأيضاً على العمال والمساعدين له. وقد وصل الحفر بعمق حوالي عشرين متراً تحت سطح الأرض. وقد تعرضوا إلى حدوث إنهيارات كثيرة في الأبيار المؤديه إلى حجرات المقبرة. ولنا أن نتصور مدى المعاناة ولحظات اليأس وخاصه لأن المكتَشِف، « آلان زيڤي »، لم يكن يتصور أن يتم تدعيم هذه الأبيار حتى يصل إلى المجهول في المستوى الرابع للمقبرة. ولحظة الوصول إلى المجهول والكشف عن هذا العالم الغريب تُعتبر من أهم اللحظات في عمر الأثري : وهي لحظة إستخراج الأثر بيديه بعد أن ظل مدفوناً لأكثر من ثلاثة آلاف عام.

وقد كان من الصعب الحصول على اعتمادات مالية أو خبرات لإمكان القيام بأعمال الترميم للمقبرة وتدعيم الجدران وعمل السلالم الخشبية لدخول حجرات الدفن. وكان هناك أيضاً تسرب مياه الصرف الصحي من إستراحة كبار الزوار على المقابر مما يزيد من صعوبة العمل.

وقد خدمت الظروف البعثة حيث تصادف وجود مؤسسة مترو الأنفاق الفرنسية والتي تعمل في ذلك الوقت في مشروع مترو أنفاق القاهرة. وقد قام « زيڤي » بالاتصال بهذه المؤسسة، وقاموا بالتعاون مع أساتذة كلية الهندسة جامعة القاهرة في دراسة الموقع ووضع الحلول للمشاكل الهندسية الموجودة بالمقبرة. وقد قاموا بعمل دراسة جيولوجية للموقع، ورسم خريطة مساحيه للموقع مُبين عليها تشققات الجبل وحالته. وقد تم وضع خطة علميه متكامله لتدعيم وتثبيت الأماكن المنهارة بالمقبرة حتى يتمكن الأثريون من استمرار عمليات البحث حتى يصلوا إلى المستويات المختلفه للمقبرة.

وقد قمت بزيارة المقبرة عام ١٩٨٩ وخاصه لأن سقارة تخض
لدائرة إشرافي. ولا أنسى هذه الزيارة وأنا أتسلق السلالم والممرا
الضيقه في مناطق مظلمه بعض الشيء. وبعد هذه الزيارة أيقنت مد
الجهد والعمل الجاد الذي تقوم به هذه البعثة في سبيل إضافة الكثي
إلى التاريخ المصري القديم.

وقد كان لهذه المساعدات الفنيه الأثر في قيام «زيڤي» في موس
عام ١٩٨٨-١٩٨٩ بالكشف عن حجرة الدفن الخاصه بالوزير «عبريا»
وقد إتضح للبعثة بأن هذه الحجرة مازالت تحتوي على الأثاث الجنائز
الخاص بصاحب المقبرة «عبريا» وزوجته «تاوْورت» وإبنه «حوي»
ورغم أن حجرة الدفن قد نُهبت في العصور القديمة والحديثة، إلا أ
الحرص والدقه في العمل كان له أثر فعَّال في إستخراج المتبقي داخ
الحجرة. وقد قامت البعثة بأعمال الترميم لكل أثر على حدة وبدق
متناهية وخاصة التوابيت. ونظراً لأن «عبريا» قد عاش خلال فترتي
هامتين من التاريخ المصري القديم في عصر «أمنحتب الثالث
و«إخناتون»، لذلك فقد وجدنا أن بعض الآثار المكتَشَفه جمعت بين ف
العمارنه المتحرر وفن «طيبه» التقليدي. وعندما نشاهد الصو
الفوتوغرافيه التي سجلت حاله الأثر عند الكشف، وخاصه التوابي
الخشبية المطعمه بحروف ونصوص هيروغليفيه مشكله من عجين
الزجاج بألوانها المختلفه، فسوف نعرف مدى دقه العمل في ترمي
الاكتشافات التي عُثر عليها داخل المقبرة. وقد عُثر داخل حجرة الدف
على أواني كانوبيه وصناديق خشبية وتمائم، وهذا يُظهر لنا القيم
الفنية العالية لهذه الفترة التي تأرجح فيها الفن بين تقاليده القديم
وفن العمارنه الذي جنح إلى الواقعية.

وقد عثرت البعثة على العديد من القطع الذهبية الهامة داخ
حجرة الدفن والتي تعكس مدى ثراء صاحب هذه المقبرة. وبلا شك فإ
الألقاب الخاصه بـ«عبريا» تشير إلى أنه لعب دور هام خلال تلك الفتر
حيث كان يحمل ألقاب "الأب الالهي" و"كبير الوزراء" و"مستشار مل
مصر السفلى" و"كريم النسب" و"النبيل".

وكانت البعثة تقوم كل عام بتسليم القطع الأثرية الذهبية المكتَشَفه إلى المتحف المصري. وكان المفتش المرافق للبعثة يقوم مع مدير البعثة وتحت إشراف مدير منطقة سقارة بوضع المقتنيات الذهبية في صندوق مختوم بخاتم لجنة من تفتيش آثار سقارة. وكان يتم إرسال الصندوق في حراسة الشرطة حتى يصل إلى المتحف المصري. أما بقية الآثار فكانت موضوعه بطريقة منظمة ومحفوظة حفظاً جيداً داخل مخزن البعثة الذي يقع بمنطقة سقارة.

وصفحات هذا الكتاب تناولها الباحث بأسلوب سهل وشيق، بحيث يكون في متناول العامة والمتخصصين في نفس الوقت. وهذا الكشف يُعتبر واحد من المكتشفات الهامة التي تمت في مصر من بين الكثير من الإكتشافات الهامة في تاريخ علم الأثار المصرية الذي يُعتبر علماً مازال في طور البداية بالمقارنة بالعلوم الإنسانية الأخرى. ولكن قليلة تلك الإكتشافات التي تمت ترجمة كتبها إلى العربية، وقليلة أيضاً تلك الإكتشافات التي يمزج فيها المكتَشِف بين علمه كأثري يتعامل مع حقائق ملموسه وبين إحساسه وشعوره الإنساني خلال مراحل الكشف. وهذا يذكرنا باكتشافات أخرى هامه تناولها مكتشفوها من نفس الزاوية مثل المرحوم زكريا غنيم، مكتشف هرم «سخم خت» بسقارة.

والمتصفح للكتاب الذي بين أيدينا يكاد يعيش مع المؤلف مراحل الكشف لحظة بلحظة، ويشاركه قلقه ومشاكله التي واجهته، وكيف إستطاع التغلب على هذه المشاكل. وتُظهر هذه السطور مدى تعلق الباحث الفرنسي بحب الآثار المصرية ومدى خوفه الدائم وقلقه المستمر على العاملين معه من العمال المصريين. وقد إستطاع المؤلف أن يُخرج لنا هذا الكشف في أسلوب قصصي جميل وشيق لأنه ليس من السهل على الأثري أن يكتب كتاباً للعامة، ولكن براعة «آلان زيفي» وأسلوبه الشيق جعلني أقرأ هذا الكتاب مرتين نظراً لدقته في إختيار الألفاظ ومحاولته لشرح الظروف التي صاحبت هذا الكشف.

في الفصل الأول يصحبنا «آلان زيفي» في رحلة شيقه إلى مدينة «منف»، وكيف عاش المصري القديم في العاصمة، وكيف إنعكست معتقداته الدينيه على أسلوب حياته. ثم ينتقل بنا المؤلف إلى جبانة

«سقارة»، ويوضح لنا أهميتها في عصورها المختلفه، ولا ينسى ما دار بها في العصور الحديثة، وبدايات العمل الأثري المنظم بها على يد الرعيل الأول من الأثرين.

ويتناول في الفصلين الثاني والثالث المرحلة الشاقة التي قطعها في سبيل الكشف عن المقبرة منذ أن حصل على تصريح الآثار عام ١٩٨٠، والصعاب التي واجهها، وكان بعضها خطراً على حياة العاملين بالمقبرة، والمفاجآت التي ظهرت أثناء مراحل الكشف، وخاصه العثور على بعض متعلقات السيدة «تاؤورت»، زوجة «عبريا»، والعثور على الأواني الكانوبية، والآثار الذهبية من أساور وقطع مكسيه بالذهب، وقصة العثور على الهيكل العظمي الخاص بـ«حوي»، إبن «عبريا».

وفي هذا الجزء من الكتاب يوضح لنا «زيڤي» الخطوات العملية التي تُتبع في أسلوب الحفر العلمي الصحيح، ودور الكيميائي في معالجة القطع الأثرية حتى لاتتعرض للتلف، ودور المصور والأثري الذي يقوم بتسجيل الأثر، وأعمال الترميم والمهندسين الذين يقومون بالرسومات الهندسية المختلفه لمستويات المقبرة الأربعة.

ويتناول المؤلف في الفصل الرابع قصة العثور على حجرة دفن كبير الوزراء «عبريا». ويستعرض المؤلف رأيه في تفسير اسم «عبريا» وإحتمالات الدور الذي لعبه أثناء فترة توليه منصب الوزير، ودوره كذلك كمربي في البلاط الملكي. وفي هذا الفصل يشرح تأثير علم الآثار على التاريخ. ويقول المؤلف :« أصبح الأثري أقدر الناس على فهم وشرح ما رأته عيناه وما إكتشفته يداه». وفي هذه الجملة بلاغه وصدق من المؤلف لأن المكتشف فعلاً هو أقدر الناس على تفسير ما إكتشفه لأنه تأمل ودقق في هذا الأثر الذي حمله بين يديه.

وقد أكد المؤلف أن «عبريا» هو مصري الأصل، ولكنه حاول أيضاً أن يشير إلى أن هذا الاسم ليس مصرياً ولكن أصلاً من بلاد سام أو أنه عبراني. وفي الحقيقة أن الاعتماد على الأسماء فقط لتأكيد أن الشخص أجنبياً ليس كافياً لأن هناك العديد من الأسماء أطلقها الأباء على الأبناء لظروف معينه. ويوجد أب مصري أطلق على ابنه اسم «نوت عنخ آمون»

في وقت إكتشاف المقبرة عام ١٩٢٢. ويوجد في مصر البعض الذي يسمي «هتلر» وخلافه. لذلك فإن الاسم الأجنبي لاينبغي بالضرورة أن يكون صاحبه أجنبي. أما «عبريا» فهو بلاشك مصري، وخاصه لأنه إحتل أهم منصب بعد فرعون أو بعد كبير الوزراء في «طيبه» أو تل العمارنه، بالاضافه إلى طريقة دفنه والمقتنيات الأثرية التي عُثر عليها تؤكد مما لايدع مجالاً للشك بأن «عبريا» مصري. وكما أشار المؤلف أيضاً إلى أن شكل «عبريا» وذلك من خلال أحد أغطية الأواني الكانوبية لايشير هذا الشكل إلى أنه أجنبي بل يؤكد تشابهه التام مع ملامح وشكل المصريين في ذلك الوقت. وإن كنا لانتفق مع المؤلف في محاولة التلميح للربط بين «عبريا» وسيدنا يوسف عليه السلام والتي يقبلها ويرفضها في نفس الوقت، مما قد يثير جدلاً لا نهاية له. وقد يشحن ذهن القاريء بتصورات غير مؤكدة. وللمؤلف أن يرى ما يراه من تخريجات. ولنا أن نناقشها ونحاول إبداء رأينا الشخصي في هذا الموضوع. وللقاريء أن يقبل أو يرفض هذه الافتراضات بشيء من الحرص رغم أن المؤلف كان أميناً في إفتراضاته، وهذا الواجب الذي تمليه عليه أمانة وروح البحث العلمي. ورغم أن «عبريا» كان يحمل لقب "المسؤول عن تربية الأطفال الملكيين" و"الخادم الأول لآتون"، إلا أن هذا لايعني أن «عبريا» قد أثر على فكر وعقيدة «إخناتون». وقد يكون العكس هو الصحيح، حيث أن جذور الديانة الآتونية وفكرها تمتدت إلى ما قبل «إخناتون» بمراحل، بالتحديد بعصر «تحتمس الرابع». وهذا يدفعنا إلى إفتراض تأثير الإرهاصات الأولى للديانة الآتونية قبل إعلانها بشكل واضح على يد «إخناتون» على «عبريا» وغيره من مثقفي وكهنة وكبار رجال الدولة في ذلك الوقت.

وفي رأي الشخصي فإن اللقب الذي حصل عليه «عبريا» هو "الخادم الأول لآتون" قد حصل عليه بصفته كبيراً للوزراء. لأنني لاأعتقد بأن هناك معبداً لآتون في سقارة. وهذا اللقب قد يكون لقباً شرفياً حصل عليه «عبريا» نظراً لأنه المسؤول أمام الملك عن الدلتا، وفي نفس الوقت لكي يُعلن «عبريا» إنتسابه إلى «أخناتون» وباقي أعضاء البلاط الملكي. ومن المقطوع به حتى الآن أن هناك علاقة بين أناشيد «إخناتون» ومزامير داود، وخاصه المزمور ١٠٤. وقد أيد هذا الرأي

العديد من علماء المصريات وعلى رأسهم «چيمس هنري برستد».

وقد حدثت معارضات شديدة لهذا الرأي لأن معنى ذلك أن «إخناتون» وفكره ودينه الجديد قد أثر تأثيراً مباشراً على العبرانيين. ولكن المقارنة التي قام بها «برستد» بأن هذا التشابه لايمكن أن يكون نتيجة توارد الخواطر.

ونعرف من خلال التاريخ المصري القديم أن العبرانيين عاشوا في مصر خلال الدولة الحديثة. وتطابق المزمور ١٠٤ مع أحد أناشيد «إخناتون» يشير إلى أن المزمور منقول عن «إخناتون». كما إنني لاأعتقد أن «إخناتون» تربى في البلاط الملكي وتلقى دروسه على يد «عبريا»، المسؤول عن تربية الأطفال الملكين. ورغم أن هذه هي إحدى التخريجات التي افترضها المؤلف، ثم عاد ونفاها نظراً لعدم وجود نص مباشر يشير إلى ذلك ، ولكن الأدلة الموجودة لدينا تشير إلى أن «عبريا» قد حمل اللقبين اللذين أشرت لهما من قبل.

وإذا كان لـ«عبريا» علاقة وطيدة بالديانة الآتونية، فلماذا لم يعش ويعمل بجوار «إخناتون» قبل العمارنه. وهذا هو الوضع المنطقي، ولكنه كان يحكم باسم الملك شمال مصر، وبالتالي يعيش بعيداً عن المدينة القديمة «أخت آتون» أي مشرق «آتون». ونستخلص من المناقشة السابقه أن «عبريا» قد إتفق مع الديانة الجديدة، ولكن نستبعد تماماً تأثيره عليها.

وهنا أود قبل أن أختم هذه المقدمة أن أشير إلى نقطتين هامتين تُحسب للمؤلف :

أولاً : تناول الآراء العلميــــة بأسلوب علمي راق ولم يدخل في المهاترات والمجادلة بل أشار إشارة واضحة أن «عبريا» هو مصري أصلاً ودماً، ولم يُدخل القاريء في إرهاصات وجدل. وهذه هي مهمة الباحث الواعي المتخصص لأن غيره قد يدخلنا في إفتراضات. وعندما أشير إلى كلمة "غيره" فهذا يعني غير المتخصصين الذين كتبوا كتباً نسبوا فيها ملوك وأشخاص مصريين إلى بعض أنبياء الله وليس لديهم أي سند. وكان هدفهم تحقيق المال والشهرة، ولكن نهاية هذه الكتب

وضعها على الأدراج دون قراءة أو حتى عدم شرائها. ولكن كتاب العالِم الأثري « آلان زيڤي » سوف يكون له فائدة ليس للأثريين والطلاب فقط بل وأيضاً للعامة لأنه يلقي لنا ضوءاً هاماً على فترة هامه من تاريخ مصر العظيم.

وثانياً : أود أن أشير إلى المجهود الكبير الذي بُذل في الترميم وتأمين أبيار المقبرة. كما أشير إلى دور المكتَشِف الشخصي في سبيل إتباع الأصول العلمية سواء في الكشف أو التسجيل أو الترميم.

وأود أيضاً أن أشير إلى المبادرة الطيبه التي قام بها الدكتور « آلان زيڤي » في سبيل إخراج هذا العمل إلى النور للقاريء العربي. وأتمنى أن يتبعها مبادرات أخرى من علماء الآثار الأجانب الذين يعملون في الحفائر والإكتشافات. وأود أيضاً أن أشكر السيد/عماد عدلي لقيامه بترجمة هذا الكتاب بدقه. وكذلك الدور الكبير أيضاً الذي قامت به السفارة الفرنسية بالقاهرة للمساعدة في نشر هذا الكتاب وخاصه السيد/ريشار چاكمون.

وأخيراً فإنه يسعدني أن أقدم هذا الكتاب للقاريء لكي يكون إضافة جديدة إلى كتب الآثار التي تفتقدها المكتبة العربية.

والله ولي التوفيق

دكتور زاهي حواس



مقدمة المؤلف للطبعة الفرنسية

إن مصر هي بلد العجائب والكنوز الخفية. ذلك هو ما اشتهرت به على أي حال منذ أكثر من ألفي عام. وقد كان ذلك حقيقياً إبان العصر اليوناني، ثم تواصل خلال العهد الروماني، ثم فيما بعد أثناء العصر الإسلامي. وهكذا لقي كتاب «الدرر المصونة والأسرار المكنونة» نجاحاً واسعاً في مصر في العصور الوسطى. وكان ذلك الكتاب يزعم إرشاد قرائه للعثور على الطرق التي تفضي بغير شك إلى الثروات المفترض اختباؤها منذ عهد الفراعنة داخل كل هرم وأسفل كل تمثال وفي جوف كافة الأطلال المنتشرة في جميع أرجاء البلاد. ومن ثم فما أفدح أعمال التخريب التي اقترفتها أجيال من القراء الذين استثارهم ذلك النوع الغريب من الكتب! وحتى أيامنا هذه يجدر بنا الاعتراف بأن ذلك الصيت الرائع والثقيل لايزال يكلل ضفاف النيل أكثر من أي وقت مضى. كما يفسر إلى حد ما النجاح الكبير الذي يلقاه في كافة أرجاء المعمورة كل مايدعو إلى السفر والارتحال من كتب وأفلام ومعارض.

ولامراء في أن كل ذلك يأتي من بعيد، بل من بعيد جداً. فقد شهدت القرون الأخيرة قبل الميلاد أفول نجم الحضارة الفرعونية العريقة من الناحية السياسية بالتأكيد. غير أن قِدَمِها وما اشتهرت به من حكمة سحيقة، وكتابتها الهيروغليفية المختلفة جداً، وآثارها الشامخة راحت تُدهش أكثر فأكثر الرحالة وتسحرهم، سواء من الهواة الفضوليين أو كبار المتخصصين الذين كانوا يتوافدون عليها من بلاد اليونان والإغريق. وقد سبق هؤلاء وصاحبهم وتلاهم عن قرب يونانيون آخرون سيتقلدون عرش السلطة في مصر، ويعتصرون خيراتها بانتظام وبدون أي وازع من ضمير، ولكن أيضاً بإعجاب. وعلى أي حال كان هؤلاء السادة

الجدد يكنون للتقاليد والشعائر و"العلوم" المصرية احتراماً وتواضعاً صادقاً على الأحرى. وقد دفعت نفس الجاذبية في الواقع أكبر فلاسفة وحكماء اليونان لزيارة وادي النيل : إذ جاءوا يلتمسون من الكهنة المصريين قبساً من حكمتهم العتيقة. ولذلك فقد رأى كل من «فيثاغور PYTHAGORE »و«يودوكس EUDOXE » وحتى « أفلاطون PLATON » ضرورة اجراء "دورة تدريبية" في مصر (أو إدعاء ذلك)، لاسيما لدى كهنة مدينة عين شمس العريقة.

وقد تواكب ذلك أيضاً مع بداية أعمال السلب والنهب الموّسعة التي تعرضت لها مصر وآثارها. فلم يعد الأمر يقتصر على اغتصاب الثروات الحقيقية أو الخيالية للروح المصرية. بل تعدى ذلك واستهدف الطمع أموراً ماديه : كالحاصلات الزراعية والمنتجات الحرفية، والثروات المعدنية وأحجار المحاجر التي يصعب بلوغها، والتماثيل والعناصر المعمارية الزخرفية، وحتى المسلات. وراح ذلك الوضع يتفاقم في ظل الاحتلال الروماني. ويرجع إلى ذلك العهد كافة الآثار المصرية التي لاتزال منتصبة على ضفاف نهر «التيبر». ومما سهل من تلك العملية هو أن الثروات المصرية سواء المادية أو الفكرية، الملموسة أو الرمزية كان العامل المشترك بينها هو كونها في متناول اليد. ألم يكن يكفي مجرد الانحناء (بل ليس في جميع الحالات) لالتقاطها ؟ ومن الخيرات التي تجود بها التربة والفيضان وحتى غنائم ثقافة ساحره، كان كل شيء يؤجج الرغبات ويستثير الجشع والاشتهاء. كانت مصر تبدو موطن الأحلام والثروات التي لاتُعد ولاتحصى، والتي تهب نفسها بدون حساب. أما الغزاة فكانوا يتسمون بالغطرسة والاستعلاء تارة، والتواضع والاحترام تارة أخرى. وكان قادتهم يدفعهم نفس القدر من الطمع والإعجاب الصادق.

ولكن ماذا كان موقف المصريين من كل ذلك ؟ لقد استوجب عليهم التكيف مع هذا الوضع بعد أن اغتُصِبَت حقوقهم على مدى فترات طويلة، ورضخوا لثقافات أجنبية على الرغم من وعيهم العميق بذاتيتهم الخاصة. بل لقد سعوا إلى قلب كِفّة الميزان في صالحهم. وغالباً ما نجحوا بالفعل في ذلك، حتى وإن استلزم الأمر التظاهر بمداهنة

الأجانب واعتناق وجه نظرهم. وبإيجاز شديد كانوا لايترددون في "المبالغة"، على سبيل المثال من خلال التفسيرات التي كان يعطيها للزائرين اليونانيين والرومانيين المرشدون المحليون وبعض الكهنة الذين كانوا يتقنون فن الخداع والمراوغة. بل لقد بلغ بهم الأمر أحياناً إلى تصديق بعض الأساطير التي كانوا يقصونها على زائريهم ؛ وانتهى بهم المطاف بالتأكيد إلى استساغة الصورة الزائفة التي تنعكس من المرايا التي يسلطها عليهم هؤلاء الأجانب.

بيد أنه في تلك الأثناء أخذت الأعوام تتلاحق، وراح نجم الحضارة المصرية العريقة يخبو رويداً رويداً. وفي أعماق المعابد مافتئ الكهنة يسعون إلى حماية الثقافة التقليدية من شبح الاندثار ؛ بل كانوا يحاولونْ تنميتها وإثراءها عن طريق الاستعانة بالنظام الهيروغليفي القديم كأداة فكرية. غير أنهم على هذا النحو راحوا ينفصلون أكثر فأكثر عن الواقع، وعلى أى حال أخذوا ينعزلون عن الحياة اليومية. إذ كان الوعي بالكتابة الهيروغليفية القديمة في تناقص مُطَّرِد. ومع ذلك فقد نشب صراع ضارٍ بين أنصار العالم القديم ومؤيدي الديانة المسيحية الجديدة التي راحت تنتشر في الشرق. بيد أنه سرعان ما انطفأ الفكر والثقافة المصرية القديمة بالمعني العميق للكلمة. ومنذ تلك اللحظة استفحل الخلاف وبلغ ذروته. وستؤدي تلك الهالة الزائفة بعض الشيء التي كانت تكلل جبين مصر، وميل كهنة القرون الأخيرة للألغاز والخفايا التي تستعصى على الفهم، ستؤدي إلى أن تُسْتَبْدَل صورة مصر الحقيقية بصورة خيالية مصطنعة. وسيختلط فيها بلا نظام الرسوم الهيروغليفية، والمومياوات ذات الجمال المُنَفِّر، وسراديب وغرف الدفن السرية إلى حد ما، والمعابد الشامخة التي تأوي إناساً مثاليين يرتدون الكتان الأبيض ويغرقون في تأمل الأسرار الإلهية، والمريدين الذين يزعمون بلوغ المعرفة "الحقيقية"، واللعنات بشتى أنواعها، والكنوز والذهب المتواجد بالطبع في كل مكان، والأهرامات بشكلها المزعج من فرط بساطتها ...

ثم تعاقبت القرون وتوالت الامبراطوريات. وفي عام ٦٤١ قام العرب بغزو البلاد بيسر وسهولة، وأحدث الإسلام نوعين من التغيرات

الهامة : تغير في الديانة من جديد، ولكن أيضاً وعلى الأخص تغير في اللغة، أي في تصور وإدراك الواقع ورؤية العالم. ومالبثت اللغة الفرعونية العريقة - التي كانت لاتزال قائمة في شكل اللغة القبطية - أن اندثرت لتحل محلها اللغة العربية. وفيما بعد ستختفي اللغة القبطية بدورها إلا في طقوس وشعائر الكنيسة المصرية. ومع ذلك التغير الجوهري ازداد اتساع الهوة السحيقة التي تفصل بين الغرب و مصر القديمة. ومنذ ذلك الحين تهاوت بالفعل آخر الجسور التي كانت تربطهما. وتعين الانتظار قروناً قبل أن يتراجع الفضول المُتَّقِد، الذي تشوبه في الغالب الأفكار المُسبَّقة، يتراجع تدريجياً أمام الفكر المنهجي ثم العلمي فيما بعد. عندئذ حدث انقلاب سريع جداً جميعنا يعلم أحداثه الرئيسية. ففي عام ١٧٩٨ كانت الحملة الفرنسية على مصر تهدف إلى قطع طريق الهند أمام الإنجليز، والاستيلاء على مصر، وإقصاء نابليون بونابرت. وقد اختار هذا الأخير أصطحاب زمرة من العلماء والمهندسين راحوا يرصدون كل شيء عن مصر ويدونونه في كتاب. وعلى هذا النحو فقد مزجوا بين الفكر النزيه لعصر الأنوار وبين مآرب ضمنية تتمثل في تحقيق فتوحات استعمارية. كما تمخض عن ذلك وضع موسوعة وصف مصر *Description de l'Égypte* بما تحويه من كم هائل من المعلومات تشمل كافة أوجه الحياة في مصر. وفي تلك الأثناء، كانت فترات الهمة والحماس تتناوب مع لحظات الإحباط والوهن في حياة شاب سينجح في تنفيذ حلمه : ألا وهو فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية وفتح أبواب مصر القديمة على مصرعيها. لقد تخلد اسم «چان فرنسوا شامپليون Jean-François Champollion» بفضل كشفه للحضارة الفرعونية من خلال رسالته الشهيرة إلى السيد داسييه *Lettre à Monsieur Dacier* التي ألقاها أمام أكاديمية الآداب في السابع والعشرين من شهر سبتمبر ١٨٢٢.

وقد كان الطريق لايزال طويلاً تتخلله العديد من العقبات بعد هذه اللحظة التي شهدت ميلاد عِلْم المصريات. إن هذا العِلْم الوليد يعني تناول جديد ومعالجة علمية تستند على العقل، وترتكز فقط على الحقائق الثابتة بدقة للحضارة الفرعونية وتاريخها وإنجازاتها وجوهر فكرها. غير أن الهوس بمصر القديمة بمعنى التناول الذي يرتكن إلى

الخيال (الذي كان خصباً أحياناً على الصعيد الفني) قد استمر بصورة موازية. وربما خال لنا أن الصورة التقليدية لتلك الحضارة العريقة كانت ستتوارى من الآن فصاعداً، وستذهب أدراج الرياح تحت وطأة الجهود المشتركة للفكر المنطقي والحقائق، والتقدم السريع لعلم حديث راح يحث الخُطى نحو استكشاف ما يزيد عن ثلاثة آلاف عام تمثل ثغرة كبيرة جداً في جدار الذاكرة الانسانية. بيد أن الأمور ليست بهذا القدر من البساطة. فما أصعب مكافحة اللامعقول وما يحيطه من أساطير، وما أعسر استنفار المعارف والتساؤلات المؤكدة والصارمة أحياناً في مجابهة السحر الذي لايزال يحتفظ بقدر من الجاذبية والإغراء على الرغم من مضي مايزيد عن ألفي عام أحياناً ! ولكن لحسن الحظ لم يكف علِم المصريات عن ترويج وإشاعة الحقائق وسط جمهور لايعكف غير المستنيرين من الهواة عن غوايته وإغرائه بنظريات غامضة إلى حد ما ولاتربو دائماً إلى عظمة الخيال. ولاتتردد أحياناً وسائل الإعلام في لهثها وراء الإثارة الرخيصة في تناول تلك النظريات بالتهويل والتضخيم، جارفة معها سيل الصور غير المتجانسة التي اقترنت في اللاشعور الغربي بصورة مصر الفرعونية منذ غروب شمسها : كنوز وثروات، وغرف سرية وأهرامات مزيفة. وفي هذا الصدد يكفي أن نتذكر الشغف الذي استحوذ على فرنسا منذ أربعة أعوام لفكرة أن هرم الملك خوفو "ربما لم يبح بعد بكافة أسراره" (وفقاً للتعبير الشائع الذي كثيراً ما قرأناه وسمعناه) !

لامراء في أن علِم المصريات يثقل أحياناً بدون قصد كفة هؤلاء الذين يتمسكون بأهداب أساطير المنجمين واللعنات والكنوز المستترة. ومن هنا ينبع غموض النجاح الذي تحققه المعارض الأثرية الكبيرة المكرسة لمشاهير الفراعنة وثرواتهم الجنائزية. ولكن ما السبيل للحيلولة دون ذلك علماً بأن مصر القديمة هي أيضاً مقابر وكنوز جنائزية لامثيل لها ؟ هل يجوز لنا مواراة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أو إنكار الإسهام الخارق الذي تمثله بسبب الحماقات التي كُتبِت (ولاتزال تُكْتَب بكثرة) حول لعنة الفرعون المزعومة، وإنتقامه المتجسد في وقوع "حوادث مريبة وغامضة أدت إلى الموت" ؟ لا، ينبغي علينا الترديد بدون كلل أو ملل بعدم وجود أية نوع من اللعنات

في المقبرة، وأن الأحداث المزعومة التي ساقتها الجرائد في ذلك الحين كاذبة أو مُحَرَّفة، وأخيراً أن مكتشف المقبرة «هوارد كارتر Howard Carter» نفسه قد توفى بصورة طبيعية – إذا جاز لنا القول – بعد بلوغه سن الخامسة والستين.

إن الحديث عن «كارتر» يقودنا بصورة طبيعية إلى التنويه إلى الحياة المثالية لذلك الرجل المثابر والمنهجي ؛ وكذلك إلى الإشارة إلى عِلْم المصريات والفترات العصيبة التي اجتازها، والنجاحات التي أحرزها من خلال تلك الشخصيات المتنوعة والمتناقضة أحياناً التي يمثلها علماء المصريات. وسواء كانوا من فرسان العمل الميداني (كالأثريين والمتخصصين في دراسة النقوش) أو من رواد المعامل والمكاتب أو الإثنين معاً، غالباً ما يُنظر إليهم من خلال أكلاشيهات وصور خيالية قد تختلف باختلاف العصور. وغالباً ما ينظر الجمهور إلى عالِم المصريات كشخص غريب الأطوار، مثيراً للأحلام والسحر تارة، ومبعثاً لقدر من السخرية تارة أخرى. وأحياناً يتجلى في شخصية «دكتور جروسجرابنشتاين Doktor Grossgrabenstein» العجيبة التي رسمها «چاكوب Jacobs» في قصة «لغز الهرم الأكبر *Le Mystère de la Grande Pyramide*» ؛ وأحياناً أخرى في شخصية «انديانا چونز Indiana Jones» الساحرة كما صورها «سبيلبرج Spielberg» في أفلامه، حيث يضع البطل على التوالي قبعة المغامرين المنبعجة من ذوي الدوافع المريبة والنظارة المطمئنة للجامعي النابغ. وقد اخترنا هذين المثالين الشهيرين نظراً لارتقائهما إلى منزلة الأسطورة. كما أن كونهما من شخصيات القصص المصورة والسينما ليس عفوياً. نظراً لأن هذين الفنين يمثلان في الواقع انعكاساً رائعاً للأكلاشيهات الشعبية، ويسهمان بصورة جدلية في تشكيل وصياغة اللاشعور الجماعي.

وعلى هذا النحو يظل الغموض والتناقض يغلفان صورة عالِم المصريات : فقد يبدو لطيفاً مفرطاً في التمحيص، أو باحثاً عن الكنوز مستتراً خلف قناع العالم. غير أن عالِم المصريات يمكن أن يكون في نفس الوقت عظيماً قادراً على استثارة "الحلم"، تماماً مثل موضوع

أبحاثه : أي مصر القديمة. ومن هذا المنطلق ربما دفعه الإغراء الشديد والشعور بالإطراء والضيق في نفس الوقت، للإعتصام داخل برج عاجي. ولكن أليس من الأجدر بالعكس استغلال تلك الصور المشوشة والمتناقضة - والتي تدل على قدر من الانبهار - للتعريف بصورة أفضل بطبيعة عِلْم المصريات وحقيقة القائمين عليه ؟ وبعبارة أخرى لايجب نبذ كل شيء في مجمله، والمجازفة بجفاء الجمهور المتعطش لمعرفة المزيد عن تلك الحضارة التي تجذبه وتؤثر فيه أكثر من الحضارات الأخرى. وفضلاً عن ذلك ألم يتفتق ذلك الافتتان بمصر عن براعم عديدة أثمرت عن نخبة من علماء المصريات على مر الأجيال ؟

وبالتالي فبدلاً من رد الفعل السلبي أو الرفض التام، حري بنا أن نسعى لإبراز أن مصر القديمة غنية بقدر كافٍ من العجائب والأسرار الحقيقية مما لايترك متسعاً لاختلاق أساطير كاذبة. كما أنه من المُحَبَّذ استبدال لفظة "أسرار" بما تحويه من مدلولات غامضة وخيالية بالفاظ أخرى أكثر حيدة مثل "مشكلات" أو «تساؤلات". كذلك لاينبغي التركيز فقط على الطابع الأكاديمي لعالِم المصريات لأن ذلك يهدد بإفساح المجال أمام الجهلة، بل وأسوأ من ذلك المغامرين من ذوي النوايا السيئة شأن الكثيرين الذين نراهم يحومون حول هذا النوع من الأبحاث. إذ يترای لنا من الأفضل جداً التعريف الدقيق بحقيقة البحث الأثري، لاسيما ما يتم إجراؤه على الصعيد الميداني. إن علماء المصريات شأنهم في ذلك شأن المتخصصين في بقية الميادين العلمية، يستمدون التأييد والسمو من المنهج البحثي الجدير بهذا الاسم. وما أكثر السبل التي يمكنهم سلوكها شريطة أن تقودهم صوب استكشاف المجهول ! ولماذا ننكر عنصر المغامرة الذي يدخل في تركيبة هذا المنهج، تماماً مثلما يدخل في تولفية أي بحث حقيقي ؟ ولشد ما استُخدمت كلمة "المغامرة" في غير محلها، ولاكتها الألسن حتى أن مجرد التفوه بها يُشْعِرنا بشيء من الحياء. بيد أنها لاتزال تحتفظ بقدر من رونقها السالف. وبالطبع إننا لانقصد ما تعنيه تلك الكلمة في أيامنا هذه : كاجتياز الصحراوات بسرعة فائقة على متن سيارات مبرقشة تغطيها الملصقات الإعلانية، أو تحطيم أرقام قياسية في مجال الرياضة، أو الانصياع لمنظمي الرحلات الذين يوهمون

عملاءهم بتقمص بعض الشخصيات الأسطورية ... إن المغامرة الحقيقية يمكنها أن تتجسد بصورة أفضل في بعض الأبحاث التي تجري في مصر أو في غيرها من البلدان، وفكرة الاقتفاء والتقصي التي قد تفضي إلى اكتشافات، وإن اقتضت بالضرورة مطاردة عنيدة ورحلة في عالم المجهول. وإن ذلك لايتم بمنأ عن المخاطر المتنوعة والجسيمة إلى حد ما، والتي لاتفلح أي احتياطات في استبعادها. وأبسط هذه المخاطر هو الإخفاق والعودة من الرحلة الطويلة بخُفَّي حُنين، وفقدان جو الهدوء والسكينة، والتشكيك في المُسَلّمَات، والحياد عن الطرق المهيأة لضمان منصب مرموق، والتضحية بالصحة أحياناً، بل بأكثر من ذلك في أحيان أخرى استثنائية.

ولكن مـا أعظم الكنوز الكامنة في آخر هذا الطريق الطويل والعسير في الغالب : اكتشاف كنا نتوقعه ونؤمن به وإن كان يشب عن المعايير المتعارف عليها ؛ وإعادة طرح بعض التساؤلات الجوهرية ؛ وجزء من التاريخ ينبعث من دياجير الماضي ؛ وجمال ينبثق من وسط الرمال والأتربة ؛ وجوانب من الحياة الإنسانية السحيقة تطفو على سطح الوعي والمعرفة ؛ والعديد من الأشياء الأخرى. ولاشك في أنه يوجد العديد من المناهج التي يمكن اتباعها في التفتيش عن الماضي البعيد. وقد تكون بعض هذه المناهج مذهلة، وإن كانت جميعها تتسم بنفس القدر من الأهمية. كما أن المغامرة إذا كانت حقيقية في جميع هذه الحالات فهي قبل أي شيء داخلية ومجازية إلى حد ما. ولكن أحياناً قد تتخذ بالإضافة إلى ذلك أشكالاً ملموسة، وتذكرنا ببعض الاكلاشيهات التي جرت العادة على اقترانها بالصورة التي نكونها عن الآثار المصرية.

إن ذلك ينطبق في الواقع على الأبحاث والاكتشافات المسرودة في هذا الكتاب. إذ نجد بعض تلك الأفكار المتداعية وبعض المواضيع التي لامناص منها : كالهبوط والزحف داخل السراديب، ومقبرة شخصية هامة جداً ترتبط عن قرب بأحد الملوك وإن كان التاريخ قد أسدل عليها ستار النسيان، وغرفة مسدودة بالجدران، وكنز جنائزي، وقطع أثرية تبدو غير مألوفة، والحقبة التاريخية التي عاش فيه صاحب المقبرة

والتي تسمح بإثارة التأويلات الخيالية أو حتى الجامحة ؛ يضاف إلى كل ذلك بالطبع شتى المصاعب والعقبات. غير أن أهم ما في الأمر هو المنهج الذي نتناول به تلك العناصر والذي يظل نفس المنهج الذي يهيمن على كل بحث أثري حقيقي : ألا وهو محاولة "الفهم" و"المعرفة". يضاف إلى ذلك في المثال الذي يعنينا الرغبة في المحافظة على موقع هام وغير معروف كان في طريقه إلى الدمار دون أن يلتفت أحد إلى ذلك.

إذا كان هذا الكتاب يهدف أولاً إلى سرد وقائع اكتشاف، فإنه يدين كثيراً إلى الأفكار والملاحظات المطروحة في الصفحات السابقة. وبالتأكيد يتعلق الأمر في المقام الأول بالتعريف سريعاً ببحث واكتشاف يثير اهتمام دائرة تتعدى بكثير نطاق المتخصصين، كما سبق لي ملاحظته كثيراً. فبالإضافة إلى ذلك الالتزام المعنوي الذي يشاطرني فيه الجميع بحماس، هناك الرغبة في اغتنام هذه الفرصة المتاحة للتصدي – على نطاق متواضع – لعدد من الأفكار الخاطئة التي أشرت إليها آنفاً. إن الأبحاث التي تجري في سقارة منذ قرابة عشرة أعوام داخل مقبرة كبير وزراء الأسرة الثامنة عشرة «عابر-آل Aper-El» (أو عبريا Aperia) يمكن أن تسلط الضوء على آليات العمل الأثري الميداني، حتى وإن كنا بصدد مثال خاص جداً.

وبشكل موازٍ للإعداد البطيء بطبيعة الأمر لنشر علمي متكامل موجه للمتخصصين دون غيرهم، دفعني الإغراء الشديد لتأليف كتاب محدود الأبعاد للجمهور العريض. وقد سعيت من خلاله إلى التعريف بأبحاث ربما تحتفظ في جعبتها بالمزيد من المفاجآت، وباكتشاف لم تتحدد بعد كافة أبعاده. يهدف هذا الكتاب إلى سرد وقائع مغامرة علمية بما تحويه من إثارة في وقت يثير فيه البحث العلمي بصورة عامة والأثري على وجه الخصوص اهتماماً متزايد ؛ وكذلك في وقت يتضافر فيه اللامعقول والعلوم الزائفة والروايات التاريخية المزعومة في سباق محموم لتصيد القراء. كما يهدف إلى الإجابة عن سؤال غالباً ما يطرح نفسه عن طريق إبراز الخطوات الأولى لبحث سيجند جزءاً كبيراً من حياتنا دون أن نشك في ذلك فعلاً في البداية. وذكر اللحظات

المختلفة التي تعين علينا اجتيازها خلال ذلك الهبوط الطويل نحو عالم مجهول قد كونا عنه بعض التصورات. كما زُود هذا الكتاب بالعديد من اللوحات والصور التفسيرية لإبراز ما تم تنفيذه من أعمال والقطع الأثرية الفريدة التي عثرنا عليها في ذلك الموقع بعد تذليل كافة المصاعب التقنية غير المعتادة.

إن ضعف الإمكانيات يضفي على تلك "المغامرة العلمية" مزيداً من الإثارة. وقد اقتضت طبيعة الأمور وظروف العمل الشحيحة إلى بذل جهود فردية مضنية قبل تكوين مجموعة عمل صغيرة رويداً رويداً. لقد كان المشروع في بدايته وليد اختيار شخصي للغاية : اختيار باحث يتسم بالإصرار الشديد والفضول الجامح، وهي صفات أساسية ينبغي أن تتوافر في شخصية كل باحث.

غير أنه ما كان باستطاعتنا تنفيذ أي شيء منذ البداية وأكثر فأكثر مع تقدم المشروع بدون مساندة بعض الزملاء والأصدقاء والمؤسسات العامة والخاصة، ولولا ثقتهم في لحظة من اللحظات بهذا البحث ورغبتهم في معرفة المزيد عن هذه المقبرة المنسية. ومع مرور الأعوام اتسعت قائمة تلك المساعدات وهؤلاء الأصدقاء لدرجة جعلتني أفضل أن أوردها على حدة في نهاية هذا الكتاب. أما الطابع غير المتجانس لهذه القائمة فيؤكد لنا، إذا ما كانت هناك حاجة، الاهتمام الواسع الذي يمكن أن يلقاه عِلْم الآثار المصرية إذا تكبدنا عناء شرح مفهومه ومنهجه.

وليأذن لي القارئ أن أذكر في هذا الصدد أسماء أشخاص بدونهم لما خرج هذا المشروع إلى حيز النور، ولولاهم لما تقدمت أعمالنا عما كانت عليه منذ أربعة أو خمسة أعوام. وفي البداية فإنني أذكر مصر بطبيعة الحال التي دأبت منذ أمد بعيد على استقبال البعثات الأثرية الأجنبية بكرم وسخاء، لاسيما هيئة الآثار المصرية التي وافقت على هذا المشروع وتابعت تنفيذه عن كثب. ومن الجانب الفرنسي يجدر بنا ذكر السيد «چان ليكلان Jean Leclant» أمين سرّ أكاديمية العلوم والآداب الذي وعى أهمية هذا المشروع وسانده منذ البداية ؛ واللجنة الاستشارية للحفائر الفرنسية في الخارج التابعة لوزارة الشؤون

الخارجية التي اختصت الحفائر بميزانية خاصة (البعثة الأثرية الفرنسية بالبوباستيون)؛ والمركز القومي للبحث العلمي الذي انتسب إليه منذ خمسة عشرة عاماً. كما لايسعني إغفال الدور العظيم الذي قامت به أربع مؤسسات مختلفة في إطار سياسة رعاية العلوم، وحيث وجدت أصدقاء سيطرت عليهم رويداً رويداً نفس الفكرة الثابتة التي كانت تلح عليّ: الاستمرار في العمل رغم كافة العراقيل وبلوغ شط المعرفة. ويتعلق الأمر بمؤسسة مارتين-ليون Fondation Martine-Lyon وشركة سوسيتيه چنرال للمقاولات Société générale d'entreprise (مشروع مترو الأنفاق بالقاهرة)، ومؤسسة پاريبا Fondation Paribas، ومؤسسة سوسيتيه چنرال Société générale التي ساعدتنا كثيراً خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة.

وأخيراً يحدوني الأمل في أن يتمكن القُرّاء على مدى صفحات هذا الكتاب من مشاطرة اللحظات الخالدة التي عشناها داخل مقبرة «عبريا»؛ وأن تستحوذ عليهم نفس المشاعر والأحاسيس أمام القطع الأثرية الفريدة أحياناً التي تمخضت عنها الحفائر؛ وأن يدركوا أن علم المصريات على الرغم من صرامته أحياناً سيحتفظ على الدوام بشذى المغامرة وعبير المجهول شريطة الحياد عن الدروب الممهدة وعدم نسيان الغاية الأساسية من كل ذلك: ألا وهي دراسة التاريخ بمفهومه الواسع والعريض. ومن جهة أخرى ستبلغ سعادتي ذروتها في يوم من الأيام عندما يقرأ طفل صغير (أو طفلة صغيرة) هذا الكتاب، ويعتزم هو الآخر شد الرحال عندما يكبر صوب اكتشاف مقبرة منسية. ولعله لايخشى الانتظار: فسيتبقى دائماً مقابر أخرى في سقارة أو في أي مكان آخر!

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

أود أن أعرب عن سعادتي البالغة لصدور هذا الكتاب باللغة العربية بفضل هذه الترجمة الرائعة التي قام بها السيد عماد عدلي، وبفضل كل من دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، وقسم الترجمة التابع للبعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة. كما يغمرني نفس القدر من السرور والغبطة لاستهلال هذه الطبعة بمقدمة مُسْهبة وغنية للدكتور زاهي حواس الذي كانت خبرته بمنطقة «منف» ودعمه البَنَّاء على مدى سنوات عديدة حافزاً هاماً لأعمال بعثتنا الأثرية.

ونظراً لانقضاء مايزيد عن أربع سنوات على صياغة النص الأصلي باللغة الفرنسية، فسأغتنم فرصة صدور الطبعة العربية لإعادة طرح نقطة أو نقطتين بإيجاز شديد تبدوان لي على جانب كبير من الأهمية.

إننا إذ نضع هذه الترجمة بين يدي قارئ العربية بصورة عامة والقارئ المصري في المقام الأول، سواء من المتخصصين والزملاء والدارسين أو بصورة أعم المتعطشين لمعرفة تاريخهم العريق وتراثهم الأثري الذي لايُضاهى؛ نود أن نشير أولاً إلى أن هذا الكتاب ينطوي على سرد واقعي لبحث مُضْنٍ طويل الأمد قام به في مصر عَالِم مصريات فرنسي الجنسية. ومن هذا المنطلق سأكون سعيداً إذا أعان على تحسين فهم وإدراك القارئ المصري للأسباب التي تدفع رجالاً ونساء من كافة بقاع الأرض للتردد على مصر بصورة منتظمة، والمكوث بها شهوراً وسنوات مكرسين أنفسهم خلالها لعمل غالباً مايكون شاق وعنيد ومحفوف بالمخاطر في بعض الأحيان. أما حافزهم في ذلك

فيتمثل في منتهي البساطة في زيادة معرفتهم بهذا الوطن وحضارته التي غالباً ما دأبوا على عشقها في مقتبل العمر.

ومن ثم فعسى أن يضع أصدقاؤنا المصريون نصب أعينهم دائماً أن هؤلاء العلماء الأجانب الوافدين أحياناً من أقاصي المعمورة لايضمرون أية نية سيئة، بل هم أصدقاء مخلصون لذلك الوطن الذي يستضيفهم والذي يمثل الهدف الأسمى والغاية الرئيسية لأعمالهم! وبالتأكيد لايتعارض ذلك مطلقاً مع جدية أبحاثهم العلمية وتمسكهم بالموضوعية والنزاهة بقدر المستطاع، وهو شرط لاغنى عنه لكي تحظى أعمالهم، مثلما هو الحال بالنسبة لزملائهم المصريين، بالتقدير والمصداقية لدى المحافل العلمية الدولية.

أجل إن عشق مصر هو الدافع إلى كل ذلك، وأيضاً وبنفس القدر حب العِلْم، أي البحث عن الحقيقة التاريخية ومايلازمها من ضرورة طرح كافة التساؤلات بدون أية قيود أو أفكار مُسْبَّقة. فإن الماضي قد ولى وانقضى، وعلى الرغم من كونه ينبوعاً قاصياً للحاضر حري بنا أن لاننسى الهوة السحيقة التي تفصل بينهما. ولذا فإن خلط الأوراق والنزوع إلى مزج معرفة الماضي وأهواء الحاضر بطريقة مبهمة يُعد خطأ فادحاً، لاسيما أنه يتنافى مع المنهج التاريخي القويم.

وهكذا فبالنسبة للشخصية الرئيسية في هذا الكتاب، كبير الوزراء «عابر-آل Aper-El» (أو «عبريا Aperia» كما يُكْتب بصورة موجزة) لايوجد في الحقيقة أي سبب مقبول لإنكار مصريته. ففي الواقع كل محتويات مقبرته وأسماء عائلته، وأثاثه الجنائزي والآلهة التي كان يقدسها ونصوص مقبرته، كل شيء مصري تماماً. ومع ذلك— وربما تكمن هنا النقطة التي أثارت حفيظة البعض لأسباب خافية عني — «عابر-آل» ليس اسماً مصرياً. وبالتأكيد ليست هذه هي المرة الأولى أو الأخيرة التي يطالعنا فيها اسم أجنبي في مصر القديمة مدوناً بالعلامات الهيروغليفية المصرية الجميلة. بيد أن هذه إحدى المرات الأولي، إن لم تكن المرة الأولي بالفعل التي تُكْتَشَف فيها مثل هذه المقبرة وهذا الأثاث الجنائزي، ومثل ذلك القدر من الثراء الذي يشير ضمنياً إلى منزلة اجتماعية رفيعة؛ كل ذلك مقترناً باسم ليس مصرياً

بحصر المعنى. وإذا وضعنا في اعتبارنا ندرة مثل تلك الاكتشافات، قد يبدو كل ذلك مثيراً للدهشة - بل والجَوْر -، ولعل ذلك يفسر لنا محاولة البعض أحياناً في تهميش شخصية «عابر-آل»، بل وحتى مقبرته ومحتوياتها، في حين أنها تُعد نموذجاً فريداً للشأو العظيم الذي بلغته مصر خلال تلك الحقبة التاريخية.

ولنتوقف مرة أخرى قليلاً عند اسم «عابر-آل» الذي أحياناً ما يُفَضَل عليه اسم التصغير «عبريا» الأكثر شيوعاً في الحقيقة. وتطالعنا الصيغة الكاملة للاسم مدونة على الأعمدة الغربية للمقصورة. إن الشكل الخطي «عبريا» ليس إلا صيغة تصغيرية للاسم الكامل. وبلا شك ليست هذه الصيغة الكاملة أو طريقة قراءتها التي يقرها كافة المتخصصين محض تخيل أو إدعاء. فهي بالإضافة إلى ذلك تستمد التأكيد الواسع من العثور مؤخراً على نقوش ونصوص جديدة داخل المقصورة تحتوي على إشارات إلى كبير الوزراء مدونة كل مرة باللفظ الكامل «آل El» (أي العلامات الهيروغليفية التي تمثل عود البُوص والنسر والفم المصحوب بخط). أما لفظ «عابر Aper»، فيبدو من المؤكد أكثر فأكثر - كما ذكرته في هذا الكتاب وكما يميل علماء اللغة إلى اعتقاده - وجوب اعتباره شكلاً خطياً من مصدر اللغة السامية «عابد abed» أو «عبد abd» بمعنى "يصبح عبداً لـ"، "يخدم" ...الخ. ويمكننا إذاً نطق الاسم الذي يعني في هذه الحالة "خادم الإله آل" تقريباً مثل «عبدي-آل Abdi-El»، وصيغة التصغير «عبديا Abdia» أو «عبدي Abdi». وليس في ذلك مدعاة للاستنكار إذا علمنا أنه كان يوجد أيضاً في مصر في ذلك العهد أسماء مثل «عبدي-أسترتيه Abdi-Astarté» أو «عبدي-ريشيف Abdi-Reshef» بمعني "خادم الإلهة أسترتيه" أو "خادم الإله ريشيف"، وهي آلهة شرق أوسطية، شأنها شأن الإله «آل El».

نعم إننا بصدد مصري يحمل اسماً ليس مصرياً. ولكنه على الرغم من ذلك ليس أجنبياً بكل تأكيد كما أوردنا. ولعل جذوره القريبة أو النائية كانت أجنبية على الأقل جزئياً. ولعل ارتقاؤه لقمة الهرم الاجتماعي يُعتَبَر أمراً مذهلاً وفي نفس الوقت نموذجياً لتلك الحقبة البراقة من الأسرة الثامنة عشر التي عرفت خلالها مصر - مثل العديد

من المرات طوال تاريخها العريق – بفضل نفوذها وثقافتها المتألقة كيفية دمج واستيعاب أناس توافدوا عليها من الخارج وصهرهم في بوتقة واحدة، سواء ممن اجتذبتهم الأنوار البراقة لضفتي النيل أو لاذوا بها هرباً من ويلات الحروب أو بمحض الصدفة. وفي هذا المقام تأتي المقارنة الجلية والتي تساق دائماً في مثل تلك الحالات مع تاريخ شخصية سيدنا يوسف كما وردت في التوراة. بيد أنه لامجال إطلاقاً لمطابقة هاتين الشخصيتين ؛ إن ذلك سيكون ضرباً من العبث أو السذاجة.

ومنذ عام ١٩٩٠ واظب فريقنا على العمل في سقارة. وقد انصبت جهودنا على الأثاث الغني الذي تم اكتشافه في المقبرة، ونجحنا بفضل أعمال الترميم الدؤب في إعادة تجميع عناصر التوابيت، والاستدلال على الآنية الكانوبية، ...الخ. وفي هذا الصدد فمن بين أعظم الاكتشافات كان العثور على حلي وعلى الأخص تاج، معروضة حالياً في المتحف المصري (الطابق الأول، قاعة المجوهرات). كما واصلنا جهودنا داخل المقبرة نفسها بغية تدعيمها، وتحسين معرفتنا بمستواها الأول الذي تحجب معظمه جدران ترجع إلى عصر متأخر. وقد أسفرت تلك الجهود التي حاذت على دعم المسؤولين في المجلس الأعلى للآثار وكذلك المتخصصين في مركز هندسة الآثار والبيئة، أسفرت مؤخراً عن اكتشاف جزء من المقصورة كان لايزال مجهولاً يشتمل على نقوش وإشارة إلى أبناء آخرين لكبير الوزراء. ويتعين علينا الآن استثمار تلك الاكتشافات الجديدة.

آلان زيڤي

نوفمبر ١٩٩٤

الفصل الأول
المقبرة المنسية
(١٩٧٦ - ١٩٨٠)

سقارة مثوى الأموات

تدور أحداث هذا الكتاب في سقارة... وهى تُعد بحق من أشهر المواقع الأثرية في العالم، وإن كانت في نفس الوقت لاتزال غامضة بالنسبة للجمهور العريض الذي لا يقدرها حق قدرها. آلاف مؤلفة من الزائرين يترددون عليها يومياً خاصة في ذروة الموسم السياحي دون أن يمكثوا فيها عادة سوى بضع ساعات. ترى هل يخطر على بال هؤلاء الزائرين المتعجلين أن ذلك الجزء من الصحراء الغربية الذي يندرج في برنامج رحلتهم بين أهرامات الجيزة الساحرة وبين أطلال مصر العليا العظيمة يُعد على الأرجح أعرق وأثرى المناطق في مصر سواء من الناحية الأثرية أو التاريخية أو الفنية ؟ وهل يدرك هؤلاء الزائرون أن الرمال لاتزال تُكن العديد من الاكتشافات ؟ نعم، لاتزال سقارة تحتفظ في جعبتها بدون شك بالمزيد من المفاجآت المدهشة.

ويمتد هذا الموقع على مساحة شاسعة تتراوح بين عشرة واثني عشر كيلومتراً بما في ذلك الجزء الجنوبي. كما يتميز بطبيعة خاصة نظراً لكميات الرمال الهائلة التي تغطي جميع أنحائه تقريباً. ويتعلق الأمر بالفعل بالجبانة الرئيسية لمدينة منف، أي لأهم مدينة في مصر القديمة يمتزج تاريخها بتاريخ النظام الملكي والحضارة الفرعونية.

ويمثل ذلك من الناحية الزمنية ما يناهز ثلاثة آلاف عام.

وعلى الرغم من ذلك لم تحتفظ منف لزائريها بما يخطف الألباب ويستحوذ على مجامع القلوب : تلال من التربة السوداء، وبعض الأطلال المتناثرة، هنا تاج عمود على شكل رأس الإلهة «حتحور»، وهناك تمثال رائع لأبي الهول يمثل فرعوناً مجهول الاسم، بالإضافة إلى تمثال «رمسيس الثاني» الضخم الراقد على الأرض. وعلى مبعدة من ذلك تطفو قواعد أعمدة معبد الإله «بتاح» وسط حقول المياه الجوفية الموحِلة. ومما يزيد من هذه الفوضى، التجمع السكاني الحديث للبدرشين بما فيه من مصانع وورش ومخازن تزحف بشكل غير محسوس لملاقاة قرية «ميت رهينه» الكبيرة التي تشرف على معبد «بتاح». وبالطبع تؤدي جميع تلك التعديات إلى التقليل من شأن مدينة كانت في عداد أهم وأروع المدن في العصور القديمة. وقد قام «نعرمر أو مينا Ménès» أول الملوك المصريين بتأسيس مدينة «منف» فوق موقع فريد، أي في نقطة إلتقاء مصر العليا بمصر السفلى. ثم أصبحت فيما بعد عاصمة للفراعنة بناة الأهرامات خلال الدولة القديمة (نحو ٢٧٠٠-٢٢٠٠ قبل الميلاد). بيد أن أهميتها لم تخْبُ مع أفول تلك الحقبة التاريخية. على العكس من ذلك، ظلت «منف» دائماً باستثناء بعض الفترات التاريخية التي طالت أو قصرت مركزاً حضارياً وإدارياً واقتصادياً ودينياً وعسكرياً في غاية الأهمية، لاسيما في ظل الدولة الحديثة. وفيما بعد سنستعرض هذه النقطة على الأخص بصورة أكثر تفصيلاً نظراً لارتباطها إرتباطاً وثيقاً بالأبحاث المسرودة في هذا الكتاب.

نعم، لسنا بحاجة إلى وصف أهرامات ملوك الدولة القديمة، هؤلاء الفراعنة الذين شيدوا مصر، وكذلك «منف». فعلى امتداد الصحراء الغربية من «ابو رواش» شمالاً وحتى «دهشور» جنوباً، مروراً بالجيزة و«ابو صير» و«سقارة»، تنتشر تلك الأهرامات العديدة : منها المتهدمة والتي لم تمسسها يد، والمهيبة والتافهة، وتلك التي لاتزال تحتفظ بملحقاتها الجنائزية أو التي نحرت الرمال أغلبها. ومن حول تلك الأهرامات ترتص في صفوف متقاربة أو منعزلة مقابر كبار الموظفين

ورجال البلاط والنبلاء التي يُطلق عليها اسم « المصاطب ». وتمثل لنا كل تلك المجموعة المهيبة والجوهرية من الناحية التاريخية المرجع الأعظم لما نعرفه عن الدولة القديمة. وفي الواقع لاتزال الجبانات صامدة شاهدة على تلك الحقبة التاريخية، بينما أصبحت مدينة « منف » نفسها بكماء خرساء عن عهد الأهرامات والمصاطب بعد انقضاء آلاف السنين من التدمير وشتى العوامل السلبية التي مرت عليها. ولا ينبغي أن يدهشنا ذلك الأمر كثيراً فجميعنا نعلم أن الموتى غالباً ما يمثلون بالنسبة للمصريين الملاذ الأخير بل والوحيد...

مدينة منف

يختلط تاريخ «منف» بتاريخ مصر عامة. وتشير المصادر التاريخية إلى قيام الملك «نعرمر»، أول الفراعنة المصريين، بتأسيس تلك المدينة التي ظلت دون شك أهم المدن المصرية على مر العصور. ومع التسليم بأنها لم تحتفظ دائماً بمكانتها كعاصمة للبلاد بمعنى الكلمة، فإن دورها السياسي والاقتصادي والاستراتيجي والديني والفني ظل بالفعل سائداً على امتداد ما يناهز ثلاثة آلاف عام، بل لقد بلغت شأواً كبيراً خلال كل من الدولتين القديمة والحديثة والعصر المتأخر وكذلك عهد البطالمة.

وقد اشتُق الاسم اليوناني لهذه المدينة «منف Memphis» من الاسم المصري القديم «من-نفر Mennefer» وهو اختصار لاسم هرم «بيبي الأول Pépi 1er» في سقارة والمدينة التابعة له. إلا أنها كانت تُعرف بأسماء أخرى مثل «حوت-كا-بتاح Hout-ka-Ptah» بمعنى «قصر كا الإله بتاح» الذي ربما قد اشتُق منه الاسم اليوناني «ايجيبتيوس Aiguptios » الذي يُعد بدوره مصدر اسم «ايجيبت ÉGYPTE » أي مصر.

إن أطلال مدينة «منف» لاتخطف الألباب نظراً للعديد من الأسباب : عمليات التدمير والسلب والنهب التي تعرضت لها الآثار، واستخدامها كمحاجر، وارتفاع منسوب المياه الجوفية، واقترابها من مدينة القاهرة، وأخيراً قلة الحفائر وعمليات التنقيب بها بل وندرتها. ومع ذلك لا ينبغي علينا أن نغفل أهمية مقابر المدينة. إذ تشغل مساحة تلك الجبانة الشاسعة ما يزيد عن ثلاثين كيلومتراً، وتمتد بالفعل في الصحراء الغربية للمدينة. أما تلك المنطقة المترامية الأطراف بما تحويه من أهرامات ملكية

ومقابر ومعابد ترجع إلى كافة العصور فإنها تشكل جزءاً من مدينة «منف» بمعناها الواسع.

لامراء في أن مدينة «منف» كانت تكتظ بالسكان بمقياس العصور القديمة. وعلى مر القرون، لاسيما إبتداء من الدولة الحديثة، اجتذبت تلك المنطقة — تحت تأثير بعض العوامل التاريخية — عدداً من السكان الأجانب للاستيطان بها. وقد قدموا على الأخص من الشرق الأوسط وكذلك من اليونان فيما بعد. ومن ثم فقد كان هذا الخليط من الأجناس المختلفة يمثل إحدى السمات البارزة لمنف إبتداء من الألف الثانية قبل الميلاد. كما كان أيضاً إلى حد ما السبب في إدخال طقوس ومعبودات شرقية في تلك المدينة. بيد أن المعبودات الرئيسية التقليدية قد احتفظت بالطبع بمكان الصدارة في هذه المدينة : ثالوث منف (بتاح وسخمت ونفرتوم) و«باستت» و«سكر» والثور «ابيس». كما كان الكاهن الأعظم للإله «بتاح» ينتحل تقليدياً لقب «الرئيس الأكبر للحرفيين». ويشير هذا اللقب إلى نشأة الكون ودور الإله في بداية الخليقة، كما يعيد إلى الأذهان الأهمية التي احتلتها في «منف» مختلف الحرف وكذلك الصناع الماهرون الذين كانوا يقطنون في مدينة الأحياء كما في الجبانة أو مدينة الأموات. بل لقد ذاع صيت هؤلاء الحرفيين وكذلك المثّالين وغيرهم من الفنانين، وكثيراً ما تجاوزت شهرتهم حدود المدينة.

لم يعد يكمن حول قرية «ميت رهينه» التي تمثل الجزء المركزي للمدينة العريقة سوى بعض الشواهد التي تعود بخاصة إلى الدولة الحديثة والعصر المتأخر. ومن أكثر تلك العناصر جذباً للأنظار نذكر تمثال ابي الهول "من المرمر" كما يُطلق عليه، ومقصورة «سيتي الأول Séthi Ier» ، وتمثال عملاق لرمسيس الثاني راقد على الأرض (وقد نُصب أحد التماثيل المناظرة له في وسط ميدان المحطة بالقاهرة)، وأطلال بهو أساطين معبد «بتاح»، ومعبد صغير للإلهة «حتحور»، وأخيراً بيت التحنيط للثيران «ابيس». ومنذ عدة سنوات شرعت البعثة الانجليزية لجمعية الاستكشافات المصرية Egypt Exploration Society في عمل رفع منهجي لهذه المنطقة تحت اشراف البروفيسور «هنري سميث H. S. Smith » ؛ مما سيلقي مزيداً من الضوء ويجدد معارفنا بشكل ملحوظ عن تلك المدينة.

وإذا ظلت هضبة الجيزة بأهراماتها الثلاثة التي ترجع إلى الأسرة الرابعة وتمثال ابي الهول رمزاً لايبلى لمصر الفرعونية على الرغم من كافة التقلبات الزمنية التي عاشها هذا الموقع، إلا أن الجبانة الرئيسية لعاصمة الدولة القديمة تقع إلى الجنوب على ارتفاع « منف ». وينتصب

في سقارة بالفعل أول هرم شُيد في مصر على هيئة سلم هائل يتكون من ست درجات. لم يقتصر دور «زوسر Djoser»، أحد ملوك الأسرة الثالثة، وخاصة مهندسه المعماري «ايمحتب Imhotep» على اختراع طراز معماري لبناء جنائزي – أصبح فيما بعد أملس مصقولاً وهرمي الشكل تماماً – كان الغرض من ورائه تجسيد جوهر الحضارة الفرعونية في عيون الأجيال اللاحقة. كما ابتدعا من لا شيء استخدام الحجارة في فن العمارة. بل أكثر من ذلك، فقد شيدا مجموعة أثرية لا مثيل لها من قبل ظلت بالفعل فريدة في نوعها. إن المجموعة الجنائزية للملك «زوسر» بما في ذلك سور الحرم ذي النتوءات وصفوف الأعمدة، ومعابد الاحتفالات والمنشآت الصورية، والمقاصير والهرم المدرج الذي يشغل نقطة المركز، تلخص وحدها وببلاغة كل موقع سقارة.

وأما عن أفضل الأوقات لزيارة ذلك الموقع فهي فترة ما بعد الظهيرة، عندما تبدو طبقة الأكسيد التي تغطي الأحجار شبه ذهبية براقة اللون في ضوء أشعة الشمس الغاربة. عندئذ يخلو الفناء من أفواج السائحين التي لا تُعد ولا تحصى ليجد المرء نفسه وحيداً وسط هذا الحرم الشاسع، فيغرق في التأمل وتتجاذبه تلافيف الحلم. وفي تلك الأثناء تبتعد آخر الأتوبيسات السياحية ذات الألوان الصارخة. وتهبط الجمال والجياد المخصصة لنزهة السائحين باتجاه الاصطبلات في الوادي. ويخيم السكون والصمت الذي لا يمزقه سوى أصوات طرق حوافر الدواب. ومن هناك نسمع الناس يتبادلون تحية المساء. وسرعان ما ينسدل الليل. عندئذ لا يبقى في الموقع سوى بعض القائمين على إدارته وأفراد طاقم الحراسة الموزعين على كافة النقاط الحساسة، وكذلك رؤساء العمل والحرفيون والعمال المشتغلون بالموقع والذين يقطنون فيما يشبه ضيعة صغيرة ذات بيوت متواضعة تتلاصق بعضها إلى بعض على مقربة من هرم الملك «تيتي Téti» ؛ دون أن نغفل ذكر أعضاء البعثات الأثرية الأجنبية الثلاثة الذين يقطنون أحياناً في الموقع.

وخلال فصل الصيف، تبدأ درجة الحرارة في الهبوط بعض الشيء لتحل محلها طراوة المساء. أما في فصل الشتاء، فتنسحب آخر أشعة

الشمس لتفسح المجال أمام برد قارس في أغلب الأحيان. عندئذ تستعيد الصحراء هيمنتها. فإذا تسلق المرء في تلك اللحظة أطلال هرم «تيتي» أو المنحدر الذي شيدت عليه هيئة الآثار المصرية استراحة كبار الزوار، فستتجلى أمام ناظريه مقدار ضخامة هذا الموقع الشاسع، وسيدرك مفهوم العظمة بكل أبعادها. إذ يتحد الزمان والمكان في هذه البقعة لعزف "كونشرتو" مدهش وعجيب، تلعب فيه الصحراء المترامية بأنقاضها ومقابرها التي لا تحصى وأطلالها الشامخة أو الزهيدة دور الاوركسترا. ويجد المتأمل نفسه في حوار مع آلاف السنين المتعاقبة التي تُقرب إليه الفترات التاريخية والعهود الملكية، وتضفي على عناصر بعض الأحقاب السحيقة معنى جديداً، وتجمع في نقطة واحدة مقابر يفصل بينها عشرون قرناً من الزمان. ياله من "كونشرتو" سرمدي لانهائي ! غير أنه على الرغم من مظاهر الرسوخ والثبات، فإن الموسيقى الخافتة التي تنبعث من سقارة لا تخطىء إطلاقاً مسامع من يرهف لها الأذن. وتتحد جهود الانسان المتمثلة في التنقيب عن الآثار وتطوير المنطقة وغيرها من الأعمال مع العوامل الجوية من أمطار ورياح رملية في تغيير ملامح الموقع وتضاريسه بلا انقطاع، وخلط الأحقاب التاريخية وإعادة تنسيقها من جديد. ولكن هاهو الليل يلقي بجناحيه في انتفاضة أخيرة ؛ فيتوقف كل شيء مؤقتاً لتستأنف الحياة مسيرتها من جديد مع بزوغ شمس اليوم التالي.

ليست سقارة حكراً على «زوسر» أو مهندسه المعماري ورجال بلاطه المدفونين من حوله ؛ بل إن صدرها الرحب ينفسح ليضم مختلف ملوك الأسرات الوطنية والأجنبية، وفترات السيادة اليونانية والرومانية، وآلاف مؤلفة من السنين... كما أن المقابر المنتشرة في أرجاء الصحراء لا تعود فقط إلى الأسرات الستة الأولى التي حكمت مصر إبان عصر الدولة القديمة. كما أن تعمير «منف» والمكانة العظيمة التي تبوأتها في ظل الدولة المصرية القديمة ليس وقفاً على الأسرات الستة الأولى. بل أكثر من ذلك، لا تحتوي سقارة فقط على مقابر آدمية مهيأة لحفظ رفات بني البشر أو أنصاف الآلهة مثل الفراعنة المدفونين هنا... بل تضم أيضاً سراديباً لدفن الحيوانات تُعد من أهم الجبانات الموجودة في مصر من حيث النوع. وعلى الرغم من

أن سقارة كانت في باديء الأمر مثوى للأموات، إلا أننا عثرنا فيها تبعاً للأحقاب التاريخية على أبنية أخرى غير المقابر على اختلاف أنواعها من أهرامات ومصاطب، وقبور مشيدة من الأحجار المجلوبة أو منحوتة في الصخر. فضلاً عن ذلك كانت تضم مقاصير ومعابد غير جنائزية، ومنشآت لاستقبال الحجيج ومساكن للكهنة، ونقاطاً للحراسة ومراكز للشرطة، وورشاً وحوانيت صغيرة للحرفيين، وحتى بناء نصف دائري تنتصب فيه تماثيل فلاسفة وشعراء يونانيين، ودير قبطي كان على جانب كبير من الأهمية خلال القرون الميلادية الأولى. وباستثناء بعض فترات من الهجرة والإهمال التي منيت بها، فإن جبانة منف كانت تشهد في الواقع نشاطاً دؤوباً طوال ساعات النهار حتى يأتي الليل بشيء من الهدوء والسكينة. كما يمكننا أن نتخيلها في ذلك الحين - تماماً مثل يومنا هذا - تنتشر فيها الكلاب وصيحات الحراس ونوبات سعالهم. مع الفارق الكبير في أن الجبانة العريقة كانت تجهل دوي الطلقات النارية التي يطلقها هؤلاء الحراس من وقت لآخر، وضوضاء السيارات والأنغام الموسيقية المختلفة التي تنبعث أحياناً من الوادي القريب عبر مكبرات الصوت.

ترى هل بوسعنا أن نتخيل كيف كان يجري يوم عادي من أيام سقارة في ذلك العهد عندما كانت الجبانة في أوج نشاطها - إذا جاز لنا هذا التعبير ؟ وسرعان ماتتلاحق في مخيلتنا صور مواكب تشييع الجنازات في حضرة الأسرة والأصدقاء وزملاء العمل والجيران تتقدمهن النادبات بعويلهن ونحيبهن الثاقب ؛ وشخصية بارزة تُقاد في موكب فخم وعظيم إلى مثواها الأخير ؛ والحرفيين يُعدون ويبيعون الأثاث الجنائزي الذي كان يتعين وضعه في المقبرة. وعلى مبعدة من ذلك ينزوي المحنطون الذين كان الناس يخشونهم ولا يستغنون عنهم في نفس الوقت. وقد كان كل ذلك يجري في غمرة صيحات ونداءات عمال البناء والمحاجر الذين يُعدون مقابر ومقاصير جديدة ؛ علاوة على الصخب المنبعث من مختلف الزائرين والكتبة، والجنود المتجهين إلى ساحة القتال أو العائدين إلى ثكناتهم، والأجانب بملابسهم المزركشة ولغاتهم المختلفة، وصهيل الخيول ونهيق الحمير. دون أن نغفل على وجه الخصوص خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد الصيحات

المتنوعة لقطعان الحيوانات المقدسة التي كانت تُربى حول مقاصير المعبودات من الحيوانات. إذ كان يختلط نباح الكلاب وصياح القردة ونعاء الصقور ومواء القطط... كما كانت تفوح في أرجاء الموقع مجموعة مركبة من الروائح والعطور المختلفة والمتنوعة من نقطة إلى أخرى، إذ نميز : المراهم المستخدمة في التحنيط، والبخور والزيوت العطرية، وشذا أكاليل الزهور وعبير باقات الورود، ورائحة الأطعمة المرصوصة فوق موائد القرابين، والثوم والبصل، وروث الماشية ومختلف أنواع الفضلات، ورائحة الحيوانات المحبوسة بالمئات داخل أسوار المعابد. ياله من مزيج من الروائح المتنافرة يحول بيننا وبين رؤية سقارة في ذروة نشاطها بالنظرة الرومانسية المبالغ فيها التي عودنا عليها كتّاب القرن التاسع عشر الفرنسيون، وميلهم إلى مناظر الأطلال والمقابر بما تبعثه في النفس من سكينة وطمأنينة، أو على العكس بما تعكسه من عذاب ويأس... !

سقارة مملكة الأحياء

كما سبق أن ذكرنا آنفاً، لاتزال سقارة تستقطب حتى أيامنا هذه إلى جانب الأموات عدداً من الأحياء بخلاف الزائرين، تفرض عليهم طبيعة عملهم وأنشطتهم قضاء قسط كبير من الوقت بها. ولما كان يتحتم عليهم إيجاد مساكن يأوون إليها، وبما أنه من الأيسر ومن المستحب أيضاً الإقامة بالقرب من موقع العمل، فقد تطلب الأمر تشييد بعض المنازل مع توخي الحكمة والحيطة بكل تأكيد كي لا يتسبب ذلك في تشويه الناحية الجمالية للموقع. وفضلاً عن ذلك فقد حدث ذلك غالباً منذ عشرات السنين في نطاق مضمون آخر وفي ظل ظروف مختلفة. ومرجعنا في ذلك أو خير مثال عليه هو «منزل مارييت Mariette» الشهير. إذ كان هذا الكوخ المتواضع مأوى للمنقب الفرنسي الشهير حينما اكتشف في منتصف القرن الماضي السرابيوم Sérapeum قبل أن يقوم بتأسيس مصلحة الآثار المصرية Service des Antiquités de l'Égypte. كان ذلك المنزل يقع على مبعدة من الموقع باتجاه الغرب، ولكن على مقربة بالتحديد من مدخل تلك الجبانة المدهشة

المنحوتة تحت الأرض لدفن ثيران «ابيس». ومن دواعي الأسف أن هذه الجبانة قد تهدمت خلال حقبة الخمسينيات من القرن الحالي. أما المنازل التي شُيدت فيما بعد لإيواء مفتشي الآثار والمهندسين المعماريين والمنقبين عن الآثار فتقع في شرق الموقع على امتداد المنحدر الذي تغطيه الرمال تقريباً الواقع على شبه حدود الهضبة الصحراوية والذي يشرف على وادي النيل. كما أن معظم المنازل التي لاتخلو من لمسة سحر وجمال وقيمة معمارية تقع على الأحرى في الناحية الشمالية : مركز تفتيش الآثار، ومنزل مدير الموقع ومقر جمعية الاستكشافات المصرية... كما نجد منزلين آخرين في الناحية الجنوبية على مقربة من الطريق الصاعد الذي يربط الوادي بالهضبة. ويتعين علينا الاستفاضة قليلاً في الحديث عن هذين المنزلين نظراً لأنهما يلعبان دوراً لا يستهان به في أحداث هذا الكتاب.

فأول هذين المنزلين وأحدثهما وأجملهما في نفس الوقت يحتل موقعاً فريداً : إذ شُيد في زاوية المنحدر عند نقطة انطلاق وادٍ عريض ومتسع تخترقه نهاية الطريق المؤدية إلى الموقع. وتطل شرفته على كل موقع سقارة وجزء كبير من الوادي. وقد شُيد هذا المنزل الذي حولته هيئة الآثار المصرية إلى استراحة لكبار الزوار قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية لإيواء كبير مفتشي الموقع. وعلاوة على الموقع الرائع الذي يشغله هذا المنزل فإنه يتميز بوجوده تقريباً فوق المقبرة التي تشكل موضوع هذا الكتاب. وسيتضح لنا فيما بعد العواقب الوخيمة التي نتجت عن هذا التجاور بين المنزل والمقبرة.

أما عن المنزل الثاني الذي لايفصله عن سابقه سوى مايقرب من مائة متر فقط، فإنه يختبيء عن الأنظار نظراً لتشييده فوق كميات من الرديم على مستوى أدنى قليلاً من الجرف الصخري. وقد توافد على هذا المنزل الشهير العديد من الشخصيات من مختلف الجنسيات منذ نحو ستين عاماً. إنه منزل المهندس المعماري وعالم الآثار الفرنسي الذائع الصيت «چان فيليب لوير Jean-Philippe Lauer» الذي تدين له سقارة بالكثير، وعلى الأخص عمليات التنقيب والدراسة وإعادة تشييد آثار الملك «زوسر» الذي اقترن اسمه باسم «لوير» إلى الأبد. فضلاً عن ذلك،

فـقـد أصـبـح هذا الأخـيـر "رجل الأهرامـات" بـفـضل مـا اجـراه مـن أبـحـاث عديدة حـول المـقـابر المـلكيـة في عصـر الدولـة القديمـة بصـورة عـامـة. ومـن هـنـا يـتـضـح لـنـا كـيـف أصـبـح «چان فـيليـب لـويـر» الذي يـبـلـغ مـن العـمـر تسعـة وثمـانين عـامـاً أسطورة حـيـة. فلدى قـدومـه إلى مصـر مـنذ أربـعـة وسـتـين عـامـاً أقـام على الفـور في ذلك المـنزل الذي شـيـده لـه عـالـم الآثار الإنجليزي «سيـسيل فيرست Cecil Firth » الذي كثيـراً ما كان يردد : [لقد شيدت منزلاً للمـهندس المـعـمـاري التـابع لي...]. وعلى هذا النـحـو أصـبـح منـزل «چان فـيليب لوير» بـالنسبـة للعديد من الزائرين العـابـريـن قـبلة هامـة تستـهـوي فـضـولـهم تمـامـاً مـثـل مـزارات وآثار سـقـارة نـفـسـهـا. بل ينبـغي علينا الاعتراف بما لذلك المـنـزل من سحـر أكيد يعلل الرغبـة في المـرور بـه. كـمـا أن وقـوعـه في مـسـتـوى أدنـى بـالنسـبـة للهـضـبـة يـجـعـله بشكل مـتـنـاقـض يـشـرف على الـوادي القـريـب بـدلاً مـن أن يـطل على المـوقـع نفسـه. وفـضـلاً عن ذلك فـقـد شُـيـد بـاتجـاه الشـرق، ومـن أهـم مـزايـاه الـتـي تستـحـوذ على مـجـامـع قـلوب زائريـه تكمـن في شـرفـتـه التي تـطل على الأراضي الزراعيـة القـريبـة الـتـي تـتـبـع الصـحـراء بدون أي تمـهـيـد. وعلى مـبـعـدة من ذلك فـيـمـا وراء نـهـر الـنيـل الذي لا يـمـكـنـنـا رؤيـتـه والجـزء الشـرقي للوادي، يمكننا أن نلمح صـخـور جـبل «طره» وحـتـى قـلعـة صـلاح الدين عندمـا لا تـتـسـب الأدخـنـة المـنبـعـثـة من المنطقـة الصـنـاعـيـة بـحـلوان وتـلـوث طـبـقـات الجـو في العـاصـمـة فـي حـجـب جـزء مـن هـذه البـانـورامـا التـي لا نـظيـر لـهـا.

«مارييت» وسقارة

لقـد أضـحـى أول لقـاء لـ «اوجـيـست مـارييت Auguste Mariette » بسقارة — كما جاء على لسانه هو — جزءاً من المـختارات الأدبية. إذ أوفده متحف «اللوفر Louvre» الفرنسي إلى مصر بغرض اقتناء بعض المخطوطات القبطية. وفى انتظار تأديه مهمته، صعد ذلك الشاب إلى قلعة صـلاح الدين بالقـاهرة حيث تراءت له في الأفق أهرامـات الجيـزة وعلى مبعدة منها سقارة. عندئذ شعر بالصحراء تناديه وتهيب به ؛ فخلف وراء ظهره المـخطوطات التي جاء باحثاً عنها، ولبى النداء، وولى شطر هضبة

الصحراء الغربية. فلما بلغ سقارة استنتج من خلال مجموعة من القرائن وجود السرابيوم الشهير الذي ذكره المؤرخ «سترابون STRABON» في هذا الموقع في متناول اليد تقريباً. وبالفعل فقد أماط اللثام تدريجياً عن طريق كباش يفضي إلى سراديب واسعة دُفنت فيها مومياوات الثيران «ابيس». وقد تبع ذلك اكتشافات أخرى مذهلة وجدت طريقها إلى متحف «اللوفر» لإثرائه بدلاً من المخطوطات المرتقبة. وقد قضى «مارييت» فترة طويلة من حياته في سقارة حيث شيد له منزلاً. ثم أدرك فيما بعد مدى الخسائر والتلفيات التي حلت بالآثار المصرية نتيجة لرياح التمدن العارمة التي كانت تعصف بالبلاد في ذلك الحين، وعمليات التنقيب عن الآثار على نطاق واسع لحساب تجار العاديات والمتاحف وهواة جمع الآثار. عندئذ بذل «مارييت» قصارى جهده لحث الخديوي على إنشاء مؤسسة حكومية من شأنها حماية الآثار وصيانتها. وبالفعل تم تأسيس مصلحة الآثار المصرية وكذا إنشاء أول متحف في بولاق في عام ١٨٥٨.

لاتخلو هذه الرواية التي ندين بها إلى حد ما إلى الأب المؤسس نفسه وبالصورة الأمينة التي وصلتنا، لا تخلو بالطبع من مشاعر الإجلال والتعظيم لسيرة ذلك العالم. بيد أن ذلك لا يتعارض مع حقيقة أن «مارييت» كان بحق نابغة عملاقاً ؛ بل لعله من آخر النابغين. فعلى مدى عشرات السنين التي تبعت ذلك، وفي غضون القرن العشرين برز من حين لآخر رواد على نفس القدر من العبقرية. إلا أنه سرعان مادخل علم المصريات في نطاق الدراسات الجامعية ليصبح إحدى مجالات التخصص الجديدة لبعض الأساتذة ومن بينهم العديد من الشخصيات البارزة على غرار «جاستون ماسپيرو Gaston MASPERO» الذي خلف «مارييت» على رئاسة مصلحة الآثار المصرية. وإشد ما كان الفارق بين هذين الرجلين عظيماً !

وفيما يلي نسوق بعض مقتطفات من كتاب «ايچان ملشيور دي فوجيه Eugène-Melchior DE VOGüÉ» الذي نشره عام ١٨٧٩ تحت عنوان «في عصر الفراعنة *Chez les pharaons*» وفيه يستعرض بحماسة وشاعرية حياة «مارييت» وأعماله كواحد من كبار الرواد. وبطبيعة الحال تتعلق الأسطر التالية بسقارة حيث : [أمضى بها ثلاثاً من أهم سنوات حياته، كانت عصيبة وفظيعة ؛ وعلى الرغم من ذلك كانت تنبثق فيما بعد في ذاكرته مباركة وضاءة. إذ كانت تمثل أزمة الصراع الذي يجتازه كل إنسان كرس نفسه لخدمة قضية بعينها، والفترة التي ينفق فيها ما أوتى من قوى خالدة. (...) وكم كان بليغاً في سرد وقائع محنته وتفاصيل تجربته، وقصة نجاحه وانتصاره عندما أزيحت الرمال في ليلة الثاني عشر من نوفمبر عام ١٨٥١ لتكشف عن وجود باب ! وفجأة أضاءت مشاعل

العمال العرب أغوار السراديب المظلمة، والتوابيت العملاقة المغطاه بصفحات من التاريخ. عندئذ أخذ ذلك العالِم الذي عاش وحيداً في سقارة يرتجف معتقداً أن هذا ما هو إلا أضغاث احلام. وراح يتلمس طريقه وسط غياهب الظلمات الباردة التي كانت تطفيء المشاعل. كان أول انسان يطبع آثار أقدامه إلى جانب تلك التي خلفتها على الرمال أقدام آخر زائر غادر السرابيوم منذ ألفي عام...]. (نقلاً عن كتاب «رحلة إلى الشرق *Le Voyage en Orient* » للكاتب «برشيه J[€. Berchet»، الصادر عن دار النشر الباريسية «لافون Laffont» عام ١٩٨٥).

ومنذ الستينيات من القرن الحالي، اتخذت البعثة الفرنسية للحفائر في سقارة (MAFS) – تحت اشراف البروفيسور «چان لكلان Jean Leclant» – من هذا المنزل مقراً لها. وقد شغل «چان فيليب لوير» لمدة طويلة منصب المدير المساعد لتلك البعثة التي ركزت منذ نشأتها أعمال التنقيب والدراسة التي تجريها حول الأهرامات ذات النصوص لملوك الأسرة السادسة في سقارة. كما عكفت تدريجياً في صبر ومثابرة على جمع العناصر المتفرقة التي لا تحصى لـ«متون الأهرامات *Textes des pyramides*» عن طريق إعادة تجميع النصوص الجدارية لهرمي «بيبي الأول» و«مرنرع Mérenre». إذ تُعتبر تلك المجموعة الضخمة من النصوص الدينية التي ربما تُعد أقدم نصوص دونتها يد الإنسان مفتاحاً جوهرياً لفهم الثقافة والروح الفكرية في مصر القديمة. ومن ناحية أخرى، تقوم البعثة الفرنسية بالتنقيب والترميم ودراسة المجموعات الجنائزية التابعة لنفس أهرامات الأسرة السادسة. وهكذا تُوجت الحفائر الضخمة التي أجرتها البعثة على مر السنين باكتشاف المعبد الجنائزي لـ«بيبي الأول» ودراسته بصورة منهجية. كما تم إزاحة اللثام مؤخراً خلال عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩ عن ثلاثة أهرامات لملكات في الناحية الجنوبية لهرم الملك.

«چسر» و«ايمحتب» و«لوير»

يُعتبر الهرم المدرج الأثر الرئيسي في سقارة. ويحيطه من جميع الجهات سور ذو مشكاوات (أي دخلات وخرجات)، ويخترقه باب واحد فقط يفضي إلى فناء فسيح تنتصب في ناحيته الشرقية مجموعة من الأبنية الصغيرة

المشيدة من الحجر الجيري الجميل. ويُعرف هذا الفناء باسم فناء «الحب سد Heb-sed»، أي فناء الاحتفالات بالعيد الثلاثيني للملك. وعلى مبعدة من ذلك في اتجاه الشرق، نحازي منشآت أخرى من نفس النوع قبل أن نصل إلى ما تبقى من المعبد الجنائزي. وعلى مقربة من ذلك نلمح المدخل الحالي للهرم الذي يفضي إلى شبكة عجيبة من الدهاليز والحجرات المشيدة على عدة مستويات. وأسفل السور الجنوبي للحرم تُوجد شبكة أخرى من السراديب مستقلة تماماً عن الشبكة الأولى، ويُطلق عليها اسم «البيت الجنوبي Tombeau sud».

يُكوِّن هذا العالَم من الأحجار والرمال ما اصطُلح على تسميته «المجموعة الجنائزية لچسر Complexe de Djoser»، وهي عبارة عن وحدة معمارية على قدر عظيم من الضخامة لا نظير لها، في حالة جيدة جداً من الحفظ. وقد أمر الفرعون «زوسرNeterkhet Djoser» من الأسرة الثالثة بتشييدها لضمان أفضل الظروف لبعث روحه وخلودها. وبخلاف المنشآت الطقسية التقليدية المخصصة لإقامة الشعائر الجنائزية على الدوام، تضم هذه المجموعة كذلك وحدة «الحب سد» المعمارية العجيبة. وهي وحدة صورية تبدو وكأنها مخصصة لعالَم من الأشباح. وتشكل المقاصير والأفنية والهياكل والأروقة والممرات منشآت خفيفة ومؤقتة كانت في الأصل تُشيد في الوادي لإقامة الطقوس التي تستهدف تجديد السلطة الملكية وقوة الحاكم. بيد أن كافة المنشآت الماثلة فوق هذه الهضبة يغلب عليها طابع صوري. ويبقى الفرعون وحيداً في هذه اللحظة العصيبة والحاسمة التي تتجدد دون انقطاع على مر القرون. وترقد مومياؤه أسفل الهرم، بينما يهيم ظله وظلال رجال بلاطه وكهنته من بناء إلى آخر. ويفسر لنا ذلك السر من وراء طابع "الديكور" الذي تتصف به تلك الأبنية. فالأبواب الحجرية مفتوحة على مصرعيها إلى الأبد أمام عالم الخلود. كما أن معظم الأبنية تتكون من كتل صخرية مغطاة بكسوة رائعة من الحجر الجيري الأصفر.

وقد تفتق ذهن المهندس المعماري النابغة «ايمحتب» عن تلك العمارة الوهمية أو الصورية على نحو ما. فكان أول من استخدم الحجارة بمثل هذا المقياس وبمثل هذا التوفيق في مصر وربما على وجه الأرض. يرجع هذا العمل الخارق إلى عبقرية «ايمحتب» الذي كان وزيراً وربما كبير وزراء الملك «چسر»، ومهندساً معمارياً وكاتباً على جانب عظيم من الثقافة، وطبيباً وكاهناً في نفس الوقت. لقد ابتدع استخدام الحجارة في فن العمارة، وترك لنا من عظيم الأعمال ما يخلد اسمه واسم الملك «چسر».

بيد أن مجموعة «چسر» الجنائزية العملاقة قد عانت كثيراً من العوامل الزمنية وعبث الإنسان الذي وجد فيها على امتداد العصور محجراً سهلاً

يقتلع منه كتلاً مقصوبة رائعة. كما أدى تراكم الرمال وأنقاض الرديم المختلفة إلى دفن سقارة ومحو الأهمية الكبرى لذلك الموقع. ويرجع الفضل إلى مصلحة الآثار المصرية في القيام — إلى جانب المهام الجسيمة التي تنوء بها — بإزاحة الرمال عن هذه المجموعة. وقد عهدت بتلك المهمة إلى «سيسيل فرست» الذي سرعان ما استعان بالمهندس المعماري الشاب «چان فيليب لوير»، بل لم يلبث أن آل المشروع برمته إلى هذا الأخير. وبالطبع لم يكن إزاحة الرمال هو بيت القصيد. إذ كان ينبغي أيضاً ترتيب جميع الأجزاء والقطع الأثرية، وفهم طبيعة تلك المنشآت التي لا نظير لها. وبعد قطع الشك باليقين، كان يتعين إعادة كل شيء إلى موضعه الأصلي، وترميم أو على الأحرى إعادة تشييد كل هذه المجموعة. يا له من عمل منهك ينطوي على مصاعب لا حد لها، ومهمة بخيلة بالعطاء ولكنها رغم ذلك تشعل النفس حماسة وتأججاً في ذات الوقت !

فقد شغف «چان فيليب لوير» بمجموعة الملك «چسر» الجنائزية ؛ مما دفعه إلى مواصلة المسيرة ومد جسور الحوار الصامت بينه وبين «ايمحتب» عبر القرون. ثم توالت الأعوام والفصول دون أن يتوقف «چان فيليب لوير» عن العمل إلا على مضدد ليسارع باستئنافه من جديد. وقد كرس دائماً جزءاً من أعماله الضخمة والعظيمة لمجموعة «چسر» (تنقيب السراديب والدهاليز السفلية، ودراسة المجموعة كلها، والاكتفاء عن قصد بترميم جزء من منشآت «الحب سد»، الخ...) ولا تقل النتائج التي أحرزها عما أنجزه «ايمحتب» من حيث المستوى. لقد انبثق عالم جديد من الرمال على يديه ليصبح بمفرده تقريباً تجسيداً لموقع سقارة.

ولايزال «لوير» الذي يبلغ من العمر تسعة وثمانين عاماً يزخر نشاطاً وطاقة نادرة، ويواصل العمل خلال جزء من العام في هذا الموقع الذي دأب على ارتياده منذ أربعة وستين عاماً. إنه يتابع العمل خطوة بخطوة، وحجارة حجارة بدون كلل أو سأم. وعلى الرغم من تواضعه الشديد وبساطته إلا أنه أصبح ذائع الصيت ؛ حتى أن المرشدين السياحيين كثيراً ما يشيرون إليه لأفواج الزائرين من جميع الجنسيات التي تذرع فناء «الحب سد» جيئة وذهاباً ؛ فيهرعون إليه لتصويره والحديث إليه وطرح بعض الأسئلة. فيلتبث عليه الأمر أحياناً، ويختلط ذهنه ويعكس اسمه واسم الملك «چسر». عندئذ يسمونه «الملك لوير» مما يجعله يبتسم.

قادني الإسهام في أعمال البعثة الفرنسية للحفائر في سقارة خلال السبعينيات، وبالتالي التردد بانتظام على منزل «چان فيليب لوير» إلى التوصل إلى اكتشاف أدى فيما بعد إلى تغيير مجرى حياتي تماماً : ألا وهو العثور على موقع يبدو قاحلاً بخيلاً بالعطاء، وإن كان يُكن في

طياته وعوداً خلابة. حدث ذلك في عامي ١٩٧٥-١٩٧٦ على وجه التحديد، في أعقاب فترة إقامة دائمة في مصر لمدة ست سنوات كنت خلالها عضواً بالمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة Institut Français d'Archéologie Orientale، والعام الأخير كنت بمثابة باحث في المركز القومي الفرنسي للأبحاث العلمية CNRS. وقد هيأ لي العمل في نطاق المعهد الفرنسي في ذلك الحين قبل كل شيء فرصة الاحتكاك "بأرض الواقع المصري" كما كان يحلو لـ«سارج سنرون Serge Sauneron» مدير المعهد الفرنسي آنذاك أن يردد. وقد نجح هذا الرجل في إعطاء دفعة كبيرة للمعهد خلال سنوات إدارته قبل أن يلقى مصرعه عام ١٩٧٦ في حادث تصادم مروع على طريق مصر الإسكندرية الصحراوي. وقد كان متمرساً في فقه اللغة المصرية القديمة، علاوة على تبحره في علم المصريات، وإلمامه بمقتضيات العمل على أرض الواقع، وعدم تراجعه أمام الصعاب. وكان دارسوا علم المصريات من الشباب يتحققون بفضل احتكاكهم به من صدق ما ذكره عام ١٩٦٨ في كتاب صغير بعنوان «علم المصريات *L'Egyptologie*» حيث أبرز أن هذا الفرع من العلوم : [يُعد من أندر المهن التي لاتزال تنصهر فيها النزعات المتعارضة للعالِم الهادئ الوديع ورجل الحركة النشيط]. وذلك بالطبع شريطة عدم ترجيح أي من تلك الميول التي تبدو متناقضة لهذا العلم الوليد الذي يستهدف على الرغم من حداثته دراسة أعرق الحضارات. على شريطة أيضاً التشبث بأهداب الواقع دون إغفال حقيقة أن العمل يستقي كذلك من ينابيع الحلم والخيال. وبالتأكيد ما كان لـ«سرج سنرون» أن يُكّذب هذه المقولة وهو الذي عشق علم المصريات منذ نعومة أظافره عندما قرأ وهو لايزال طفلاً «رواية المومياء *Le Roman de la momie*» للمؤلف «تيوفيل جوتييه Théophile Gautier»؛ وراوده طويلاً مشروع نسخ نصوص معبد «إسنا» قبل أن يتمكن في نهاية المطاف من تحقيقه على الرغم من الامكانيات المحدودة التي توفرت له.

«سهل المومياوات»

عُرف موقع سقارة حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي باسم «سهل المومياوات plaine des momies» نظراً لإحتوائه على مومياوات آدمية في المقام الأول، علاوة على مومياوات الحيوانات (وعلى الأخص طائر ابو

منجل). وعلى مدى العديد من القرون، بل الآلاف من السنين، أخذ ناهبوا القبور يعيثون فساداً في ذلك المكان الذي تشهد جميع أرجائه بممارساتهم الآثمة، وحتى الصحراء نفسها قلبوها رأساً على عقب مرات عديدة في بعض النقاط.

ومن ثم فقدت المقابر المنهوبة، والأهرامات المتهدمة أو المدفونة نصفياً، ومجموعة الملك «زوسر» التي كانت لاتزال ترزح تحت الرمال...الخ، فقدت الكثير من سحرها في أعين الرحالة والزائرين الذين كانوا يرتادونها في ذلك الحين. وحتى «چان فرنسوا شامبليون Jean-François Champollion» الذي احتفلنا عام ١٩٩٠ بذكرى مرور مائتي عام على مولده، لم يحتفظ بذكرى متوقدة لإقامته القصيرة بهذا الموقع في شهر أكتوبر عام ١٨٢٨ كما جاء في مذكراته وفي إحدى الرسائل التي بعثها إلى أخيه «چاك چوزيف شامپليون فيچاك Jacques-Joseph Champollion Figeac».

وعلى الرغم من ذلك كان يتوق إلى تلك الزيارة وينتظرها بفارغ الصبر : [كنت أتلهف لتفحص الجبانة الفسيحة حيث توارت رُفات أجيال متعاقبة من سكان مدينة «منف» التي يُطلق عليها اسم «سهل المومياوات»...].

بيد أن الواقع كان أكثر ابتذالاً : [ولنا أن نتخيل سهلاً شاسعاً تتخلله الأهرامات، وتحفه الكثبان الرملية الصغيرة المغطاه بأنقاض الفخّار العتيق ولفائف المومياوات وعظام الرفات والجماجم المبيضة من أثر ندى الصحراء وشتى أنواع البقايا الأخرى].

وبالتالي فقد جاءت المحصلة النهائية لزيارته مخيبة للآمال. ومن حسن الحظ أن آثار مصر الوسطى ومصر العليا قد عوضت «شامبليون» وجعلته ينسى خيبة أمله في سقارة : [لقد زرت في سقارة جبانة «منف» العريقة والمعروفة بـ«سهل المومياوات» حيث تتناثر الأهرامات والمقابر المنهوبة. وقد تسبب جشع وشراهة تجار العاديات في القضاء تماماً على أهمية تلك المنطقة للدراسة ؛ إذ دُمرت أغلب المقابر المزدانة بالنقوش ورُدمت بعد سرقة محتوياتها. ما أبشع تلك الصحراء التي تتكون من سلسلة من الكثبان الرملية الصغيرة الناتجة عن الحفائر والاضطرابات، حيث تتناثر عظام الرفات والجماجم وبقايا الأجيال السحيقة !]

لقد تغيرت سقارة كثيراً منذ ذلك الحين، وتراءت لنا أقل قحطاً عما كان يظنه «شامبليون» ؛ وإن كان الموقع ظل كالحاً وقاتماً مقارنة بمنطقة الأقصر على سبيل المثال. ونحتاج الآن أكثر من ذي قبل إلى بعض الوقت للإلمام بسحره والوقوف على مكامن الجمال فيه. أما عن أهميته، فهذا

موضوع يطول شرحه...

بيد أنني وجهت جام نشاطي خلال عامي ١٩٧٥-١٩٧٦ نحو سقارة وموقع حفائر البعثة الفرنسية بها. وقد تواكب ذلك مع انتدابي باحثاً في المركز القومي الفرنسي للأبحاث العلمية، والتقائي في الموقع بالبروفيسور «چان لكلان» الذي أصبح استاذاً في المدرسة الفرنسية Collège de France، والذي شرعت أعمل تحت إشرافه بعد أن سبق أن رافق خطواتي الأولى في علم المصريات حينما كنت لا أزال طالباً في المرحلة الثانوية. وشرعت في صحبته في دخول عالَم سقارة القريب من مدينة القاهرة والبعيد عنها في نفس الوقت من حيث العديد من النواحي. وبفضل حسن ضيافة «چان فيليب لوير» وأعضاء البعثة الفرنسية بدأت أحاول فهم هذا العالَم من الداخل فهماً أعمق. وقد أعانني على ذلك المشاركة خلال بعض الفترات في الأعمال المتنوعة التي كانت تتركز حول هرم «بيبي الأول» ونصوصه، وتنقيب معبده والاكتشافات العديدة والهامة التي أحرزتها البعثة الفرنسية. كما ساقني حب المعرفة والاطلاع إلى دراسة مظاهر أخرى للموقع وأحقاب تاريخية أخرى. ومنذ سنوات عديدة تحققت بصورة ملموسة من الثراء الخارق لموقع سقارة والاكتشافات المذهلة التي نحققها فيه تباعاً وذلك بفضل ترددي عليه بصورة منتظمة، والعلاقات التي أقمتها مع بعض الزملاء من المصريين والأجانب. إذ كانت هناك الحفائر الانجليزية تحت اشراف «ولتر إمري Walter Emery» وهو من الشخصيات شبه الأسطورية التي ارتبطت بسقارة. وقد توفي هذا العالِم في القاهرة عام ١٩٧١ بعد قيامه باكتشاف الجبانات التي دُفنت فيها طيور أبو منجل والقردة والأبقار التي كانت تلد الثيران «ابيس» وملحقاتها. إلا أنه عقب موت «إمري» اتخذت الأعمال التي يجريها الإنجليز اتجاهين كل منهما على جانب من الأهمية. فمن ناحية قام «هنري سميث» بإجراء أبحاث تاريخية وطوبوغرافية عن سقارة إبتداء من العصر المتأخر، اتسعت فيما بعد لتشمل مدينة «منف» نفسها. ومن ناحية أخرى، كانت هناك الحفائر الانجليزية الهولندية المشتركة تحت اشراف «چيفري مارتن G. T. Martin» في قطاع من جبانة الدولة الحديثة بسقارة، والتي تُوجت على الفور باكتشاف عظيم لمقبرة القائد «حورمحب Horemheb»

الذي ارتقى عرش مصر في نهاية الأسرة الثامنة عشرة.

وبشكل موازٍ لكل ذلك، استهدفت الأبحاث والاكتشافات المثيرة نقطة أخرى في سقارة تضم مقبرة على قدر عظيم من الأهمية منحوتة في الجرف الصخري الواقع على حافة الجبانة بمحاذاة الطريق المؤدية إلى الموقع. وقد قامت البعثة الأثرية التابعة لجامعة «بيز Pise» الايطالية تحت إشراف «اده بريشياني Edda Bresciani» منذ سنوات عديدة بتنقيب تلك المقبرة التي ترجع إلى «باكنرنيف Bakenrenef» (أو بوخوريس Bocchoris) الذي كان كبير الوزراء في عهد الأسرة السادسة والعشرين. وقد احتفظت هذه المقبرة الغنية بنقوشها الرائعة وآبارها وسراديبها التي لاتزال تعج بالأثاث الجنائزي على الرغم من عمليات السلب والنهب التي تعرضت لها خلال القرن الماضي. وفي الحقيقة، كانت تلك الاكتشافات ساحرة للغاية سواء من حيث ما تضيفه من معطيات تاريخية – إذ تشير إلى الكنوز العديدة التي تُكنها سقارة بالنسبة للأحقاب التاريخية التالية لعصر الدولة القديمة – أو من حيث ذلك العالَم السفلي الذي تقودنا إليه.

هكذا كانت الحال حينما شرعت في بداية عام ١٩٧٦ في الاهتمام عن كثب بالأنحاء المتاخمة لمنزل البعثة الفرنسية والتي كانت تستحق العناء على الرغم من مظهرها الخارجي. وبالفعل فقد طرأت على هذه المنطقة الواقعة تقريباً على حدود الأراضي الزراعية العديد من المتغيرات منذ القرن الماضي. إذ اختفى المنحدر الصخري الذي يحد الهضبة جزئياً تحت تراكم الرمال والأنقاض المتخلفة عن عمليات التنقيب الضخمة التي تمت خلسة بدافع من الروح التجارية الجشعة، أو الحفائر العلمية التي تم إدراجها منذ القرن الماضي. بل يوجد إلى الشمال من منزل البعثة الفرنسية ركام من الأنقاض يُطلق عليه اسم «جبل كيبيل Quibell» (نسبة إلى أحد الأثريين الانجليزيين الذي عمل كثيراً بالموقع). كما يطالعنا على مستوى أدنى في الرمال على امتداد بضع خطوات من الأرض المنزرعة بناء صغير يُطلق عليه اسم «سجن يوسف». وقد قام «اوجيست ماريت» في الماضي بتنقيب بناء عريق كان يفصل هذه المنطقة التي يخصها المسلمون بالإجلال والتقديس.

وربما كان ذلك مقصورة ترجع إلى العصر المتأخر أو البطلمي تم تكريسها لـ«ايمحتب» (المهندس المعماري للملك چسر) الذي تم تأليهه عقب وفاته، ودمجه بـ «اسكليپيوس Asclépios» إله الطب عند اليونان. أما فيما يتعلق بالإشارة إلى سيدنا يوسف والسجن الذي حُبس فيه على إثر الخيانة والخديعة التي دبرتها امرأة العزيز، فبإمكاننا إرجاع تلك الرواية المأثورة إلى العصور الوسطى على الأقل. وفضلاً عن ذلك، تجدر بنا الإشارة إلى وجود العديد من الأماكن في منطقة «منف» تحمل ضمناً أو تصريحاً إشارة إلى سيدنا يوسف. بيد أن تلك المقصورة الصغيرة التي نجهل أصلها والتي كانت تفضي إلى الموقع وملحقاته تشهد بأهمية هذه المنطقة في سقارة على الأقل إبتداء من العصر المتأخر. كما تضم تلك الأنحاء جبانتين كبيرتين تحت الأرض كُرستا على التوالي لدفن الكلاب وحيوانات ابن آوي التي كانت تجسد الإله «أنوبيس»، والقطط التي كانت ترمز إلى الإلهة «باستت». وتقع الجبانة الأولى على الأحرى في الناحية الشمالية، ولم يُقْدِم أحد ابداً على تنقيبها بمعنى الكلمة. ولم يعد يبقى منها سوى النذر اليسير بعد أن التهمتها الحرائق. أما الجبانة الثانية التي تم تحديد موقعها، فقد وقعت فريسة لعمليات السلب والنهب المكثفة خلال القرن الماضي، حتى أصبح يتعذر علينا بلوغها. وهي تقع أسفل المنحدر الذي يستند إليه منزل «لوير». وقد احتفظت بالاسم العربي لهذه المنطقة ألا وهو «أبواب القطط» أو «مقابر القطط». وقد أدى تشييد استراحة كبار الزوار فوق زاوية المنحدر إلى الزج مرة أخرى بهذه الجبانة في طي النسيان.

حديقة حيوانات محنطة

إن العديد من الزائرين المتعجلين الذين يمرون سريعاً بسقارة لا يعلمون دائماً شيئاً عن تلك الحيوانات المذهلة التي كانت تعيش في ذلك الموقع خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد، قبل أن تُدفن في نفس المكان الواحد تلو الآخر. إذ نجد بالفعل سراديب طويلة تمتد مئات الأمتار تحت الأرض، استُخرجت منها أعداد لا تحصى من مومياوات الحيوانات، ناهيك عن تلك التي لا تزال موجودة بنفس الكثرة والتي لم تمتد إليها بعد يد الإنسان.

وبالتأكيد، لا تنفرد سقارة بهذه الظاهرة ؛ إذ نجد جبانات حيوانية مماثلة في مواقع أثرية أخرى في مصر، وإن كان ذلك الأمر يأخذ أبعاداً فريدة في سقارة.

ولا نستثني سوى جبانة واحدة تُشكل بالفعل جنباً سياحياً كبيراً للموقع، كما تظل إلى الأبد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بذكرى «ماربيت» الذي قام باكتشافها عام ١٨٥١ مبرزاً بذلك أهمية سقارة في أعين العالَم المندهشة. بالطبع إننا نقصد السرابيوم الذي يحمل اسم الإله اليوناني المصري «سرابيس Sérapis» والذي كُرس بالفعل لدفن ثيران «ابيس» التي كانت تجسيداً واندماجاً للمعبودين «بتاح» و«أوزيريس». وقد كانت العادة تجري على اختيار حيوان واحد من بين العديد من الثيران وفقاً لمواصفات ومعايير صارمة، ليصبح على أثرها تجسيداً ملموساً وحياً للإله ؛ وبصفته كذلك كان يُحبس في حرم مقدس في «منف» حيث يتلقى كافة مظاهر التبجيل والتقديس التي هو أهل لها. وعند موت ذلك الثور المقدس، يعم الحداد والحزن الشديد، ويتم تحنيطه ونقل مومياته في موكب مهيب إلى الجبانة. ثم يُوضع في تابوت يأخذ مكانه في دهاليز السرابيوم التي كان يجري توسيعها أولاً بأول. بعدئذ يتم انتقاء حيوان آخر ليحل محله، وهكذا دواليك.

يُعتبر السرابيوم بسراديبه الفسيحة المقببة ذات الإضاءة الخافتة، وتوابيته العملاقة المنحوتة من كتلة حجرية واحدة، وممراته المسدوده التي لا تفضي إلى أي شيء من قبيل التمويه، والأجزاء التي نجهلها والتي لايزال يكتنها، يُعتبر خلاصة لكل الإعجاز الذي تتميز به مصر القديمة في أعين المحدثين. [كل ذلك من أجل الثيران ! ...]، تساؤل لابد أن يجول بخاطر جميع الزائرين وهم يجولون ويطوفون داخل تلك السراديب الخاوية التي تجعلهم يتقمصون شخصيات بعض أبطال المغامرات التي قرأوها في طفولتهم تارة، ويتخذون مشية سكان المدن الذين اعتادوا ارتياد الدهاليز الأرضية لشبكات مترو الأنفاق والقطار تارة أخرى.

غير أن السرابيوم ماهو إلا أحد عناصر العالَم الرحب لجبانات الحيوانات في «منف» — وإن كان أكثرها أهمية وأشدها جذباً للأنظار. ففي الناحيتين الشمالية والشرقية نجد العديد من الجبانات الأخرى التي تم استكشاف بعضها بصورة جزئية، وجميعها مغلق حالياً بسبب دواعي الأمن. كما تفيدنا المراجع والمصادر الوثيقة بوجود جبانات أخرى مكرسة لدفن حيوانات لم نعثر عليها بعد في الموقع. وهنا يجدر بنا أن نميز بين الجبانات التي كانت مكرسة لدفن نوع بعينه من الحيوانات المقدسة واحداً تلو الآخر مثل الثيران على سبيل المثال، وبين تلك التي كانت مخصصة لدفن فصيلة معينة من الحيوانات بأعداد لا تحصى مثل القطط. إذ يضم النوع الأول من الجبانات — وهو أقل عدداً — مومياوات الثيران «ابيس»

والأبقار التي كانت مكرسة للإلهة «ايزيس». أما النوع الثاني الذي كان ممثلاً بصورة أفضل، فيشمل رفات كل من القردة والصقور، وطيور أبو منجل (جبانتين) والكلاب وحيوانات ابن آوي، والقطط بالطبع وقطط الـ«بوباستيون Bubasteion». كما يتعين علينا ذكر الثعابين وحيوانات النمْس وغيرها من القوارض التي نجدها هنا وهنالك، فضلاً عن الحيوانات التي لم نعثر لها على أثر حتى الآن وعلى الأخص الأسود.

ونطلق على ذلك عبادة الحيوانات التي كانت في الموقع، أو على الأحرى عبادة الآلهة والآلهات من خلال أحد الأشكال الحيوانية التي تتجلى فيها (علماً بأنها من الممكن أن تتجسد في العديد من الأشكال مثل حيوانات أبو منجل والقردة التي ترمز إلى الإله «تحوت» على سبيل المثال). وأحياناً يتقمص الإله في شكل فرد واحد من أفراد الفصيلة الحيوانية، وأحياناً أخرى في جميع أعضاء الفصيلة الحيوانية سواء تلك التي تُربى حول المقاصير المشيدة في الموقع أو تلك المنتشرة في وادي النيل ومختلف القرى. لذلك فعند موت تلك الحيوانات كان أصحابها يأتون بها إلى الهضبة لتحنيطها ودفنها. كانت تلك الحيوانات في حقيقة الأمر من قبيل النذر أو الأضحية التي تساعد على التقرب بصورة أفضل من المعبودات التي يُتضرع إليها بفضل علاقتها النوعية بتلك المعبودات على حد اعتقاد شتى الطبقات الاجتماعية.

إننا ندين بالكثير مما نعرفه عن جبانات الحيوانات إلى «والتر إمري» الذي يُعد من أهم كبار الأثريين الذين عملوا بالموقع. وقد شُغف تماماً — مثل «چان فيليب لوير» — بشخصية «ايمحتب» مما دفعه لفترة طويلة إلى البحث عن مقبرته، وقد أخذت أهميته الكبرى تتعاظم مع مرور السنين حتى استقر به الأمر إلى أن أصبح قديساً، بل إلهاً بالنسبة للمصريين في العصر المتأخر الذين اتخذوا من مقبرته قِبْلة للحج. وقد اهتدى «إمري» من خلال الحفائر التي كان يديرها لحساب جمعية الاستكشافات المصرية إلى اكتشاف مجموعة من المقاصير ترجع إلى العصور المتأخرة لاسيما معظم جبانات الحيوانات (من أبقار وقردة وصقور وطيور أبو منجل). وقد قام «هنري سميث» بمتابعة أعمال «إمري» عقب وفاته.

إن قطط المقصورة التي ترجع إلى العصر اليوناني والتي تمثل الإلهة القطة، أو تلك التي تأخذ رأس القطة «باستت Bastet» (أو «بوباستيس Bubastis» التي اشتُق منها الاسم اليوناني للمقصورة وملحقاتها : «البوباستيون») يمكن بالتأكيد أن تضفي جاذبية وسحراً على ذلك النتوء للهضبة الجيرية الممتدة يومياً أمام أنظارنا. بيد أن

الأهمية الرئيسية لذلك الموقع كانت تكمن في وجود مقابر منحوتة في الصخر في تلك المنطقة ومكرسه لآدميين لا تربطهم علاقة واضحة بقطط «باستت»، قد دُفنوا في تلك الناحية قبل قطط «البوباستيون» المحنطة بقرون عديدة. وتظهر بعض تلك المقابر الأدمية على خريطة سقارة التي نشرها «چاك دي مورجان Jacques de Morgan» عام ١٨٩٨ (ومنذ ذلك التاريخ لم تُنشر أي خريطة أخرى على نفس ذلك القدر من التفصيل على الرغم من التغيرات الجسيمة التي طرأت على معارفنا بهذا الموقع منذ ذلك الحين). وتشير تلك الخريطة إلى وجود مقابر على مقربة من منزل البعثة الفرنسية على الواجهة الشرقية للجرف الصخري، إلا أنه لم يعد بمقدورنا رؤيتها بسبب الأنقاض والرمال المتراكمة عليها، وكذا بعد بناء استراحة كبار الزوار. وفي المقابل، بعض تلك المقابر الواقعة وفقاً للخريطة على المنحدر الجنوبي للجرف الصخري بالقرب من زاويته لم تختف كلياً تحت الرمال. وعلى الأخص كان هناك مدخل مقبرة تقع بعد زاوية الجرف الصخري مباشرة واضحاً للعيان على الرغم من الرمال المتراكمة عليه.

اللقاء الأول

كانت رؤية تلك الفتحة الكبيرة المنحوتة في الصخر بداية للمغامرة الاستكشافية التي نحن بصدد سرد وقائعها. أما البحث والتفكير استناداً إلى الخريطة وإلى كل ما يمكننا معرفته حول جبانة قطط «البوباستيون»، فقد تبع ذلك. ففي البداية كان هناك مدخل تلك المقبرة (وبعد ذلك تم اكتشاف فتحات أخرى على بعد بضعة امتار) وحب الاستطلاع والرغبة في سبر أغوارها. ولشرح تلك الدوافع يتعين علينا الرجوع إلى كل ما سبق أن ذكرناه آنفاً عن سقارة وعظمتها وقوة جاذبيتها. فقد اكتفينا بالفعل بالتنويه إلى الجزء المرئي الواقع فوق سطح الأرض في سقارة. في حين أن لها وجهاً آخراً ربما كان أكثر عجباً وغرابة : ألا وهو الجزء الكامن تحت الأرض. ولا نقصد بذلك تلك المصاطب ذات المقاصير التي تشبه أحياناً المتاهات، ولا تلك المقابر المشيدة من الأحجار الرائعة المقصوبة بعناية. بل نحن الآن بصدد عالَم

آخر يتكون من آبار جنائزية وسراديب وحجرات منحوتة في الصخر، وتتلاقى فيه الأحقاب التاريخية وتتداخل بعضها في بعض. فشبكات السراديب التي ترجع إلى العصور السحيقة أو إلى الدولة القديمة ينحرف مسارها ويتبدل اتجاهها ليُعاد استغلالها خلال العصور التالية. كذلك كثيراً ما كان اللصوص في شتي الأزمنة يقتحمون إحدى المقابر، وتحسباً للكتمان والسرية ومراعاة للتستر والفاعلية كانوا يشقون سراديب ويثقبون الجدران للانتقال من مقبرة إلى مقبرة أخرى مجاورة دون أن يلتفتوا أحياناً إلى سقوط بعض الغنائم التي سلبوها أثناء فرارهم. ويحدونا الاعتقاد بأن كافة المقابر تفضي بعضها إلى بعض، وأن كل شيء مفرغ على مستويات متعددة. وإذا أمعنا التفكير لوجدنا ذلك الأمر مذهلاً ومعجزاً في نفس الوقت. عالَمان مزدوجان في سقارة إلى حد ما، مثلما هو الحال في مدينة باريس حيث توجد في باطن الأرض – وتتصل بعضها ببعض أحياناً – المحاجر القديمة وسراديب الأموات، وخطوط مترو الأنفاق والقطارات والطرق السريعة، ومجاري الأنهار وشبكات الصرف الصحي الممتدة مثل شوارع العاصمة، بل وتحمل لوحات إرشادية بنفس أسماء الشوارع العلوية !

بكل تأكيد لا يقتصر وجود هذا العالَم السفلي في مصر على سقارة. ففي الضفة الغربية لـ«طيبه» على سبيل المثال في مواجهة الأقصر ليس بخاف على أحد أن قرية «القرنة» والقرى الأخرى المجاورة تتطابق مع الجبانات القديمة، وتفضي إليها أحياناً عن طريق قبو منازل الفلاحين. وفي شتى المواقع الأثرية الكبيرة الموجودة في مصر العليا والوسطى حيث تقع الجبانات في المناطق الصحراوية، يطالعنا إلى حد ما نفس الوضع الذي يتوقف على أهمية الموقع وطول فترة استغلاله. ولا يجدر بنا أن نغفل حقيقة أن الموت في مصر القديمة يشغل دائماً مستويين تمثل فيه المقبرة تجسيداً ملموساً على الوجه الأكمل. فمن ناحية نجد العالَم السفلي أو مملكة الموتى المتمثلة في القبو المغلق والمنيع والمتعذر بلوغه نظرياً حيث تقام الطقوس الدينية للموت والبعث من جديد في العالَم الآخر. ومن ناحية أخرى، تُعد المقبرة بمثابة المُنْخُل الذي يتواصل من خلاله الموتى والأحياء في حركة مزدوجة وسرمدية بفضل الطقوس والشعائر والقرابين، تماماً

مثل مصبات الأنهار حيث تتلاقى المياه العذبة بالمياه المالحة وتمتزج بها. تلك هي الغاية المنشودة من وراء تشييد المقصورة الفسيحة إلى حد ما والمزودة أحياناً بصالات ملحقة موزعة وفقاً لتخطيط معقد. وبالنسبة للفرعون، يؤدي المعبد الجنائزي هذه الوظيفة ويخضع لمفهوم معين، ويتفق مع نظرية لاهوتية دقيقة.

إن من يلهث بحثاً عن النقوش البارزة واللوحات الملونة لكي يبعث إلى الحياة من جديد قوماً تواروا إلى الأبد يمكنه الاكتفاء بالمقاصير والأجزاء العلوية لمقابر سقارة. فما أكثر الروائع المعمارية والتشكيلية والتصويرية التي تطالعنا في سقارة والتي تغمرها الرمال ! غير أن الإلمام بالجانب الآخر للأمور، والتعرف على الواجهة الخفية لحضارة تتسم بألوانها الزاهية وطابعها البش الضحوك، يفرض علينا أن نغوص تحت الأرض، وأن نستسيغ السير في عالَم مختلف. وبالطبع فإن جولة الزائر العادي في سقارة تصبح بالضرورة محدودة، وتقتصر على زيارة السرابيوم العملاق الذي كُرس لدفن ثيران «ابيس»، ومقابر العصر الفارسي، والنصوص الجدارية لهرمي «اوناسOunas » و«تيتي». ونظراً لدواعي الأمن، قلما يمكن بلوغ الأجزاء الجنائزية البحتة في المقابر ومختلف السراديب، وهو أمر يسهل تفهمه. أما بالنسبة لعالِم المصريات فيمكن أن تمثل تلك الأجزاء مجالاً شديد السحر والجاذبية، وميداناً خصباً بالوعود والاكتشافات. وعلى أي حال، فلا مناص لكل من يرغب في العمل بسقارة من الاحتكاك بهذا العالَم والتعرض له إن آجلاً أو عاجلاً. وهل بنا حاجة إلى التذكير بأن المومياوات – سواء البشرية أو الحيوانية – والأثاث الجنائزي المصاحب لها يوجد بالتحديد في ذلك العالَم السفلي ؟ وحتى مع التسليم بفداحة أعمال السلب والنهب والتخريب التي ارتكبها اللصوص لدرجة أنهم أتوا في أغلب الأحيان على جميع محتويات الغرف الجنائزية، فإن كل شيء على الرغم من ذلك يمكن أن يكون له قيمة وثائقية. بل أحياناً ما يمدنا جزء صغير لا يجذب الأنظار أو قطعة من نص مهشم بمعلومة تاريخية على جانب من الأهمية. علاوة على أن ناهبي القبور لم يعيثوا فساداً في كل مكان. وفضلاً عن ذلك يجدر بنا أن نميز بين اللصوص – خاصة ابتداء من القرن الماضي – الذين

اقترفوا العديد من التخريب والتدمير في سبيل التوصل إلى القطع المخصصة لتجار العاديات وهواة جمع الآثار والمتاحف ؛ وبين لصوص العصور القديمة الذين لا يحفلون بالفعل إلا بالذهب والقطع الثمينة وإن اضطرهم ذلك إلى تمزيق المومياوات وتحطيم التوابيت والأثاث الجنائزي للاستيلاء عليها. وأخيراً ينبغي علينا دراسة تلك الغرف الجنائزية والسراديب والآبار بغض النظر عن محتوياتها من الناحية المعمارية ومن منظور المفاهيم الجنائزية المصرية القديمة.

وبطبيعة الحال، ليس ذلك بالعمل الهين اليسير. إذ لا يليق بنا أن نتخيل أن الأجزاء السفلية في المقابر تشبه السراديب النظيفة والمضاءة جيداً التي يمكننا زيارتها الآن، أو المقابر الضخمة المنحوتة في وادي الملوك. فعلى العكس من ذلك يتعين علينا مواجهة الرديم المتراكم على مر القرون والذي يجب تنقيبه بعناية، والأجزاء القديمة المتهدمة التي تسد الطريق، والصخور الهشة وما ينجم عنها من مخاطر، وتسرب المياه وارتشاحها، وطبقات الرماد والقطع المتفحمة من جراء الحرائق المتعددة الأسباب، والأتربة العضوية التي تثير الغثيان والتي تغشى كل شيء، ومشقة تدبير الإضاءة اللازمة وإزاحة الرديم، والآبار التي تشكل خطراً داهماً، وقلة الهواء وكميات الأكسجين. كل تلك المصاعب لا تثير دائماً حماس الباحثين...

ونستنتج من كل ما تقدم أن مؤلف هذا الكتاب قد انجذب بسحر ذلك العالَم ذي الطبيعة الخاصة، وأن حب الاستطلاع قد تملكه في الحال بمجرد رؤية مدخل المقبرة المنحوت في الجرف الصخري لجبانة القطط، والذي كان مع ذلك يتسع لدخول الكثير من الضوء. ويتعلق الأمر بالفعل بحجرة فسيحة تمتد داخل الجبل تملأ الرمال والرديم ثلاثة أرباع ارتفاعها، حيث يمكن للمرء أن يقبع بسهولة في وضع القرفصاء أو الجلوس. ومن دواعي الأسف أن بعض الكتل الحجرية المنهارة، وارتفاع الأنقاض داخلها يحول دون التقدم أكثر من ذلك. ومهما يكن الأمر فإن هذه الحجرة الأولى كانت تثير الاهتمام على الرغم من حالتها السيئة جداً من الحفظ، ومن وجود مختلف الفضلات المعتادة من قصاصات الورق القديمة التي جذبتها الرياح، وأحياناً الكلاب التي

اتخذت من ذلك المكان الهادئ القصي مأوى لها لا ترحب كثيراً بأن يزعجها فيه أحد.

إن أهمية هذا المكان الذي يبدو من الخارج مفتقداً للنضارة تكمن أولاً في مظهره. فقد نُحت السقف على هيئة قبة، كما أن الجدار الأيمن في الناحية الشرقية جدير بالملاحظة نظراً للوحاته الأربع التي يفصلها ما يشبه بأعمدة ناتئة بعض الشيء عن الجدار؛ وأفاريز منحوتة في الصخر أسفل سقف الحجرة. أما الأهمية الأخرى لتلك الحجرة فتنبع في نصوصها ونقوشها التي لا تزال واضحة بجلاء على ذلك الجدار الشرقي على الرغم من كونها في حالة سيئة من الحفظ. ويعلو اللوحات الأربعة نص أفقي طويل ملون باللون الأسود المطموس إلى حد ما. كما كانت الأنقاض والرمال التي تذروها الرياح والفضلات تغطي اللوحة الأخيرة داخل الحجرة مثل سائر اللوحات الأخرى. بيد أنه يمكن ملاحظة نص سهل القراءة منحوت بإتقان أعلى لوحة منحوتة، كذلك نتبين منها رأس شخص ملونة ومطموسة الملامح. وقد قمت بنسخ تلك النصوص التي سمحت لنا من حيث مضمونها وشكل الأحرف الهيروغليفية بتأكيد الانطباع المنبعث من المظهر العام للحجرة : إذ أننا بصدد مقبرة ترجع إلى الدولة الحديثة حتى وإن كنا نتوقع على الأحرى بناء يرجع إلى عصر لاحق، ربما إلى العصر الصاوي مثل مقبرة كبير الوزراء «باكنرنيف» التي تنقبها البعثة الأثرية التابعة لجامعة «بيز» الإيطالية، والتي تقع في الناحية الجنوبية منحوتة في جرف صخري مماثل ذي مواصفات مطابقة.

وفضلاً عن ذلك، تمدنا تلك النصوص باسم وألقاب صاحب تلك المقبرة الذي تبرز رأسه وسط الرمال وقصاصات الورق القديمة. وهنا أيضاً يتعلق الأمر بالتحديد بمقبرة كبير وزراء فرعون، وهو يتمتع بمكانة رفيعة ونفوذ كبير يجعله لا يخضع للمساءلة إلا من قِبَل الملك مباشرة. وكان له اسم غير شائع : «عبريا Aperia».

ونظراً لأننا لا نفترض أن يكون القارئ ملماً بالضرورة بخفايا وأركان الحياة السياسية والإدارية وأسماء الأعلام المصرية القديمة، فسنسمح لأنفسنا بالتوقف قليلاً عند لقب "كبير الوزراء"، واسم

« عبريا » نظراً لأهمية ذلك في فهم بقية الكتاب. فقد استعار علماء المصريات لقب "كبير الوزراء" من الإدارة الشرقية والعربية والعثمانية. وهو يشير إلى منصب رئيس الوزراء أو رئيس الحكومة (إذا جاز لنا استخدام تعبير حديث ومعاصر). وقد كان المصريون القدماء يشيرون إلى ذلك الرجل بلقب « تشاتي Tchaty » مقترناً بـ« مر-نيوت mer-niout » أي « رئيس المدينة chef de la ville ». كما كانت سلطات ومهام وأعباء كبير الوزراء جسيمة للغاية إذ تشمل مختلف النواحي المدنية والقضائية والمالية والدبلوماسية. فكل شيء تقريباً كان يمر بين يديه. كما كان عليه ممارسة مهام منصبه على اتصال مباشر بالفرعون. وقد تنبهت بعض الأحقاب التاريخية إلى جسامة ذلك المنصب، مما دعا إلى ازدواجيته، والعودة إلى التقسيم الثنائي التقليدي للبلاد بين مصر العليا ومصر السفلى. وربما كانت الازدواجية أيضاً وسيلة للتقليل بعض الشيء من نفوذ وسلطان أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة والحد منها. ناهيك عن أن إدارة مصر قد ازدادت تعقيداً على مر القرون، لاسيما ابتداء من اللحظة التي تولت فيها الإشراف على امبراطورية كاملة في آسيا وأفريقيا. غير أننا لا نزال نجهل الكثير عن تقسيم الأعباء بين كبير الوزراء في الجنوب الذي كان مقيماً في طيبه، ونظيره في الشمال الذي كان يتخذ من منف مقراً له. ربما كان « عبريا » كبير الوزراء في مصر السفلى نظراً لوجود مقبرته في سقارة، ولعل مدينة « منف » كانت مسقط رأسه. أما فيما يتعلق باسمه، فسنكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى أننا حتى لو قسمناه إلى جزئين يمثل فيه المقطع الأخير « يا ia » نهاية شائعة لكتابة أسماء الأعلام في ذلك العهد قد تعكس كناية مألوفة ومقربة إلى النفس ؛ يبقى أن المقطع الأول منه وهو « عبر aper » الذي يمكن بالتأكيد أن يعود إلى الفعل المصري القديم الذي يعني "زَوَّد" أو "جَهَّز"، ليس له معنى واضح مستخدماً على هذا النحو في اسم علم. لذلك فمن غير المستبعد أن يكون هذا الاسم أجنبياً، وليس من أصل مصري.

بعيداً عن المظاهر الخارجية

تلك كانت تقريباً الملاحظات الأولى التي فرضت نفسها عليّ حينما رأيت وشرعت في نسخ ذلك النص للمرة الأولى. كانت المقبرة تبدو على جانب من الأهمية بالرغم من أن العمل ربما كان لم يستكمل بها. وعلى أية حال لابد أن يكون قد ورد ذكرها في أدب علم المصريات، ولابد أن تكون معروفة بصورة أو بأخرى... وقد اقتصر اللقاء الأول على ذلك. كيف كان يمكنني أن أتخيل حينئذ أن تلك المقبرة وذلك الوزير سيستحوذان فيما بعد على كل هذه المكانة في أبحاثي، بل وفي حياتي الشخصية نفسها ؟ عندئذ حان وقت مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا حيث كانت تنتظرني أعمال قديمة معلقة وأخرى جديدة. وقد ظلت نسخة هذا النص مطوية ومنسية بعض الوقت في أدراج مكتبي. وعلى الرغم من ذلك لم تفتر ذكرى المقبرة نفسها بل ظلت حية في ذاكرتي. وكنت أعد نفسي بالعودة مرة أخرى إليها بيد أن الفرصة لم تسنح لي أثناء فترة إقامتي القصيرة في مصر خلال عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨. وفي انتظار ذلك شرعت في اجراء الأبحاث المعتادة بالنسبة لأي عالِم مصريات تواجهه مثل هذه المعضلة. إذ كان يتعين عليّ معرفة من الذي سبق أن تناول هذه المقبرة، وفي أي كتاب، وماذا ذكر عنها، وماذا نعرف عن كبير الوزراء «عبريا»، وفي أي عصر بالتحديد كان يعيش، ...الخ ؟ غير أن تلك الأبحاث لم تثمر نتائج كثيرة، بل ازداد الأمر تعقيداً. وسرعان ما أفسح الفضول وحب الاستطلاع المجال أمام الرغبة في المعرفة والفضول الفكري الذي راح ينشط. ترى ماذا نعرف بالفعل عن «عبريا» ومقبرته ؟ لا شيء تقريباً، بل لا شيء البتة. لم تكن المقبرة في ذلك الحين مدرجة في الكتاب الضخم الذي يمثل مرجعاً لكافة النصوص المصرية القديمة المرتبة حسب الموقع الجغرافي الذي تنتمي إليه. لا شيء أيضاً في الأبحاث والدراسات حول الوزارات وكبار الوزراء. وفي المقابل، كان اسم «عبريا» نقطة انطلاق على درب على قدر عظيم من الأهمية.

في الواقع ورد ذكر ذلك الاسم في «معجم أسماء الأعلام» الذي وضعه «هرمن رانك Hermann Ranke». وهو مؤلَّف ألماني لا غنى عنه، أشبه ما يكون بدليل التليفونات ولكن بالنسبة لجميع المصريين القدماء الذين ورد ذكر أسمائهم في أي نص من النصوص بغض النظر

عن المرتبة الاجتماعية التي كانوا يتمتعون بها. وبالفعل فإن هذا المرجع يورد اسم «عبريا» وإن كان مكتوباً بصورة مختلفة بعض الشيء تزيد علامتين هيروغليفيتين مقارنة بالهجاء المستعمل على الجدار الذي قمت بنسخه. لم يكن الاسم «عبريا Aperia» وإنما «عبريارAperiar» أو «عبريال Aperial» ؛ الأحرف الثلاثة الأخيرة تماثل بالفعل وبصورة شبه مؤكدة الهجاء المصري القديم لاسم إله في اللغة السامية: «El». ومن ثم يمكن أن يكون «عبريا» صورة مختصرة للاسم الكامل «Aper–El» الذي لابد أن يكون مدوناً في مكان آخر في المقبرة. ويضيف «معجم أسماء الأعلام» الملاحظات التالية : [اسم مذكر، يرجع إلى الدولة الحديثة، لم يسبق نشره، موجود في محجر يقع بين «ابو صير» و«سقارة» وفقاً لإشارة عالِم المصريات الألماني «شافرSCHAFER»] وفضلاً عن ذلك، يحيلنا «هرمن رانك» إلى كتاب الماني آخر أكثر قدماً يتناول الأسماء الأجنبية ذات الأصل الكنعاني القديم المستخدمة في اللغة المصرية. كما يذكر المحجر الذي زاره «شافر» من ناحية، ومن ناحية أخرى يشير إلى أن نفس الاسم «عبريارAperiar» الذي هو على الأرجح «Aper–El» معروف ايضاً كاسم مكان (يقع في مصر ؟) وفقاً لبردية ترجع إلى الدولة الحديثة.

أثارت جميع تلك المعطيات فضولي على الرغم من بساطتها. إذ لابد أن يكون "المحجر" هو المقبرة التي تقع بالفعل بين قريتي «ابو صير» وسقارة (علماً بأن الناحية الشمالية لسقارة كانت تُعرف لفترة طويلة باسم «ابو صير»). ولكن ما الذي حمل عالم المصريات الألماني على الاعتقاد بأن هذه المقبرة محجراً ؟ ربما لأن رؤية ذلك البناء الصخري خيلت له أنه أشبه بمقصورة نذرية كما نجد في جبل «السلسلة» في مصر العليا، لاسيما خلال الدولة الحديثة. فضلاً عن أن وجود مقبرة كبيرة منحوتة في الصخر لشخص على ذلك القدر العظيم من النفوذ والأهمية في الدولة الحديثة في سقارة كان يُعد شيئاً غير معقول حينئذ. زد على ذلك الطابع "الشرقي" لاسم «عبريا»، والشكل الهجائي الكامل الذي يشير إلى معبود أجنبي غير مصري، كل ذلك كان يمثل درباً شائكاً ينبغي تتبعه بحذر واحتراس. ويبدو كل هذا الأمر في حد ذاته عادياً إذا وضعناه في سياق الدولة الحديثة. بيد أن الأمور

تصبح أكثر تعقيداً عندما نُدخل في اعتبارنا المكانة الاجتماعية والسياسية الرفيعة لهذا الشخص. لذا فإن الحجرة التي عاينتها عام ١٩٧٦ ترزح تحت الرمال في حالة سيئة من الحفظ قد تجلت أهميتها المزدوجة في كونها تعطينا فكرة عن طبيعة بقية الأثر وعن شخصية صاحبها.

وفي انتظار عودتي إلى مصر، تعين عليّ محاولة جمع المزيد من المعلومات. وربما وجدت ضالتي في مؤسسة مثل Griffith Institute في مدينة «اوكسفورد» التي تمتلك وثائق مصرية قديمة منقطعة النظير، والعديد من المخطوطات التي لم يسبق نشرها لعلماء المصريات القدماء، وتتولى نشر المراجع البيبليوغرافية – التي ذكرناها آنفاً – والتي لم تشر إلى مقبرة «عبريا» في طبعتها الأولى. وقد أجابني السيد «چاروميير مالك Jaromir Malek» مدير المعهد عن طلب الاحاطة الذي تقدمت به في ربيع عام ١٩٧٨ معلناً اعتزامه الإشارة إلى تلك المقبرة في الطبعة الثانية التي يقوم باعدادها. وبخلاف «معجم أسماء الأعلام» الذي وضعه «رانك»، فإن الإشارة الوحيدة إلى مقبرة «عبريا» قد أوردها «پتري» في مخطوط لم يُنشر. وقد تفضل Griffith Institute باعطائي نسخة من هذا المخطوط ستساعدني على الوقوف على جلية الأمر.

عمل «وليم فلندرز پتري William Flinders Petrie»، عالم المصريات الانجليزي الكبير، في مصر خلال عشرات السنين، قام خلالها باستحداث وتطوير علم أثري منهجي. لم يقم بالتنقيب إطلاقاً في سقارة ولكنه مر بها عام ١٨٨١ حيث دخل مقبرة «عبريا» ونسخ بعض نصوصها. ولعلها كانت آنذاك مدفونة تحت الرمال بصورة أقل. ولم يترك لنا سوى بضع ملاحظات سريعة لا تتجاوز نصف صفحة. وكان «پتري» لايزال مبتدئاً إلى حد ما حينما شرع في عمل هذا المسح مما يفسر وقوعه في بعض الأخطاء التي شابته. بيد أنه بخلاف جزء من النص الذي لايزال واضحاً والذي أشرت إليه آنفاً، شمل مخطوط «پتري» من ناحية على الهجاء الكامل لاسم «عبريا» أي «Aper-El» ؛ ومن ناحية أخرى بداية سطر من الأحرف الهيروغليفية الملونة في حالة

سيئة من الحفظ حالياً بعد أن كان آنذاك واضحاً وهو يشير إلى الإله «اتونAton ». إن ذكر هذا الإله بصفاته المميزة تسمح لنا باستنتاج أن المقبرة ترجع إلى عهد «إخناتون Akhénaton » أو خلفائه المباشرين. وهو عنصر جديد على جانب بالغ من الأهمية ؛ فكلنا نعلم مدى تأثير ما اصطُلح على تسميته "عصر العمارنة" في المخيلة، وما أثاره من أبحاث وما فجره من تساؤلات. فنحن لانزال نجهل الكثير عن عهد الفرعون «امنحتب الرابع Aménophis IV » الذي ألغى عبادة الإله « آمون » في الأسرة الثامنة عشرة ليستبدله بقرص الشمس « آتون »، وأسس عاصمة جديدة في « تل العمارنة »، وتزوج الملكة « نفرتيتي » الشهيرة. تنصب معلوماتنا عن تلك الحقبة فقط حول العاصمتين «طيبه » و« تل العمارنة ». في حين أننا لانعلم أي شيء تقريباً عما كان يحدث حينئذ في بقية أنحاء البلاد، وعلى الأخص في منطقة « منف ». ومن هذا المنظور يمكن أن يمثل « عبريا » ومقبرته إضافة هامة بالنسبة لذلك العهد نفسه، أو على الأقل بالنسبة لبواكيره.

كانت المعلومات التي جمعتها في باريس وقارنتها بما رأيته عام ١٩٧٦ تمثل نقطة انطلاق بالنسبة لي. عندئذ حان الوقت لمواصلة البحث والاستقصاء بين أرفف المكتبات، وعلى الأخص العودة إلى مصر والمضي قدماً في استكشاف المقبرة. وفي بداية عام ١٩٧٩ سنحت لي فرصة العودة إلى سقارة للمشاركة في أعمال البعثة الأثرية الفرنسية في سقارة تحت اشراف البروفيسور «چان لكلان». وفور وصولي توجهت بالفعل في العشرين من شهر يناير لأجد أن كل شيء في المقبرة لايزال على حاله. إن نظرتي إلى الأمور بعد مضي ثلاث سنوات قد أصبحت بكل تأكيد أكثر عمقاً وتفكيراً. كما أن المعلومات التي جمعتها في باريس قد جعلت تلك الزيارة، وكذا الزيارات التالية أكثر إثماراً : تفاصيل جديدة تتجلى أمام عيني، وملاحظات كانت قد غابت عن ذهني، وتساؤلات أكثر دقة وتحديداً. وكلما وجدت متسعاً من الوقت كنت اتردد على الموقع الذي كان قريباً من البيت.

وفي الخامس والعشرين من شهر يناير اجتزت مرحلة جديدة عندما تسللت خلف الحجرة الأولى بين الأنقاض وسقف المقبرة

لأكتشف ما يشبه حجرة ذات ركائز مربعة الشكل تغطي الرمال ثلاثة أرباع ارتفاعها. بيد أن الكلاب المتواجدة في ذلك المكان لم تنظر لعملية الاقتحام التي قمت بها بعين الرضا كما دونته في مذكراتي لذلك اليوم : [قمت باستكشاف الحجرات الداخلية بعض الشيء، ونسخت بضعة نصوص ودونت عدداً من الملاحظات قبل أن تطاردني الكلاب بنباحها للأسف الشديد]. وقد اجتذب ذلك المكان الهادىء كلبة لتضع صغارها. ومع مرور الوقت ألفت تلك الحيوانات زياراتي لهذا المكان التي واظبت عليها بانتظام حتى حان موعد رحيلي إلى فرنسا في منتصف شهر فبراير. وقد هيأت لي تلك الزيارة فرصة التعرف على المقابر المجاورة، وعلى وجه الخصوص على النص الذي يرجع إلى مقبرة « رش Resh » أو « روش Rosh » الذي كان ضابطاً بحرياً في عهد كل من « تحتمس الرابعThoutmosis IV » و« امنحتب الثالث Aménophis III ».

المشروع وطول الانتظار

من الآن فصاعداً أصبحت مقبرة « عبريا » جزءاً لا يتجزاء من حياتي. ولدى عودتي إلى فرنسا تعين عليّ السعي في اتجاهين. أولاً تعريف المجتمع العلمي بهذا الموقع وأهميته الحالية والمستقبلية التي لا يمكن إنكارها. وبشكل موازٍ إعداد مشروع متماسك ومنهجي لاستكشافه وتنقيبه والمحافظة عليه. وقد حزمت أمري على ذلك يحدوني اعتقاد راسخ في أن تلك المقبرة – وفيما بعد المقابر الأخرى المجاورة – يمكن أن تزيد من معارفنا حول الأسرة الثامنة عشرة، وعلى الأخص في منطقة « منف ». وعلاوة على ذلك توحي كافة المؤشرات إلى أن مقبرة « عبريا » لاتزال تحتفظ في جوفها على الأقل ببعض الأثاث الجنائزي الذي وُضع فيها عند عملية الدفن (ولكن في أي حالة من الحفظ ؟). وبالتالي تأتي الحفائر كما يجب دائماً أن تكون عليه في سياق علمي تهدف إلى التحقق تجريبياً من تلك الفرضية. أما عن أعمال الحفظ والتدعيم فتفرض نفسها علينا نظراً لسوء حالة الجبل، ومياه الرشح، ومختلف عوامل التلف والتدهور.

وقد كان لمعاونة البروفيسور «چان لكلان» دوراً عظيماً في سبيل تحقيق ذلك الهدف المزدوج، وكذلك بطبيعة الحال تفهم عدد من المسئولين في هيئة الآثار المصرية للموقف، وتأييدهم ووعيهم بأهمية الموقع، وضرورة حمايته على الرغم من وجوده بصورة غريبة أسفل استراحة كبار الزوار الرسمية مباشرة. بيد أن كل ذلك سيتطلب الكثير من الوقت والصبر والمثابرة وبذل الجهود المتواصلة.

فبادئ ذي بدء كان ينبغي تحديد موعد لتعريف "المجتمع العلمي" – وفقاً للتعبير الشائع – بالمقبرة والموقع والمشروع برمته. وعقب عودتي إلى فرنسا بقليل، ألقيت محاضرة في پاريس في السابع عشر من شهر مارس عام ١٩٧٩ أمام «الجمعية الفرنسية لعلم المصريات» أوضحت فيها أهمية مقبرة «عبريا» والملاحظات التي توصلت إليها. وبعد ذلك ببضعة أشهر، عُقد في مدينة «جرونبل» الفرنسية، مسقط رأس «چان فرانسوا شامپليون»، المؤتمر الدولي الثاني لعلماء المصريات الذي يحضره جمع غفير من العلماء في شتى التخصصات المتعلقة بمصر القديمة. وكانت فرصة عظيمة للحديث عن مقابر «البوباستيون» – وعلى الأخص مقبرة كبير الوزراء – أمام جمهور دولي ؛ ومن ثم جمع انطباعات وآراء بعض الزملاء كنت أعلق عليها أهمية كبيرة. أما البحث الذي قدمته أمام المؤتمر في الرابع عشر من شهر سبتمبر فكان بعنوان : «مقبرة كبير وزراء مجهول من الأسرة الثامنة عشرة في سقارة». وهكذا خرج «عبريا» إلى حيز النور. وبالطبع كان يلزم المزيد من الوقت لأخذ تلك المعطيات الجديدة بعين الاعتبار، ودمجها في النظرة التقليدية لموقع سقارة ولعصر العمارنة.

وبشكل موازٍ، قمت بإعداد طلب تفصيلي وقدمته إلى هيئة الآثار المصرية يرتكز على حماية وترميم ودراسة وتنقيب المقبرة. وكان المشروع يندرج في إطار وحدة الأبحاث التي أنتمي إليها في المعهد القومي الفرنسي للأبحاث العلمية والبعثة الفرنسية للحفائر في سقارة اللتين كان يرأسهما البروفيسور «چان لكلان». وبعد العديد من المناقشات والزيارات المشتركة للموقع، تفضل هذا الأخير بالموافقة على الإشراف على أبحاثي. عندئذ راحت الأمور تأخذ مجراها الطبيعي

في السياق الذي ينبغي أن يخضع له كل طلب مقدم للعمل الأثري في مصر. فما بالك والأمر يتعلق هنا بفتح موقع جديد مهما كان صغيراً ومتواضعاً. ومن ثم كان من الطبيعي أن تستغرق دراسة الطلب المقدم بعض الوقت. ووفقاً للوائح المعمول بها، يؤول البت في قرار الموافقة إلى اللجنة الدائمة للآثار المصرية التي تعقد جلساتها بصورة منتظمة تحت رئاسة الدكتور شحاته آدم آنذاك.

جبانة الدولة الحديثة في سقارة

لاتزال سقارة حتى أيامنا هذه ترتبط كلياً في الأذهان بالدولة القديمة، أي بعصر الأهرامات الملكية والمصاطب. غير أن ذلك ينطوي أولاً على غبن بالنسبة للعصرين المتأخر واليوناني اللذين تركا لنا أنقاضاً على جانب عظيم من الأهمية لاتزال قائمة في الموقع ؛ وثانياً بالنسبة للدولة الحديثة، وعلى الأخص الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

ومنذ فترة قصيرة جداً، ربما لا تتعدى عشرين عاماً تقريباً، برز اهتمام حقيقي بالمقابر الواقعة في سقارة التي ترجع إلى ذلك العهد، وبالتالي ترتبط بصورة مباشرة بمدينة «منف». وفي الواقع فإن الدور الجوهري الذي لعبته هذه المدينة خلال النصف الثاني للألف الثانية قبل الميلاد قد ظل لأمد طويل ولايزال حتى الآن لايُعرف حق قدره. بيد أن استيعاب تلك الأهمية بصورة أفضل قد بدت بشائره حالياً بفضل الأبحاث التي تجري حول جبانات المدينة أي على الأخص في سقارة.

توجد بالفعل قطاعات عديدة لمقابر الدولة الحديثة في سقارة، أو العديد من الجبانات كما يمكننا أن نسميها. أما عن الجبانة الرئيسية حتى الآن، فتقع في الناحية الجنوبية للممر الصاعد الذي يفضي إلى هرم «أوناس»، أي إلى الجنوب قليلاً من الموقع. وقد نُحتت الآبار والغرف الجنائزية لتلك المقابر في صخور الجبل ؛ بينما شُيدت فوقها مقاصير تمثل أحياناً معابد جنائزية حقيقية. كما تم زخرفة أغلب جدران تلك المقاصير المشيدة من كتل رائعة من الحجر الجيري المستخرج من محاجر «طره» الواقعة على الضفة الشرقية للنيل. وقد تسببت "الحفائر" الهمجية التي شارك في تنظيمها وتمويلها تجار العاديات خلال القرن الماضي في نشر وتقطيع تلك الجدران، وبيعها في مشارق الأرض ومغاربها. فتبعثرت الأجزاء وتشتت بين المتاحف والمجموعات الخاصة، ودُفنت المقابر من جديد تحت زحف الرمال، وتآمرت كافة القوى للزج بهذه الجبانة في غياهب النسيان. بيد أن

هذا الوضع قد تغير تماماً بفضل الدراسات التي أُجريت على القطع المتفرقة، وعمليات التنقيب التي تمت إبتداء من العقد السابع من القرن الحالي.

فمنذ عام ١٩٧٥ شرعت بعثة أثرية انجليزية هولندية مشتركة تحت رئاسة «چيفري مارتن Geoffrey Martin» في تنقيب قطاع من تلك الجبانة، وإحراز اكتشافات متتالية لمقابر جوهرية كان قد تم تقطيعها وإعادة ردمها خلال القرن الماضي. ونذكر على وجه الخصوص مقابر القائد والوصي على العرش «حورمحب» الذي تبوأ الحكم عقب وفاة «توت عنخ آمون» و«آي Ay»، وصهر «رمسيس الثاني»، «تيا Tia»؛ ومهندس وأمين خزانة «توت عنخ آمون»، «مايا Maya». وقد وُشيت الأجزاء السفلية لتلك المقبرة الأخيرة بزخارف رائعة، وهو أمر نادر.

كما تقوم بعثة كلية الآثار بجامعة القاهرة بدأت تحت إشراف المرحوم الدكتور سيد توفيق، رئيس هيئة الآثار في ذلك الحين، بإجراء حفائر على نطاق واسع في الناحية الجنوبية للممر الصاعد لهرم «أوناس» إلى الشرق قليلاً. وقد أحرزت هذه البعثة نتائج مذهلة بفضل اكتشاف مقابر في غاية الأهمية ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة، مثل مقبرة كبير وزراء «رمسيس الثاني»، «نفررنبت Neferrenpet». وعلى الرغم من أهمية الوثائق والنصوص واللوحات والتوابيت الحجرية الفريدة التي تم جمعها، فإن تلك المقابر كانت دائماً فريسة لعمليات السلب والنهب المكثفة، مما جعلها لا تحتفظ سوى بالنذر اليسير من أثاثها الجنائزي.

كما يطالعنا في الناحية الشمالية للموقع قطاع آخر لمقابر الدولة الحديثة، وهي المنطقة الممتدة إلى الشرق والجنوب الشرقي لهرم «تيتي». ولعل المقابر الموجودة في ذلك القطاع أقل أهمية من المقابر الجنوبية، كما كانت من نفس النوع وإن كانت مقاصيرها أصغر حجماً. كما تطالعنا على مقربة من تلك النقطة جبانات قطط «البوباستيون» المنحوتة في الصخور الجيرية. وقبل ذلك بعدة قرون، نُحتت في صخور نفس هذا الموقع مقابر لدفن شخصيات هامة وبارزة تنتمي إلى الدولة الحديثة، وعلى الأخص من الأسرة الثامنة عشرة (وحتى عصر العمارنة) ؛ بينما ترجع المقابر المشيدة جنوب الممر الصاعد لهرم «اوناس» (وبعضها منحوت في الصخر) إلى ما بعد عصر العمارنة. وبالطبع فإن هذا الموقع من الجرف الصخري الواقع جنوب شرق هرم «تيتي» يضم المقابر التي تعكف على دراستها البعثة الأثرية الفرنسية في «البوباستيون»، وعلى الأخص مقبرة كبير الوزراء «عبريا» التي تشكل موضوع هذا الكتاب.

وفي شهر ديسمبر من عام ١٩٧٩ عدت إلى مصر للمشاركة من جديد في أعمال البعثة الأثرية الفرنسية في سقارة التي تجري حفائرها في الهرم والمعبد الجنائزي للملك «بيبي الأول»، وكذلك لمتابعة ملف الطلب الذي كنت قد تقدمت به لهيئة الآثار المصرية، وجمع المزيد من الملاحظات التمهيدية عن الموقع. وغني عن البيان أن إقبالي على موسم حفائر ذلك العام في مصر كان يختلف كثيراً عن المواسم السابقة. إذ كان يساورني في نفس الوقت اعتقاد راسخ ومدروس، وحدس يصعب عليّ شرحه جعلاني متلهفاً نافد الصبر. فقد طالت المقدمات أكثر من اللازم ! بيد أنه كان يستوجب عليّ المزيد من الانتظار حتي ينتهي فحص الملف الذي تقدمت به، مثله مثل سائر الملفات العديدة الأخرى التي تأخذ مجراها.

إلا أن فترة الانتظار لم تضع سدى. فإلى جانب عملي مع أعضاء البعثة الفرنسية في الناحية الجنوبية، رحت أغتنم فرصة إقامتي في سقارة لرؤية وإعادة فحص الأجزاء التي يمكن بلوغها من مقبرة «عبريا»، والتقاط الصور الفوتوغرافية، ونسخ أجزاء من نصوصها. وفي كل مرة كانت عيناي تتفتحان على تفاصيل جديدة.

وفي السادس من شهر يناير ١٩٨٠ قمت لأول مرة بزيارة المقابر المجاورة التي كانت وعرة يتعذر بلوغها بسبب الأنقاض المتراكمة حتى لم يعد ظاهراً منها سوى بعض الفجوات الصغيرة. وقد سبق أن قمت في العام الماضي بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية من خلال تلك الفتحات التي لا تمكننا إطلاقاً من رؤية أي شيء بالعين المجردة. وقد كشفت لي تلك الصور بعد تحميضها وطبعها في پاريس عن وجود مقبرة واحدة على الأقل تحتوي على نقوش بارزة رائعة لاتزال تحتفظ بألوانها. بيد أنه كان يستحيل علينا الوقوف على المزيد من المعلومات دون دخولها وتنقيبها. ترى ماهي تلك المقبرة ؟ ولمن تكون ؟ هل كان صاحبها شخصية بارزة ؟ وهل ترجع هي الأخرى لعهد الدولة الحديثة ؟ كانت تجول في رأسي العديد من التساؤلات الحائرة التي تجعل من استكشاف الموقع أمراً حتمياً وضرورياً للإجابة عليها.

حقاً كان هناك النص الذي يحمل اسم الضابط البحري « رش Resh »

الذي يرجع أيضاً إلى الأسرة الثامنة عشرة، والذي أسفرت دراسته عن عدد من المعلومات الجديدة. وعلى أية حال فقد تأكدت من أنني لست بصدد مقبرة أو مقبرتين فقط تمثلان حالة منعزلة وغير نموذجية، وانما يتعلق الأمر بكيان ربما كان على جانب من الأهمية. ومن ثم فقد عزمت في السادس من شهر يناير ١٩٨٠ على التوجه لفحص تلك الأنحاء عن كثب. وبعد شيء من الجهد نجحت في الولوج عبر أقرب فجوة من مقبرة «عبريا» متسلحاً بمصباح وبورقة وقلم. وبمجرد أن يزحف المرء على بطنه على الرمال حتى يتخطى عتبة عالَم آخر. فبعيداً عن الأنوار والمناظر الخارجية المألوفة يغشى النفس انطباع بانفصام جذري يصعب وصفه. وينبع هذا الانطباع من الشعور باختراق المجهول والتغلغل فيه. ولا يعني ذلك أن قدمي الانسان لم تدنس ابداً عذرية هذا المكان (إذ يمكننا أن نحصي عدد "الزائرين" الذين ربما مروا به حديثاً على أصابع اليد الواحدة أو على أصابع اليدين على أكثر تقدير). بيد أنه على حد علمي لم يُكتب أو "يُنشر" أي شيء البتة عن هذه المقبرة.

كانت المقبرة ضيقة ومملوءة بالطبع بالأنقاض حتى السقف، وخالية من النصوص... لا شيء ! ولكن إلى اليسار نرى فتحة عريضة في الجدار ومن خلفها يمكن أن نلمح صفاً من ثلاث أو أربع مقابر متجاورة يربط بينها ممرات من نفس النوع. وهي المقابر التي نراها من الخارج وقد سدت الرمال المتراكمة مداخلها. ولكن بفضل الزائرين القدماء من اللصوص على الأرجح، لم تعد بنا حاجة إلى دخولها من أبوابها. فقد دأب ناهبوا القبور المصرية القديمة على الاستفادة من تلاصق المقابر ومن الصخور الهشة المنحوتة فيها في التقدم من الداخل، والانتقال من واحدة إلى الأخرى عن طريق توسيع مسرح جريمتهم ؛ مما يحد من مخاطر افتضاح أمرهم، ويسمح لهم بارتكاب جرائمهم في سرية وتكتم.

زائرات أم مقيمات ؟

إحدى سمات جمال وسحر الموقع الذي نعمل فيه، وعلى الأخص المقابر

الواقعة إلى الغرب من مقبرة «عبريا»، تتمثل في وجود جحافل من البراغيث التي تبدو أنها تألف جيداً هذا المكان. وهي لا تهاجم جميع الزائرين، وانما تنتقي بعضهم فقط وفقاً لاختيارات ومعايير تخفى علينا.

وقد ذكر الكاتب «اوليفييه رولان Olivier Rolin» عدوانها الخسيس في مقال نشرته له جريدة «لوموند Le Monde» الفرنسية بتاريخ الرابع عشر من شهر اكتوبر عام ١٩٨٩، إذ كتب يقول : [نزحف على البطون، ونتسلل ونتقدم مشياً على اليدين والقدمين بينما البراغيث تصب جام غضبها علينا. (تزخر المقابر بجحافل البراغيث، ترى هل هي براغيث المومياوات ؟). ويحتك الظهر بسقف المقابر...]. وقد يجد ضحايا تلك البراغيث العزاء والمواساة فيما ذكره الكاتب الكبير «فلوبير Flaubert» بشيء من اللامبالاة المتكلفة، عقب زيارته اسقارة : [رحنا نقرأ الملاحظات التي دوناها حول «منف» ممددين على السجادة بينما كانت البراغيث تقفز وتتراقص على الأوراق]. (مقتطفات من رحلة إلى الشرق Voyage en Orient أدب الرحالة الفرنسيين في المشرق في القرن التاسع عشر *Anthologie des voyageurs français dans le Levant au XIXe siècle* بقلم «برشيه J.-C. Berchet»).

وإذا أصرت تلك البراغيث اللعينة العابرة أو المقيمة على الاحتفاء بالزائر الغريب، فبمقدور هذا الأخير أن يبتسم متذكراً الصفحات التي دونها الرسام التعبيري النمساوي الشهير «اوسكار كوكوشكا Oskar Kokoschka» والتي يروي فيها تفاصيل رحلته البحرية في البحر الأبيض المتوسط : [في البداية هاجمتنا براغيث «مرسيليا» (...). ثم تبعتها وحدات مدربة من البراغيث في كل من المغرب و«أوران» والعاصمة الجزائرية و«بون». أما البراغيث المصرية فهي من نوع خاص، فصيلة قد تطورت مع فصيلة القطط في سالف الزمان. ويزعم البعض أن براغيث القطط لا تهاجم بني البشر، بيد أن ذلك ليس صحيحاً بالمرة...] (نقلاً عن كتاب «أوهام من الماضي، عيد الفصح في قبرص *Mirages du passé. Paques à Chypre*»).

وقد سلكت هذا الممر زحفاً على البطن أحياناً ومشياً على اليدين والقدمين أحياناً أخرى. أما المقبرة الأولى التي دخلتها فكانت لا تحمل أي نصوص تشير إلى اسم صاحبها (وقد ادركت فيما بعد أنها تفضي أيضاً إلى مقبرة أخرى باسم «ميري-رع Meryre») وكذلك الحال بالنسبة للمقبرة المجاورة التي لا تحمل جدرانها المنحوتة بعناية في الصخر

أثراً لأية زخارف. ولكنها ربما كانت – نظراً للموقع الذي تشغله – مقبرة الضابط البحري «رش» الذي ورد ذكره آنفاً. وفي المقابل، نرى إلى اليسار نقوشاً بارزة ونصوصاً تختفي خلف الأنقاض. وبعد الفحص والمعاينة اتضح أن صاحب هذه المقبرة هو "رئيس مخزن الغلال المزدوج" المدعو «ميري-سخمت Mery–Sekhmet» الذي ينتمي كذلك إلى الأسرة الثامنة عشرة. يالها من مقبرة رائعة لشخصية بارزة لم يلتفت إليها أحد من قبل! وأخيراً نجتاز الجدار الداخلي التالي المتهدم تقريباً لنجد أنفسنا وسط مقبرة أخرى ذات جدران رائعة في حالة جيدة من الحفظ، لاتزال تحتفظ ببقايا ألوان في العديد من المواضع. إلا أن الرطوبة الناجمة عن مياه الرشح كانت قد بدأت تتلف بعض الأجزاء تاركة طبقة من الأملاح على جدار يصور زوجين أمام مائدة قرابين، ونصاً جميلاً على شكل أعمدة. وقد سبق أن التقطت صورة فوتوغرافية لذلك المنظر من الخارج عام ١٩٧٩. ويوضح لنا النص أننا في حضرة المستشار (وهو ما يشبه وزير المالية) «نحسي Nehesy» وزوجته اللذين عاشا في فترة متأخرة من الأسرة الثامنة عشرة. وبعد نسخ ودراسة الألقاب التي ينتحلها صاحب المقبرة، اتضح لنا أننا بصدد شخصية بارزة رفيعة المقام تم دمجها بصورة عامة بفترة حكم الملكة «حتشبسوت».

وعلى هذا النحو اكتشفت في أقل من ساعة أربع مقابر جديدة، اثنتين منها تبدوان على قدر بالغ من الأهمية سواء من حيث زخارفهما أو من حيث شخصية صاحبيهما. وعلى مدى السنوات التالية، دفعتني دواعي العمل إلى اصطحاب بعض الزوار في تلك الزيارات الزاحفة التي ألفتها وأصبحت محببة إلى نفسي. وعلى الرغم من عدم إلمامهم الواسع بتاريخ مصر القديمة، وتأففهم من الأتربة والبراغيث الشرسة أحياناً الموجودة في تلك الأماكن، فقد شعر جميع الزوار – على ما اعتقد – بتلك اللذة الحقيقية التي يتعذر تعريفها وهم يتبينون رويداً رويداً تحت أشعة المصباح وجوهاً وصوراً يلفها الغموض في البداية قبل أن تتجلى في وضوح تام. أما السر وراء انفعالهم وتأثرهم فيكمن في ذلك الأمر الجوهري في النفس البشرية الذي يمكن أن نطلق عليه روح الاكتشاف أو الاستكشاف. علماً بأنه نظراً للعديد من الأسباب التي

سقناها في مقدمة هذا الكتاب، تمثل المقابر المصرية القديمة نطاقاً مثالياً لإشباع هذه الروح وإرضاء ذلك الميل.

وقد عكفت خلال شهري يناير وفبراير من عام ١٩٨٠ على إعداد الدراسة التمهيدية لتلك المقابر الجديدة، والتردد بانتظام على مقبرة «عبريا». وفي تلك الأثناء كنت لا أزال أنتظر موافقة هيئة الآثار المصرية على الطلب الذي تقدمت به. ثم جاءت اللحظة الحاسمة في الأول من شهر مارس عندما علمت أخيراً بالموافقة على طلبي. ترى هل يستحق ذلك حقيقة كل هذا الجهد والعناء ؟ وسرعان ما جاءتني الإجابة على هذا السؤال البديهي. بيد أن الوقت كان قد أزف، وكان يتوجب عليّ إرجاء بداية العمل إلى موسم الخريف التالي.

الفصل الثاني
مطاردة كبير الوزراء
(١٩٨٠ - ١٩٨٧)

موسم الحفائر الأول

بدأت أعمال التنقيب في التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٨٠. يا له من يوم مشهود ولحظات لا تُنسى عندما وقفت في ذلك الصباح أمام مدخل المقبرة ومن حولي عدد من العمال يقودهم الريّس محمد شحات ! عندئذ تبخرت في غمضة عين ذكرى الأشهر الطويلة والسنوات التي تعيَّن عليَّ خلالها اقناع المسئولين، واستخراج التصاريح اللازمة وإثبات جدوى ذلك المشروع الجديد. ثم انطلقت أول ضربة فأس لتنال من ذلك الجدار الرملي الذي كنا نقف أمامه. وكان يحدوني اليقين في أن الحفائر قد تستغرق وقتاً طويلاً، وسيتمخض عنها بكل تأكيد نتائج هامة ومثمرة. وكان ذلك الإقتناع وليد الدراسة الدقيقة والواعية للملف، وكذا الأشهر التي راح المشروع يتبلور خلالها ويأخذ شكل الحلم والخيال الذي يُعد مقدمة لا غنى عنها لكافة الأعمال والمشاريع الإنسانية.

ولكن أنَّى لي أن أتخيل.حينذاك مدي الوقت والعراقيل الذي سيمثله هذا المشروع، حتى وإن كنت أعلم إجمالاً الشيء الذي أبحث عنه ؟ أجل، كيف كان يمكنني التنبوء بالمستويات المتعددة، والطرق المختصرة، والآبار غير الثابتة، وهنالك في أحشاء المقبرة حالة الأثاث الجنائزي لـ"عبريا" وزوجته الذي أمضيت ثمانية أعوام قبل الوصول إليه، والذي كان يمثل الهدف الأسمي وغاية الغايات لذلك المشروع ؟

إلا أن الهدف كان ينصب في اللحظة الراهنة على تنقيب تلك الحجرة الأولى – "المقصورة" التي كثيراً ما ترددت عليها – بعناية فائقة، ورفع نصوصها، وقبل كل شيء حمايتها من كافة عوامل التلف التي كانت تحيق بها سواء النحر الهوائي أو مياه الرشح أو عبث الزائرين ...الخ. وسرعان ما انتهيت من إزاحة الرمال حول قطاع الباب عن طريق اتباع السياق المنهجي والمدروس الذي ينبغي أن يكون نبراساً لكل المنقبين. كم كان مبلغ انفعالي وشدة تأثري عند رؤية الباب المنحوت في الصخر، أو ما تبقى منه، يظهر تدريجياً ! على كل حال يُعد ذلك الباب إشارة رسمية للإعلان عن وجود المقبرة، وإقحامها من جديد في حقل العلم والمعرفة. إن وجود محور من البرونز لايزال في موضعه الأصلي داخل التجويف الذي كان مُثبتاً فيه المفصلة السفلية للباب الخشبي المتحرك للمقصورة يُعتبر شيئاً جديراً بالملاحظة على الرغم من بساطته، وكذا إلى جانبه بعض أجزاء من خشب الباب الذي اختفي منذ أمد بعيد.

ومن بين الاكتشافات الرمزية التي تُبشر بما سنجده بوفرة شديدة خلال موسم حفائر العام التالي، عثرنا على قطة خشبية ممددة على الرمال مستندة إلى أحد جدران المقصورة، كانت فيما مضى مغطاه بطبقة من الجص وطلاء ذهبي، ولعلها كانت تابوتاً لدفن إحدى أجنة ذلك الحيوان. ولابد أن يكون قد سقط سهواً في ذلك المكان من بين يدي أحد اللصوص أثناء فراره. كما يُعتبر ذلك تنويهاً إلى تحول هذا الموقع كذلك عقب أفول نجم الدولة الحديثة إلى جبانة شاسعة لقطط «البوباستيون» أو «أبواب القطط» كما يُطلق عليها في اللغة العربية.

وعقب الانتهاء من تنقيب الأنحاء المتاخمة للباب، لم يلبث أن جاء الدور على تدخل البَنَّاء وريِّس العمال. إذ قمنا بشراء باب حديدي ثقيل لدى أحد تجار النحاس في الجيزة، وتم تركيبه بعد تشييد جدار متين في نفس موضع المدخل الأصلي. ثم قمنا بطلاء كل ذلك بطبقة من الملاط والدهان الأصفر ليصبح مدخلاً لائقاً مقبول الشكل تماماً. عندئذ أصبح لـ«عبريا» مفتاح باسمه تم إيداعه في مركز تفتيش الآثار. وكانت

تلك بداية متواضعة لإعادة بعثه إلى الحياة من جديد ! ولكن ما أعجب ذلك الباب الموصد على مقبرة تبدو متهدمة للغاية، ويعتبرها الكثيرون مجردة تماماً من أي أهمية... !

غير أن المسألة الكبرى في بداية موسم الحفائر الأول في أواخر عام ١٩٨٠ تبقى محاولة فهم والوقوف على تاريخ هذه المقبرة بعد سقوط الأسرة الثامنة عشرة، وعلى الأخص فحص جدران "المقصورة" وزخارفها ونصوصها التي لاتزال ترزح تحت الرمال والأنقاض المتراكمة على مر القرون. وشيئاً فشيئاً أخذ الجدار الشرقي – على يمين الداخل – يتبدى لنا بكامل روعته، وكذلك بحالته السيئة جداً من الحفظ. وقد سبق أن استشففت أهمية ذلك الجدار الفريد منذ أولى زياراتي للمقبرة. إذ نرى أسفل الإفريز الذي يفصله عن السقف سلسلة من أربع لوحات يفصل بينها ما يشبه أعمدة مستطيلة ناتئة بعض الشيء عن الجدار. كانت اللوحات الثلاثة الأولى ملونة فقط، بينما اللوحة الرابعة والأخيرة منحوتة وملونة أيضاً. ويفسر لنا ذلك السر في كونها الوحيدة في حالة جيدة من الحفظ. وعلاوة على ذلك، فقد أعانني الشرح التفسيري الهيروغليفي المصاحب لها على معرفة اسمي صاحب المقبرة وزوجته منذ عام ١٩٧٦. ومن الآن فصاعداً أصبحت تلك اللوحة واضحة تماماً، وهي لا تخلو من الجمال على الرغم من كشط وطمس الجزء العلوي لصور الأشخاص. إذ نرى « عبريا » ومن خلفه زوجته « اوريا Ouriai » (وقد رُسمت أقل حجماً منه) يتلقى الماء الطهور الذي يسكبه شخص صغير ؛ بينما يقوم شخص آخر أسفل اللوحة باهدائهما قطعتين من القماش. ويُعد ذلك من المناظر الشائعة في مقابر « منف » التي ترجع إلى ذلك العهد. ولقد كان يوماً مشهوداً ولحظات لا تُنسى عندما وقعت أعيننا للمرة الأولى على الصورة الكاملة لهذين الزوجين بألوانها التي لاتزال في حالة جيدة من الحفظ، وملابس الحفلات الرسمية التي يرتديانها، وأجزاء من وجهيهما لا تزال واضحة، لاسيما ردفي ويدي زوجة « عبريا » الرقيقة والرشيقة، والتي تُعد من السمات المميزة للفن في ذلك العصر.

النصوص والمعلومات الأولى

تحتوي اللوحة الرابعة المنحوتة على الجدار الشرقي (على يمين الداخل) للحجرة الأولى على نص يتألف من أربعة عشر عموداً. وقد نُقشت العلامات الهيروغليفية بعناية، ولا تزال تحتفظ بآثار من ألوانها الأصلية. وبفضل ذلك النص تم تحديد هوية صاحب المقبرة. إذ نقرأ فيه بالفعل سلسلة متتابعة من الألقاب والصفات الفخرية تنتهي على هذا النحو (العمود السادس إبتداء من اليمين) : {رئيس المدينة وكبير الوزراء «عبريا»، العادل في غرب «منف» [و] أخته [= زوجته]، حبيبة قلبه، سيدة المنزل «اوريا»، العادلة في غرب «منف»، المفضلة عند «اونيفر Ounnefer» [اسم يُطلق على «أوزيريس»]}.

وبطبيعة الحال يتعلق الأمر — إذا جاز لنا القول — بالنصوص التفسيرية المصاحبة لرسوم تلك اللوحة التي تصور لنا كبير الوزراء تتبعه زوجته (وقد رُسمت أصغر حجماً منه). وقد كانا يختفيان بالفعل تحت الأنقاض والرمال المتراكمة التي لم تكن تسمح لنا في باديء الأمر بأن نميز سوى أعلى رأس «عبريا» الذي كان فضلاً عن ذلك مطموساً في أغلبه.

أما النص الممتد على طول الإفريز الذي يعلو لوحات ذلك الجدار الشرقي فلا يقل أهمية عن النص السابق. وقد استُخدم المداد الأسود في تلوين العلامات الهيروغليفية التي يصعب تحديد بعضها أحياناً، وإن كنا ننجح مع ذلك في قراءة النص بالكامل (إذ تمدنا النسخة التي وضعها «بتري» ببعض العلامات) : {قربان يقدمه الملك إلى «آتون» الحي، رب السماء، سيد العالَم، الذي ينير الشاطئين [أي مصر]، عند إشراقه تدب الحياة في كل رجل وفي كل امرأة ؛ لكي يمنح الخبز والماء ونفحة من روحه، (...) إلى رئيس المدينة وكبير الوزراء «عبريا»، العادل}. وبعد ذلك مباشرة تأتي الكلمات الآتية : {قام بذلك ابنه الذي يُحي اسمه، رئيس جياد [قائد العجلات الحربية] سيد الأرضين، «حوي Houy»}

وفي هذا المقام تجدر بنا الإشارة إلى عنصرين جوهريين في ذلك النص : أولاً صيغة الإهداء وتقديم القرابين للإله «آتون» — قرص الشمس الذي ترتكز من حوله عقيدة «امنحتب الرابع» الدينية — والتي تشتمل على صياغة نجدها على سبيل المثال في مقابر علية القوم في «تل العمارنة». وثانياً ذِكر اسم الإبن «حوي» الذي يوحي بأنه هو الذي دفن والده، ولعله أكمل وأتم مقبرته كذلك (قبل أن يُدفن فيها بدوره).

أما اللوحات الثلاثة الأخرى فقد تبين لنا أن أجزاءها المغمورة تحت الأنقاض كانت على نفس القدر من التلف كتلك التي كانت تبرز من خلال الرمال والفضلات. ولانزال نتبين في اللوحة الثالثة صورة الزوجين جالسين في مواجهة شخص يؤدي بعض الحركات والطقوس الشعائرية. كما نلمح بقايا أعمدة هيروغيليفة أعلى ذلك المنظر وفي نقاط متفرقة من اللوحة الثانية. ومع مرور الوقت وتوالي مواسم الحفائر، والاستعانة بمصادر متنوعة من الإضاءة نجحنا في فك رموز جزء كبير من نص اللوحة الثالثة وقراءته حرفاً حرفاً. وهو يتعلق في معظمه بالألقاب المنوطة بـ«عبريا»، وبعضها على قدر كبير من الأهمية نظراً لأنها توضح لنا بالتحديد الدور الذي كان يلعبه. ونقرأ فيما نقرأ أن «عبريا» كان [الخادم الأول للإله «آتون»] (بمعنى أنه كان الكاهن الأعظم لذلك الشكل من إله الشمس الذي ركز عليه «امنحتب الرابع- اخناتون»، وكذلك ابوه «امنحتب الثالث» من قبله). وفضلاً عن ذلك، يتجلى لنا من هذا النص أن «عبريا» كان مكلفاً برعاية أبناء الملك في مرحلة الطفولة على الأقل، كما جرت العادة بالنسبة لمن على شاكلته من أصحاب المناصب العليا في الدولة. ومن هنا وهنالك يمكننا قراءة بعض مقاطع الكلمات المدونة على اللوحات التالفة، وعلى الأخص آثار لخرطوش ملكي على اللوحة الثانية : ذلك الشكل البيضاوي الذي يُوضع داخله لقب أو "الاسم الأول" (اسم التتويج) لكل واحد من الفراعنة. ومن دواعي الأسف أننا لا نميز سوى بداية ذلك الاسم مصحوباً بالعلامة الهيروغيليفة التي تصور الشمس «رع». ولا يقودنا ذلك إلى شيء نظراً لعدم كفايته : فما أكثر آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الذين يحملون أسماء تتويج تبدأ على هذا النحو ! لذا فقد تعين علينا الانتظار ثمانية أعوام قبل أن نعثر داخل المقبرة على قطع أثرية تحمل خراطيش ملكية يمكن تحديدها بصورة أفضل بكثير.

وهكذا انتهينا تدريجياً من تنقيب الحجرة الأولى، ورفع الأنقاض التي كانت تملؤها وتسدها. ومنذ تلك اللحظة أصبح في وسعنا التقدم إلى الأمام، وفهم تخطيط الحجرات التالية التي لا تمثل سوى المستوى الأول للمقبرة. وكنت قد تمكنت خلال إحدى الجولات الاستكشافية التمهيدية من المجازفة بتخطي الحجرة الأولى عن طريق فتحة ضيقة

جداً بين الأنقاض والصخور لأكتشف ما يشبه صحناً يرتكز سقفه على عمودين مربعين قد يحملان زخارف. وكان كل ذلك مدفوناً في الرمال على نحو ثلاثة أرباع ارتفاعه. وقد تعين عليّ في سبيل إحراز ذلك الاكتشاف التحول جانباً عن محور الحجرة الأولى بسبب تساقط كتلة صخرية ضخمة.

ولحسن الحظ أخذت الأمور تتضح أكثر مع تقدم أعمال الحفائر. وكانت الكتلة الصخرية المنهارة تستند على كتلة أخرى قد سبقتها في السقوط، وبملاصقتهما تم تشييد جدار رائع من الدبش مصقول بعناية ومتلاحم بملاط وردي اللون. وتشير العديد من المؤشرات إلى أن ذلك الجدار يرجع إلى الأسرة الثلاثين أو إلي بداية العصر اليوناني (القرن الرابع قبل الميلاد تقريباً). فلابد أن دلائل وعلامات التلف، بل والانهيار في بعض النقاط، كانت قد بدأت تظهر بوضوح على تلك المقبرة في ذلك الحين ؛ ومن هنا برزت الحاجة إلى تدعيم الموقع وإعادة تطويره. وبكل تأكيد لم يكن الباعث من وراء ذلك هو الحفاظ على مقبرة «عبريا» وعلى المقابر المجاورة الأخرى : فقد قام اللصوص "بزيارتها" منذ أمد بعيد من ناحية، وما كان المصريون القدماء ليحفلون بمصير مقبرة «عبريا» بعد انقضاء قرابة ألف عام على وفاته من ناحية أخرى. بل لعل تلك الأعمال كانت تهدف إلى صيانة الموقع وإعادة استغلاله في أغراض خاصة. إذ كان الجرف الصخري في ذلك المكان – كما سبق أن أوردنا – يتمركز حول معبد الإلهة «باستت» وملحقاته، وعلى وجه الخصوص سراديب الدفن المخصصة لاستقبال أعداد لا تحصى من مومياوات القطط المقدسة لدى الكهنة والحجاج. بيد أن تلك السراديب لم تكن في الأصل سوى مقابر الدولة الحديثة المنحوتة في الصخر، ومن بينها مقبرة «عبريا» (ومن الغريب أنه لم يُعاد استخدام الجزء الأعظم منها لذلك الغرض). وإلى كل هذا السياق التاريخي يمكننا اعزاء تلك الجدران التي ترجع إلى العصر المتأخر، وكذا التعديلات التي طرأت على المقبرة والتي ستواجهنا تباعاً كلما تقدمنا في الحفائر.

غير أن ذلك الجدار الساند الذي قررنا الإبقاء عليه نظراً لدوره الهام في دعم السقف كان ينتصب وراء الحجرة الأولى ويغير من شكل

المستوى الأول للمقبرة. ومن ثم فقد تعين علينا الانحراف عن المحور الرئيسي للحجرة والتقدم جانبياً مع احتمال العودة مرة أخرى إلى ذلك المحور فيما بعد. وهذا ما قمنا بعمله بالفعل.

رويداً رويداً قمنا بتفريغ ذلك الصحن الجانبي ذي القبة التي ترتكز على إفريز - مثل الحجرة الأولى - والذي يبلغ طوله ثمانية أمتار. بيد أن جدرانه وسقفه كانت مسوده من أثر اندلاع حريق داخل المقبرة في وقت من الأوقات. وقد نجم عن ذلك اختفاء الألوان التي كانت تزين الأفاريز والزخارف الهندسية للقبة. أما الجدران فتبدو وكأنها لم تجر زخرفتها ابداً.

وعند هذه المرحلة من مراحل التنقيب اعترضتنا مشكلتان لن نتوقف عن مواجهتهما بصورة منتظمة فيما بعد، ألا وهما : الإضاءة ومخاطر انهيار الأنقاض. فحتى ذلك الحين كنا نكتفي بالضوء الخارجي الذي كان يتسلل داخل الحجرة الأولى. إلا أنه كلما توغلنا داخل المقبرة، وكلما انحرفنا عن المحور الرئيسي، راح يتعين علينا إيجاد طريقة أخرى للاستنارة تسمح لنا بمواصلة العمل بدقة. وفي البداية كنا نستعين بوسائل مرتجلة ومؤقتة. غير أن الكهرباء أخذت تحل تدريجياً محل مصابيح الغاز والكيروسين، ومصادر الإضاءة باستخدام البطاريات الجافة أو السائلة. بيد أن ذلك لا يعني أننا توصلنا إلى حل أمثل لتلك المشكلة. فقد تزايد انقطاع التيار إما بسبب شبكة توزيع الكهرباء الرئيسية، وإما بسبب أعطال مجموعة مولدات الكهرباء التي أمدتنا بها بعض المؤسسات والشركات الصديقة. أضف إلى ذلك الحرارة الشديدة المنبعثة من لمبات الإضاءة وكشافات الإنارة التي كان يتعين الإمساك بها عن كثب داخل أماكن ضيقة، وغيرها من الأعطال المختلفة...

بيد أن مشكلة استقرار الأنقاض وثباتها، والمخاطر الناجمة عن انهيالها داخل المقبرة كانت تفوق بكثير مشكلة الإضاءة من حيث الخطورة. إذ ألفينا أنفسنا بالفعل في مواجهة ذلك الخطر الحقيقي أثناء تنقيب ما يمكن أن نسميه الجناح المركزي، أي الجزء الواقع على المحور الرئيسي للمقبرة والذي لا يمكننا بلوغة بصورة مباشرة

بسبب الجدار الذي يرجع إلى العصر المتأخر. وعلى امتداد مواسم الحفائر التالية، أخذت المصاعب الناشئة عن حالة الصخور وتهدم المقبرة تتزايد وتتفاقم.

علماً بأنه لم يكن يفصل الجناح الجانبي الذي فرغنا للتو من تنقيبه عن الجناح الرئيسي سوى عمودين مربعين في حالة سيئة جداً من الحفظ. ومنذ عام ١٩٧٩ كنت أعلم أن الواجهة الداخلية للعمود الشمالي مزدانة بالنصوص والنقوش. ومن ثم فإن تنقيب تلك الحجرة الفسيحة في الحقيقة والتي قد تكون مقسمة إلى ثلاثة أروقة يفصلها أربع ركائز، من المنتظر أن يمدنا بالمزيد من المعلومات الجديدة : صوراً أو نصوصاً أو حتى آثار لمشكاة التماثيل التي كنا نتوقع العثور عليها في الداخل على نفس محور الحجرة. بيد أن الحالة المتدهورة لكل ذلك، وتساقط الصخور، وجدران العصر المتأخر التي تسد الطريق لاتجعلنا نفرط في التفاؤل. أضف إلى ذلك وجود ثغرة هائلة في الصخر أعلى الرواق الرئيسي والرواق المفترض وجوده إلى اليمين (ناحية الشرق). وقد انهار مدخل الحجرة كله وجرف معه كميات هائلة من الأنقاض، حتى امتلأ ذلك المكان الذي يشبه المغارة تماماً بأكوام من التربة الممتزجة بالصخور المتناثرة. ولا تبعد ذروة تلك الأنقاض عن سطح الأرض، وبالتالي عن استراحة هيئة الآثار المصرية. ولعل كل شيء قد تم ردمه عند تشييدها. وعلى الرغم من ذلك كان يستوجب علينا تنقيب وإزاحة تلك الأنقاض بحذر واحتراس. ولكن على الرغم من كل ما اتخذناه من احتياطات كان من المستحيل الحيلولة دون تداعي الأنقاض التي كانت تجرف في طريقها أحياناً كتلاً صخرية ضخمة تتدحرج أمام أقدامنا وتضطرنا إلى التنحي جانباً بسرعة... ثم أخذت الأوضاع تتحسن شيئاً فشيئاً بعد ذلك. إذ قمنا ببناء جدران حاجزة باستخدام الأحجار. عندئذ تبين لنا أن التدعيمات والتقويات التي ترجع إلى العصر المتأخر قد شغلت بالفعل في وقت من الأوقات كل مساحة الرواق المركزي، ولايزال يبقى منها جزء كبير. ويشير ذلك إلى رسوخها وصلابتها بصورة أفضل مما كنا نتوقع، وكذا استحالة استكشاف كل ذلك الرواق حتى يومنا هذا.

غير أننا تمكنا على الأقل من إزاحة الأنقاض تماماً عن الركائز الغربية وعلى الأخص واجهاتها الداخلية بنقوشها ونصوصها، أو على أي حال ما تبقى منها. ودائماً ما يكون بروز النقوش والنصوص تدريجياً خارج الأرض أو الرمال من اللحظات القوية في سياق الحفائر. إذ تبرز أحرف النص واحدة تلو الأخرى، بينما نعكف على فك رموزها وقراءتها أولاً بأول. ويتملكنا الانتظار ويتقاذفنا الأمل والرجاء : فكل شيء يمكن أن يتضح فجأة، كما يمكن لصورة غير متوقعة أن تنبثق بغتة. وعلى العكس من ذلك، أحياناً أخرى تخيب الأمال أمام علامات ممسوحة أو لا يمكن قراءتها، أو صورة مطموسة المعالم، أو منظر مخيب للآمال أو تافه ومبتذل. أما في المثال الراهن، فيمكننا أن نشعر بمشاعر متباينة. إذ لايزال العمود الشمالي يحتفظ بمنظر كامل كبير الحجم يمثل كبير الوزراء نفسه بالإضافة إلى شرح هيروغليفي مصاحب. وقد صُور «عبريا» بالزي التقليدي للوزراء، حليق الرأس، يرتدي نقبة طويلة تصل حتى صدره، وحول عنقه قلادة صغيرة على شكل "ماعت Maat" - الإلهة التي تجسد العدالة والمعايير الأخلاقية - التي تمثل شعار مهام منصبه ككبير القضاة. كان ذلك المنظر مطموساً جزئياً وفي حالة سيئة جداً من الحفظ وكذا النص الهيروغليفي. وعلى الرغم من ذلك لايزال بمقدورنا قراءة أهم ما فيه. علماً بأن اسم صاحب المقبرة قد تكرر مرتين أو ثلاث مرات على هذا العمود، وإن كانت طريقة كتابته تختلف في كل مرة عن الهجاء المعتاد «عبريا Aperia» ليأخذ شكلاً أكثر تفصيلاً مثل «Aperiar» أو «Aperial» وبالتالي يُنسخ «Aper-El». كما أن عنصر «El»، وهو معبود غرب بلاد بني سام، ليس مثاراً للشك. ويعد ذلك نقطة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لفهم هذا الاسم والسياق التاريخي الذي ينبغي ادماجه فيه. وفضلاً عن ذلك، فإننا نذكر أن «پتري» سبق أن قرأ في مكان ما بالمقبرة، في المستوى الأول على أي حال، الاسم الكامل «Aper-El»، ويحق لنا أن نتساءل عما إذا كان قد شاهد هذا الهجاء بالتحديد مدوناً على العمود الشمالي. وفي هذه الحالة يتعين علينا التكهن بأن الحجرة كانت حينئذ خالية إلى حد ما، أو أنها كانت أقل ازدحاماً بالأنقاض على أي حال.

كما تزدان الواجهة الداخلية للعمود الجنوبي بالنقوش والنصوص كذلك. غير أن النصف العلوي لسطح الأحجار قد اختفى كلياً. بينما لا تسمح النوعية الرديئة للصخرة وحالتها السيئة من الحفظ سوى برؤية جزء من مناظر النصف السفلي : الأبناء يقومون بتطهير «عبريا» وزوجته، وعلى صف آخر صورة لبنات كبير الوزراء، وإهداء لإله الشمس على هيئته التقليدية لـ«رع حور أختي Re–Horakhty» (الشمس–حورس الأفق). كان من الممكن أن تكون أسماء وألقاب أفراد الأسرة المدونة على هذا العمود في غاية الأهمية بالنسبة لنا لولا اختفاء الجزء الأعظم منها للأسف الشديد. ولم يعد من الممكن التحقق من أسماء الشخصيات النسائية. ويبدو أن أحد أبناء كبير الوزراء كان يُدعى «امنمحات Amenemhat» ؛ ولعل ذلك الشكل الكامل لاسم الإبن «حوي Houy» الذي ورد ذكره في الحجرة الأولى.

وما هي إلا عدة أسابيع حتى انتهينا من تنقيب المستوى الأول للمقبرة بعناية، أو على الأقل الجزء الذي يمكن بلوغه. وسندع محاولة معرفة ماتبقى من الرواق أو الأروقة الشرقية والأعمدة المناظرة لها للحجرة الثانية عندما تسنح لنا الظروف بذلك. وربما لا يزال يمكننا رؤية آثار أخرى لنقوش أو نصوص، أو مشكاة بها بقايا تماثيل تم وضعها في ذلك المكان. كما أن انطلاق بئر من تلك النقطة ليس بالأمر المستبعد تماماً. بيد أن الجدران التي ترجع إلى العصور المتأخرة والتصدعات الهائلة في الجبل والصخور تجعل ذلك الاستكشاف عسيراً للغاية.

الطريق مغلق !

أخذت الأسابيع تتوالى، ومعها راح خفقان القلب يشتد. وسنشرع الآن في مواصلة الحفائر لنستكشف تدريجياً الحجرة أو الممر الواقع في مستوى أدنى، أسفل جدار الرواق الغربي للحجرة ذات الركائز. وقد كنت أعلم منذ عام ١٩٧٩ أن المقبرة تمتد في هذا الاتجاه ؛ وما كان ذلك ليدهشنا بما أننا نتوقع العثور على بقية للمقبرة (وبالتحديد في ذلك

القطاع إذا قارنا المقبرة مع غيرها من المقابر الأخرى). أو بعبارة أخرى جزء جنائزي بحصر المعنى، مقارنة بمستوى المدخل الذي يلعب على الأحرى دوراً شعائرياً. ونلمح بيسر قمة باب تحت الأنقاض التي تسد الرواق وتهبط في ذلك الاتجاه في شكل منحدر خفيف. وقد حاولت مرات عديدة التسلل من خلاله بيد أن الممر كان مسدوداً بالفعل، ولا يسمح سوى بمرور الرأس فقط ومصباح صغير. ولم نكن نرى سوى كتل منفصلة من صخور الجبل وكميات من الأنقاض. لذا كان يتعين إنتظار عمليات التنقيب التي أسفرت تدريجياً عن إبراز درجات سلم في آخر الرواق الأيسر. ويتبع ذلك بداية بئر عمودية مستطيلة المقطع. ولم نكن نعلم بالطبع أننا أمام وضع سيتكرر مرات عديدة خلال السنوات القادمة. ولعل البئر قد صُممت في الأصل لتكون عميقة بعض الشيء نظراً لأن الصخور تشتمل على تحزيزات وُضعت لتكون بمثابة سلم. غير أن عمق البئر لا يتجاوز متراً واحداً بالكاد. وكان هذا السلم الذي لم ينته اتمامه يفضي إلى المستوى الثاني الذي يبدو لنا كما لو كنا نهبط داخل قبو أو صومعة. وعقب دفن المتوفي أو أحد أفراد اسرته، كانت تلك البئر تُغطى بعدد من البلاطات الحجرية، ثم يُسد كل شيء ويُغلق بعناية.

لم تبدأ المصاعب الحقيقية إلا عندما أردنا اجتياز ذلك الباب ومواصلة التنقيب. ونظراً لأننا اخترقنا الجزء الجنائزي البحت، فقد انتابنا الشعور منذ تلك اللحظة بالدخول حقيقة في الصخرة، وتنقيب حجرات سفلية. ولعل ذلك الشعور ينبع كذلك من الأنقاض والرمال التي تغمر كل شيء، فضلاً عن تهدم السقف جزئياً في أعقاب اندلاع حريق. كانت الكتل والشظايا الصخرية المنفصلة وتلك التي كانت على وشك التداعي تتناثر في كل أرجاء المكان لتسد الطريق. هذا بالإضافة إلى ضيق المكان، ونقص الهواء النقي، وانتشار الأتربة. ومن ناحية أخرى أسفرت المجسة الجزئية التي قمنا بها في الأنقاض التي تسد الحجرة عن إحتوائها على توابيت خشبية في حالة رديئة من الحفظ وهياكل عظمية وأشياء أخرى مختلفة.

إن تنقيب الحجرة سيستغرق بعض الوقت. ويتعين علينا أولاً إزاحة الكتل الصخرية المنهارة من السقف حتى ولو استوجب ذلك تكسيرها للتقليل من وزنها وحجمها تمهيداً لنقلها خارج المقبرة. وفي البداية كان العمل يتم في وضع الرقود تقريباً بسبب ضيق المكان. كما ينبغي "تطهير" الجبل، أي إسقاط أجزاء السقف غير المستقرة من باب الحذر. وبعد تلك الكتل والشظايا الجيرية نجد طبقة من الرمال، يتبعها خليط من التربة الرملية وشظايا الأحجار، والرماد والخشب المحروق. وفي وسط ذلك نجد كماً من أثاث جنائزي مهشم في معظمه وفي حالة تداعي يرتبط بما سبق أن لمحناه في مدخل الحجرة. ويشمل ذلك بقايا دفنات تم إيداعها في هذا المكان في أعقاب عمليات السلب والنهب ؛ كما يمكن أن تعكس إعادة استغلال المقبرة في فترة لاحقة كما كان ذلك يحدث كثيراً، أو دفنات "متطفلة" إذا صح لنا القول. وعلى أي حال يرجع كل ذلك إلى نهاية الدولة الحديثة أو عصر الانتقال الثالث، أو نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد. بيد أن بعض القطع مثل أجزاء اللوحات الجنائزية الصغيرة والفخار والجعارين يمكن أن تكون أقدم عهداً وترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة، دون أن تكون هناك علاقة مؤكدة مع دفن «عبريا» وأفراد أسرته.

يُعتبر الكم الهائل من الأشياء التي اكتشفناها بالتتابع كلما تقدمنا في تنقيب تلك الحجرة مفاجأة حقيقية بالنسبة لنا. بيد أن حالة المومياوات ومعظم التوابيت، والقطع المصنوعة من الخوص وأجزاء برديات «كتاب الموتى» تجعل أقل معالجة باليد عملية محفوفة بالمخاطر. وقد التهمت النيران بعض القطع جزئياً أو كلياً ؛ بينما لم تتأثر القطع الأخرى سوى بالسخونة الناتجة عن الحريق أو الحرائق التي اندلعت في المقبرة وإن لم تكن أفضل حالاً بكثير من القطع الأخرى. لذلك فقد اختلطت عليّ المشاعر وأنا أتابع تفريغ الحجرة شيئاً فشيئاً. كان من المشجع بكل تأكيد التحقق من أن أحداً لم يمر بذلك المكان منذ زمن بعيد، أو على أي حال ليس في الفترة التي واكبت عمليات السلب والنهب الواسعة التي شهدتها «سقارة». بيد أن حالة الجبل والقطع المكتشفة كانت تثير العديد من المخاوف في المستقبل.

وعقب تنقيب الحجرة وتفريغها حتى المستوى الثاني اتضح لنا أنها صغيرة الحجم نسبياً (نحو ٥ متر x ٣ متر). غير أنه يتضح لنا من معاينة جدرانها أنها تمتد أبعد من ذلك وتدور بزاوية قائمة جهة اليسار، أي إجمالاً جهة الغرب وهو أمر ليس بمستغرب، بل يتوافق مع التخطيط العام لمقابر تلك الحقبة التاريخية. بيد أنني أدركت منذ بعض الوقت ومع هبوط وتناقص مستوى الأنقاض تدريجياً أن كل شيء يبدو منهاراً في الداخل في المكان الذي ينحرف فيه مسار الحجرة. كما أن ثلاث كتل صخرية ضخمة يبلغ طولها أمتار عديدة تكون حاجزاً يسد الطريق. وكانت تنتصب على كل ارتفاع الحجرة بل وفيما وراء ذلك، وربما كانت هناك كتل أخرى مختفية في التصدعات وتعلو كل ذلك. كما نجد ممراً ضيقاً أشبه بمنفذ "مدخنة" يسمح لنا على الرغم من ذلك بالاندساس والتسلل داخل ذلك المزيج المضطرب لمحاولة تكوين فكرة عما وراءه. فقط كان يتعين التسلق والزحف قليلاً لكي تقع أعيننا على مشهد ينشرح له صدر المتخصصين في استكشاف المغارات : كان الجبل متهدماً جزئياً في ذلك المكان. ونألف أنفسنا فوق مستوى السقف المتهدم، جاثمين فوق أكوام من الأنقاض. وعندما نرفع أنظارنا إلى أعلى يمكننا رؤية ما يشبه مغارة شاسعة تنتهي بقبة طبيعية، كما يمكننا الاستدلال على آثار مؤكدة للرطوبة في كل مكان لدرجة أننا نسمع تساقط قطرات الماء قطرة قطرة في موضع أو موضعين، وربما كان يأتي من استراحة كبار الزوار أو من حديقتها. نعم كان هذا المكان مدهشاً وعجيباً، ولكن بالنسبة لعالم مصريات يسعى إلى استكشاف الحجرات الجنائزية لمقبرة في « منف » ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة، كان هذا المشهد يدعو إلى القنوط وتثبيط الهمة. كيف يمكن إزاحة تلك الكومة من الأنقاض الرطبة ؟ وماذا نفعل بتلك الكتل الهائلة التي تسد كل الطرق ؟ وكيف يمكن اتقاء المزيد من الانهيارات اذا لمسنا أي شيء ؟ وحتى لو تمكنا من تفريغ كل شيء رويداً رويداً ماذا عسانا أن نأمل في العثور عليه ؟ إن الرطوبة المنتشرة في كل مكان وآثار الحرائق الماثلة خلف الأنقاض لا تدع لنا بصيصاً من الأمل. إن النتيجة المستخلصة من كل ذلك كانت بسيطة وقاسية في نفس الوقت: ينبغي أن نتوقف عن العمل لأن الطريق مسدود، ولأن المقبرة لم تعد

تحتفظ على أي حال بشيء إيجابي يذكر.

السمكة الحمراء

في أثناء تنقيب البئر الأولى التي تقع مباشرة إلى الشرق من مقبرة «عبريا»، عثرنا على انواع مختلفة من القطع التي كانت في الغالب مهشمة وممزوجة بالتربة والأنقاض. غير أن بعضها كان شبه سليم لم تمسسه يد مثل تمثالين جنائزيين صغيرين (أوشابتي ouchebtis) يرجعان إلى الدولة الحديثة. وبعد ذلك بقليل وبينما كنا نهبط في البئر بحيطة وحذر، بدت لنا قطعة أخرى. عندئذ أخذت الفرشاة تزيح النقاب شيئاً فشيئاً عن سمكة حمراء ومسطحة يبلغ طولها قرابة اثني عشر سنتيمتراً. وبالفعل كان ذلك ملعقة من العاج الملون شُكلت تماماً بزعانفها وقشرها على هيئة سمكة نيلية لونها أسمر ذهبي على الأحرى. أما الاسم العلمي الذي يُطلقه علماء المصريات على ذلك الحيوان فهو «تيلابيا نيلوتيكا tilapia nilotica» ؛ بينما يُعرف في اللغة العربية باسم سمك «البلطي». ويأتي الوجه الآخر لتلك القطعة مجوفاً ومفرغاً لكي يُستعمل كملعقة أو لوحة تضريب الألوان (باليته palette)، ويحتفظ فيه العاج بلونه الأصفر الجميل.

وتُعد تلك القطعة نموذجاً اما يُسمى (باليته) أو "مغرفة مساحيق التجميل"، والتي تُصنف في القائمة العامة لأدوات الزينة. وبعض تلك القطع الموضوعة في المقابر كان قد تم استخدامها بالفعل، بينما يُعتبر البعض الآخر نذرياً ومخصصاً للاستخدام الجنائزي. أما القطعة التي نحن بصددها، فهي في حالة رائعة من الحفظ وتشهد بطول باع الفنان الموهوب الذي شكلها لتكون قطعة فريدة في نوعها.

كثيراً ما تقترن سمكة البلطي في المفاهيم المصرية القديمة بالشمس وبفكرة (إعادة) بعث الشمس بعد الممات. وبالتالي فهي تشارك في هذا السعي الدؤوب وراء البعث في الحياة الأخرى والخلود فيها تماماً مثل المقبرة والطقوس الدينية والأثاث الجنائزي. وفضلاً عن ذلك توجد ثمة علاقة بين سمكة البلطي والرموز الوثيقة بالإلهة «حتحور» — التي تجسد الحب والإنجاب والميلاد — كما تشتمل كثيراً على تلميح ضمني للجنس والشهوة لاسيما عند اقتران السمكة بصورة فتاة شابة تسبح وتعوم. وعلى الرغم من هذا التناقض الظاهري فقط، يُعد ذلك سبباً وجيهاً لتصوير سمكة البلطي في المقبرة، ووضعها وسط الأثاث الجنائزي.

ويتضح لنا من مقارنة الملعقة المكتشفة في البئر مع غيرها من القطع المماثلة أنها ترجع بكل تأكيد إلى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، أي إلى الحقبة التاريخية التي تمثل المحور الرئيسي لما نجريه من أبحاث. كما أن وجودها في تلك الأنحاء يشهد بروعة القطع الموضوعة داخل المقابر المنحوتة في صخرة «البوباستيون»، كما يدل على علو منزلة الشخصيات المدفونة بها. ولكن ترى من أين تأتي تلك القطعة بالتحديد ؟ من أي مقبرة؟ ولماذا تُركت وسط تلك الأنقاض ؟ لم يكن بوسعي الإجابة عن تلك التساؤلات في لحظة اكتشافها. بيد أن اكتشاف الكنز الجنائزي لـ«عبريا»، وبعض المقارنات الممكنة مع القطع التي عثرنا عليها في نفس البئر عام ١٩٨٢ تبيح لي الآن الاعتقاد دون أن أجافي الحقيقة بأن سمكة البلطي كانت ضمن الأثاث الجنائزي لكبير الوزراء أو لأفراد أسرته قبل أن تسقط في ذلك المكان من بين أيدي اللصوص الذين نهبوا جزءاً من الكنز ربما عقب الدفن بفترة وجيزة.

استراحة

ليس صحيحاً تماماً أننا بلغنا طريقاً مسدوداً، أو على الأحرى لا ينطبق ذلك إلا على مقبرة «عبريا» التي تمثل بالتأكيد الهدف الأساسي لكل المشروع. ففي آخر الحجرة التي انتهينا للتو من تنقيبها يمكننا التأكد من وجود فتحة عريضة في الجدار الأيمن تسمح بالخروج من مقبرة «عبريا» والدخول بنفس الطريقة في مقبرة أخرى. وهكذا ينفسح أمامنا درب جديد في نفس اللحظة التي يبدو فيها أننا وصلنا إلى طريق مسدود. وقد علمتني مواسم الحفائر التالية أن مثل تلك "المفاجآت" يمكن أن تحدث في لحظات عسيرة أخرى...

لم يكن هذا الممر – الذي ربما كان اللصوص قد ثقبوه – في جدار الحجرة مفاجأة تامة. فعندما شرعت في تنقيب ذلك الموقع كان يساورني الحدس في أنه سينتهي بنا المطاف إن عاجلاً أو آجلاً إلى العثور على قطط «البوباستيون»، حتى وإن لم يكن ذلك الهدف الأول من وراء أبحاثنا. فكل من يلم ببعض الالمام بالمقابر المصرية القديمة وبالممارسات التي كان ينتهجها اللصوص يعلم تماماً أن الدخول في مقبرة يوشك سريعاً في لحظة من اللحظات أن يقود إلى مقابر أخرى.

ويُعد ذلك ظاهرة مؤكدة يمكن رصدها جيداً على طول امتداد وادي النيل لاسيما في مقابر «طيبه». وقد عثرنا مرات عديدة في «سقارة» على هذا النوع من شبكات الممرات المتصلة أحياناً بمحض الصدفة، وأحياناً أخرى بإرادة واعية ومتعمدة للصوص كانوا يسعون إلى زيادة رقعة عمليات السلب والنهب، أو لمن كانوا يرغبون في توسيع وإعادة استغلال هذا القطاع أو ذلك من المقابر. ناهيك عن أن تنقيب الحجرات السفلية لمقبرة هامة، أو حتى لهرم (كما هو الحال بالنسبة للهرم المدرج)، يمكن أن يقودنا عن غير قصد إلى العثور على سراديب ترجع إلى عصر سالف، أو ثقب جدار أو سقف مقبرة أخرى. وخير مثال على ذلك - وإن لم يتم دراسته بالفعل أبداً - هو جبانة الكلاب الواقعة إلى شمال موقعنا، وهي ترجع إلى العصر المتأخر وتتداخل مع ممرات وسراديب ترجع إلى الدولة القديمة. كما ينطبق نفس الوضع إلى حد ما على منطقة جبانات الحيوانات الأخرى التي تم تنقيبها بمعرفة جمعية الاستكشافات المصرية.

ومع حلول موسم الحفائر الثاني في عام ١٩٨٢ شرعنا في تنقيب ذلك القطاع الجديد والمجهول الذي لانقوى إلا على تخمينه خلف الفتحة العريضة المثقوبة في جدار حجرة مقبرة «عبريا». وفضلاً عن ذلك لم نكن نملك حرية الاختيار نظراً لأن مقبرة كبير الوزراء تبدو كأنها تفضي بنا إلى طريق مسدود. ولم نلمح في البداية سوى ركام من الأنقاض ذات طبيعة مماثلة لما قابلناه حتى الآن : خليط من التربة والرمال والشظايا الصخرية. وبدت عملية التنقيب أكثر تعقيداً من المتوقع إذ أننا ألفينا أنفسنا بدون أن نعلم داخل حلقة مفرغة : فبمجرد أن ينتهي العمال من تنقيب كمية من الأنقاض وحملها في قفف خارج المقبرة سرعان ما تحل محلها أنقاض أخرى. سيلان متواصل لا ينضب تقريباً من الأجزاء المختلفة، وسحب الأتربة التي يثيرها والضوضاء المميزة التي تصاحبه.

قطط الإلهة «باستت».

كانت الحجرات والآبار التي تم اكتشافها تدريجياً في شمال مقبرة «عبريا» إبتداء من عام ١٩٨٢ تكّون في الأصل مجموعة من المقابر مستقلة تماماً وذات طراز مماثل إلى حد ما. وكانت تطل على الواجهة الشرقية للجرف الصخري، كما كانت متوازية وتشغل إجمالاً مستويات مماثلة. غير أن عدداً من المتغيرات قد طرأ على تلك المجموعة مع بداية العصر المتأخر، كما تم حفر ممرات بين المقابر في أنحاء عديدة. وإبتداء من الأسرات الوطنية الأخيرة لاسيما في العصر البطلمي تم إعادة استغلال كل تلك المجموعة بصورة كانت ستدهش بكل تأكيد أصحاب تلك المقابر الأصليين.

وفي الواقع فقد تم اكتشاف كميات من العظام ومومياوات القطط في تلك الحجرات والآبار. عظام محروقة ومومياوات ممزقة إرباً، وأحياناً مومياوات كاملة لاتزال ملفوفة جيداً في أشرطتها. ويمكننا أن نعزو هذا الوضع الغريب إلى اللصوص الذين مروا بتلك الأنحاء بحثاً عن الأشياء الثمينة (القطط البرونزية على وجه الخصوص)، ومنتجي الأسمدة الذين كانوا يستخدمون المومياوات وخاصة عظام القطط بعد سحقها وحرقها كأساس لتجارة تدر أرباحاً وفيرة (إذ كانوا يقومون بتصديرها عن طريق البحر إلى أوروبا).

إن فحص العظام ومعاينة عدد من المومياوات يمدنا بقسط من المعلومات الهامة دائماً والمذهلة أحياناً. ويمكننا ربط بعض المعلومات بما نعرفه عامة عن الوسائل المتبعة في تحنيط الحيوانات. ونذكر على سبيل المثال الاختلاف الشاسع بين المومياوات "المتقنة" حيث نجد الحيوان كاملاً في حالة جيدة من الحفظ ؛ وبين التحنيط الرخيص والرديء حيث يقتصر الأمر على حشر بعض العظام المتباينة وغير الكاملة داخل أنسجة تأخذ الشكل الخارجي للحيوان. ولفائف أخرى خاوية استُبدلت فيها مومياء حيوان بتمثال صغير له، أو حتى بحيوان من فصيلة أخرى. علاوة على الوفرة الغزيرة في مومياوات القطط الصغيرة بل والصغيرة جداً، وفي بعض الحالات نجد أجنة حيوانية محنطة.

وتُعد تلك القطط والتوابيت الخشبية المعدة لإيواء بعض مومياواتها من العناصر الأثرية الخاصة التي تنطوي دراستها على قدر كبير من الأهمية لسببين على الأقل. إذ تُعتبر تلك القطط أولاً "قطعاً" دينية، أي أنها تمثل شواهد على تقوى وورع المصريين خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد ؛ وبصفتها هذه يمكننا أن نستدل منها الكثير حول الطقوس الجنائزية، وعبادة الآلهة من خلال أشكالها الحيوانية، والمكانة الخاصة التي كان

يحتلها الحيوان في العالَم النفسي والثقافي عند المصريين. ومن ناحية أخرى فإن تلك القطط تظل حيوانات حقيقية تسمح لنا دراستها من منظور أثري وعلم الحيوان اعتماداً على العظام و المومياوات بتسليط أضواء جديدة على تاريخ استئناس القط وتطوره التاريخي. كما تجدر بنا الإشارة في هذا المقام إلى أن أغلب القطط التي تم اكتشافها تبدو ذات شعر أصفر أشقر مخطط، ولا تختلف اطلاقاً عن مثيلاتها من القطط التي تجوب في وقتنا الحاضر شوارع القاهرة وبقية أرجاء مصر.

لا يقتصر وجود جبانات القطط على «سقارة» فحسب، وإنما تنتشر في مختلف أنحاء مصر. أما الجبانات الرئيسية فتوجد في «طيبه»، وبني حسن (أوSpeos Artemidos في مصر الوسطى)، و«منف» (سراديب دفن القطط في سقارة)، و«بوباسطيس Bubastis» (تل بسطه الواقعة في مدخل مدينة الزقازيق في شمال-شرقي القاهرة). وقد كانت هذه الجبانة الأخيرة التي لم يعد لها وجود حالياً في غاية الأهمية إذ أمدت المتاحف والمجموعات الأثرية في العالم أجمع بجزء كبير من التماثيل البرونزية الرائعة التي تصور قططاً جالسة في عظمة وجلال ؛ وبعض تلك القطع ليس سوى توابيت كانت تحتوي على مومياوات صغيرة وعظام. كذلك كانت سراديب دفن «سقارة» مصدراً لعدد من تلك النذور أو التوابيت البرونزية، والتوابيت الكبيرة المصنوعة من الأحجار أو الخشب المجصص والمذهّب.

وعلاوة على ذلك تتميز جبانة قطط البوباسطيس بوقوعها داخل المدينة الرئيسية المكرسة لعبادة الإلهة «باستت» (المعروفة باسم «بوباسطيس» في اللغة اليونانية ومنها اشتُق اسم المدينة). كانت «باستت» في الواقع معبودة هامة تمثل منذ أقدم العصور إحدى المظاهر الرئيسية للآلهات المصرية الكبيرة : ألا وهو جانب المرأة العنيفة ثائرة الحفيظة وبالتالي الخطيرة، قبل أن يهدأ روعها لتصبح مسالمة ومن ثم حامية. ومع مرور الوقت، تجسد هذان الجانبان العنيف والمسالم في إلهتين محددتين وفقاً لتفرقة سيكون من الخطأ اعتبارها جذرية : «سخمت Sekhmet» اللبوءة أو المرأة ذات رأس لبوءة من ناحية، و«باستت» المرأة ذات رأس قطة من ناحية أخرى.

وعلى هذا النحو أخذ المصريون ينظرون بعين الرضا إلى القط الذي يحرس مخازن الغلال والمنازل ضد هجمات الحيوانات القارضة، حتى اقترن في أذهانهم بفكرة الرقة واللعب والأنوثة والحب، وكذلك الخصوبة وصورة العائلة نظراً لكونه حيوان كثير النسل.

غير أن الأمور تحسنت في نهاية المطاف بعد أن ضاقت صدورنا بتلك الحركة الدائبة التي لا تنقطع. كان كل ما في الأمر أننا اصطدمنا بنظرية الأواني المستطرقة. فكل حجرة نفرغ من تنقيبها كانت متصلة بعناصر أخرى مملوءه هي الأخرى بالأنقاض وتقع على مستوى أعلى. وبالفعل كان الأمر يتعلق بسرداب ينحدر انحداراً خفيفاً وإلى جانبه مباشرة بئر جنائزية رائعة. وقد أدركنا ذلك رويداً رويداً، تماماً كما وعينا تدريجياً طبيعة المكان الضيق والمنخفض من السقف الذي كنا نتواجد فيه : إذ كان بالفعل نقطة تقاطع مقبرتين أو أكثر كما سيتضح لنا في وقت لاحق. لم تكن البئر التي تنهمر منها الأنقاض ترتبط في الأصل بالمقبرة التي شرعنا في تنقيبها. إذ يبدو المكان وكأنه ملتقى طرق يمكن أن تتفرع منه اتجاهات عديدة : السرداب، وأعلى البئر الذي أصبح فارغاً الآن، وأسفل البئر الذي لايزال مليئاً بالأنقاض. حتى الأرضية التي كنا نقف عليها كشفت لنا فيما بعد عن بداية بئر أخرى. نعم، لم يكن الموقف يفتقر إلى نكهة خاصة !

لن اخوض في هذا المقام في تفاصيل الأبحاث التي أجريتها في ربيع عام ١٩٨٢ في ذلك القطاع القريب جداً من مقبرة «عبريا» وإن لم يكن بينهما سوى علاقة غير مباشرة. فالحجرات والآبار التي أزحنا اللثام عنها تدريجياً كانت تشكل في الأصل مجموعة من المقابر مستقلة تماماً وذات طراز مماثل تقريباً. كما كانت متوازية وتشغل في الإجمال مستويات متطابقة. بيد أنه ابتداء من العصر المتأخر طرأت بعض التغيرات على هذه المجموعة التي جرى توسيعها أحياناً وشق ممرات في العديد من الأنحاء. ولما كانت مداخل ومقاصير تلك المقابر تطل على الناحية الشرقية لصخرة البوباستيون، ونظراً لعدم إمكانية بلوغها من الخارج بسبب تراكم الأنقاض ومخاطر الانهيار، فقد تحتم علينا تنقيب تلك المجموعة من أسفل إلى أعلى، أو من جوفها باتجاه المدخل، والتوقف عندما تصبح المخاطرة غير محمودة العواقب، أو عندما نتعدى الحيز المسموح لنا به.

عثرنا داخل تلك الحجرات والآبار على أعداد لا تحصى من مومياوات القطط، كان بعضها كاملاً وملفوفاً بعناية داخل الأشرطة،

بينما كان البعض الآخر مُقطعاً إرباً في حالة تدعو للرثاء : فقد مر اللصوص وخاصة منتجي الأسمدة بذلك المكان. وتمثل تلك القطط وما تبقى من القطع الجنائزية المصاحبة لها أحياناً، والتوابيت الخشبية المخصصة لاحتواء بعض المومياوات تمثل نذوراً وقرابين كرسها كهنة معبد «البوباستيون» والحجاج الأتقياء للإلهة «باستت».

كانت شبكة السراديب تمتد أمامنا أولاً بأول كلما أزحنا الأنقاض عن بعضها. كما كانت الممرات المألوفة التي حفرها اللصوص تربط بين أجزاء تلك المجموعة، علاوة على وجود آبار أخرى تختفي تحت الأنقاض وتتدفق محتوياتها فجأة داخل إحدى الحجرات التي فرغنا من تنقيبها. عندئذ يتحول ذلك إلى سيلان من الرمال والتربة المتدفقة يصاحبه ضجة شديدة يزيد من حدتها تساقط كتل حجرية ممتزجة بالأنقاض والركام. ويؤدي ذلك إلى إثارة سحابة كثيفة من الأتربة تجتاح كل الحجرة التي نتواجد فيها. وأمام ذلك المشهد المؤثر والخطير والذي لا مناص منه على الرغم من ذلك، يصبح من الأفضل الانسحاب بحذر والانتظار حتى يعم الهدوء في المكان من جديد.

زيارة «چرار دي نارڤال»

في عام ١٨٤٣ قام الكاتب الفرنسي «چرار دي نارڤال Gérard de Nerval» بزيارة للشرق، وقادته قدماه إلى مصر ليقيم بها عدة أشهر وعلى الأخص في مدينة القاهرة. وبعد العديد من التعديلات والتصحيح، نُشر كتابه الشهير «رحلة إلى الشرق *Voyage en Orient* » في عام ١٨٥١. وتطالعنا فيه صفحات رائعة تنتسب إلى آفاق الابداع الأدبي الحقيقي أكثر من انتمائها إلى المذكرات والذكريات الحقيقية. وعلى الرغم من أن نساء القاهرة وبعض المشاغل المنزلية قد استبقته وقتاً طويلاً بالعاصمة، إلا أن «نرڤال» قد تمكن من القيام بعدة جولات قصيرة لا مناص منها، والتي أفرد في سرد وقائعها صفحات طريفة تتقاطر سحراً. وعلى هذا النحو فقد ذهب إلى «سقارة» حيث قام بزيارة بعض جبانات الحيوانات :

[ما أعجب زيارة مقابر الحيوانات التي تنتشر في السهل بأعداد كبيرة. فمنها ما هو مخصص للقطط، والتماسيح وطيور أبو منجل. وندخل فيها بمشقة بالغة، ونتنفس الرماد والأتربة، ونزحف أحياناً داخل دهاليز لا يمكن

اجتيازها سوى مشياً على اليدين والقدمين. ثم نجد أنفسنا وسط سراديب فسيحة تتكدس فيها بتناسق ملايين من الحيوانات التي يتكبد المصريون الطيبون عناء تحنيطها ودفنها مثل بني البشر. وقد حُزمت كل واحدة من مومياوات القطط داخل لفائف وأشرطة عديدة دونت عليها من أولها إلى آخرها بالكتابة الهيروغليفية حياة الحيوان وفضائله على الأرجح].

ترى هل يتعلق هذا الوصف بجزء آخر من سراديب دفن القطط التي تمتد على مساحة شاسعة ؟ أما نحن فلم يحدث أبداً أن عثرنا على مومياوات ملفوفة في أشرطة تحمل نصوصاً هيروغليفية. كما لم يعثر أحد إطلاقاً على مومياوات التماسيح في «سقارة» منذ بداية الحفائر العلمية المنظمة في القرن الماضي ؛ بيد أن ذلك الكشف سيحدث بكل تأكيد في يوم من الأيام.

وفي صياغة أخرى مختلفة لتلك الفقرة تم حذفها في الطبعة النهائية للكتاب، يسوق لنا «نرفال» الملاحظات التالية :

[حينما زار أفراد الجيش الفرنسي في مصر مقابر «سقارة»، غلبتهم الدهشة أمام الأعداد المهولة من مومياوات القطط التي تزخر بها. وواتت بعض الجنود الفكرة في إشعال النيران داخل تلك السراديب لسبر أغوارها. ولما كانت مومياوات القطط متشبعة بمادة القار، فقد ظلت مشتعلة طيلة ثمانية أيام قبل أن تخمد النيران من تلقاء نفسها. وبعد انقشاع الأدخنة هبط الجنود داخل السراديب ليكتشفوا أنه وراء المساحة المترامية التي قامت النيرات بتعريتها، وخلف المواد المتفحمة التي تعين استخراجها، توجد صفوف أخرى جديدة من مومياوات القطط التي تبدو وكأنها تتحدى النيران والتخريب أن تنتصر عليها] (سلسلة البلياد La Pléiade، باريس، دار نشر جاليمار Gallimard، الجزء الثاني، ص ٢٢٧ و١٣٢٣).

ملاحظات مثيرة ! ترى هل يتعلق ذلك الوصف بالقطاع الذي بدأنا في استكشافه ؟ ما من شك في أن الحرائق قد أحدثت اضراراً جسيمة في ذلك القطاع كما في المقابر الأخرى ؛ غير أنه من الممكن أن تكون هناك أسباب أخرى من وراء اندلاع النيران مثل سقوط مشاعل عن غير قصد، أو النية المبيتة في التدمير، أو حرق محتويات المقابر بهدف إخلائها وإعادة إستغلاله، أو الطرق الهمجية والسريعة التي كان يلجأ إليها اللصوص في كافة العصور، ...الخ. على أي حال فإنه إذا كان «جرار دي نرفال» صادقاً في روايته فسيسلط ذلك أضواء على مظهر غير متوقع لأعمال قوات الحملة الفرنسية في مصر، وطريقتهم الخاصة في الاستكشاف وتقدير المسافات !

وعلى هذا النحو كان موسم حفائر عام ١٩٨٢ مثمراً للغاية على الرغم من اضطرارنا إلى الابتعاد عن مقبرة «عبريا» نفسها. أما الآن فيتعين علينا التوقف لاستعادة الأنفاس ومواصلة ترتيب ودراسة القطع الكثيرة التي تم جمعها خلال موسمي الحفائر الأولين. وعلى الأخص كان يتعين علينا وضع الرسم الهندسي للمقبرة، وإجراء عدد من التدعيمات والتقوية، وتنظيف وحماية الزخارف والنصوص وبعض القطع الهشة والتالفة. وقد تم تنفيذ كل ذلك خلال موسم الحفائر الثالث في آخر عام ١٩٨٢ وربيع عام ١٩٨٣ بالاستعانة بخبرة كل من «لينار M. Lehner» والمرمم «ميشيل ڤيتمان Michel Wuttmann».

غير أننا أحسنّا استغلال فترة توقف أعمال التنقيب مؤقتاً خلال موسم الأعمال الثالث الذي سمح لنا بالتأكيد على الهدف الأساسي من وراء المشروع برمته : ألا وهو استكشاف كل مقبرة «عبريا». هل كانت المشكلة التي اصطدمنا بها خلال الموسم السابق مأزقاً حقيقياً ؟ لم يكن استكشاف المقابر الشرقية يعني تغييراً نهائياً في مسار العمل، وإنما على العكس من ذلك إثارة نفحة جديدة من الأمل بفضل الإكتشافات التي حققناها في ذلك الموقع المضطرب، وكذا بفضل إلمامنا بصورة أفضل بطبيعة الجبل وبالمتناقضات التي ينطوي عليها.

ومن ثم فقد عقدت العزم على محاولة بلوغ غايتي المنشودة، وفي سبيل ذلك إزاحة الأنقاض المتراكمة داخل الحجرة المنهارة في المستوى الثاني على قدر المستطاع. ومع ذلك كانت الحكمة تقتضي عدم ترك الأمور على هذا الوضع العارض. وتجدر بنا الاشارة، دون التشدق بالعبارات الطنانة، إلى أن الواجب يحتم على الأثري ليس فقط تنقيب الموقع الموكل إليه وإنما أيضاً ترميمه بقدر المستطاع، وفي كافة الأحوال عرضه بطريقة مثالية. ويتعين الالتزام بذلك المبدأ في مصر على وجه خاص بسبب التصرفات التي تتسم بالإهمال والتقصير التي كثيراً ما ظلت سائدة حتى الأمس القريب. كما كان يستتر خلف قراري أمل ولو ضعيف في "العثور" في نهاية المطاف على ثمة شيء خلف أو أسفل هذا الركام المُشَعَّث من الأحجار والأنقاض الرطبة. وعندما أقول "ثمة شيء" فإنني لا أعني فقط قطعاً أثرية جديدة، وإنما

أيضاً وربما على وجه الخصوص معلومات جديدة.

كان الأمر يستلزم نقل الكتل الحجرية المنهارة خارج المقبرة، وفي سبيل ذلك كان يتحتم تكسيرها قبل ذلك إلى أجزاء صغيرة يسهل نقلها. وفضلاً عن ذلك فقد قمنا في العام الماضي بإزالة الكتلة العلوية لنسمح بتسريب الرطوبة بعض الشيء. وشاء حظنا العاثر أن تكون صخرة شديدة الصلابة للغاية على عكس الصخور الهشة المنتشرة في أماكن متفرقة من الجبل. وقد راح عاملان أو ثلاثة يتناوبون في تفتيت الكتلة الصخرية باستخدام المطارق الضخمة والأزاميل. وأحياناً كانوا ينجحون في فصل أجزاء كبيرة منها، فتغلب على الجميع نشوة الانتصار. بيد أنه غالباً ما كانت تنفصل بعض الشظايا الصغيرة فقط. فتبدو المهمة بلا نهاية. ولما كان تدخلنا يغير تدريجياً من حالة التوازن المؤقت، فقد بدأت الكتل تتدحرج إلى أسفل. ما أعجب ذلك المشهد ! ومن ثم فقد تعين علينا الإسراع في إيقاف هذا التساقط عن طريق وضع كومات مؤقتة، وقد كان في ذلك مضيعة للوقت بالتأكيد ولكنه كان أمراً لابد منه. ثم تواصل العمل خلال عدة أيام أخرى للإنتهاء من تقطيع الكتلتين. وشيئاً فشيئاً أخذت تتجلى أمام أعيننا جدران مسودة من أثر الحرائق. كما أن الحجرة التي قمنا بتنقيبها عام ١٩٨١ تمتد إذن، كما سبق أن لاحظنا، وتنحرف بزاوية قائمة باتجاه الغرب. وكان في انتظارنا التربة والرمال وخاصة الركام والأنقاض مع القليل جداً من القطع الأثرية.

وفي ختام موسم الأعمال الثالث أصبح كل شيء واضحاً، وتم عمل بعض التدعيمات الجدارية التي لا غنى عنها، وإعداد الخرائط والمقاطع، وتنظيف وحماية النقوش والجدران. كما أصبح بمقدورنا الآن استئناف أعمال الحفائر من جديد...

مواصلة الهبوط إلى أسفل

بدأ موسم الحفائر الرابع بعد ذلك بعام في ربيع ١٩٨٤، وأخذت الأبحاث اتجاهين رئيسيين : مواصلة تنقيب المستويات السفلية في

«المقابر الشرقية» من ناحية، وحتمية متابعة إزاحة أنقاض المستوى الثاني في مقبرة «عبريا» من ناحية أخرى. وقد فقدت الأمل في العثور على عناصر جديدة وهامة في ذلك المستوى بسبب الرطوبة الشديدة التي كانت تغلب على الأنقاض. ولهذا السبب بالتحديد كان لابد من محاولة تفريغ كل ذلك بغية تجفيف المحيط الهوائي المتشبع بالماء. وفضلاً عن ذلك فقد كشفت لي عمليات تنقيب «المقابر الشرقية» أن كل شيء كان ممكناً في ذلك الموقع وليس بالضرورة الأمور السيئة فقط.

وهاهي القفف الصغيرة تروح وتجيء من جديد محملة بالطفلة، أي بذلك الحطام الصخري والشظايا المتراكمة على ارتفاع العديد من الأمتار من جراء انهيار القبة الصخرية أعلى الحجرة. كان كل شيء مسوداً من أثر اندلاع حريق أو عدة حرائق فيما مضى نجم عنها تلك الانهيارات. زد على ذلك وجود كتل ضخمة جداً بصورة منتظمة كان ينبغي من جديد تكسيرها باستخدام المطارق الكبيرة. وقد تبدو تلك العمليات عبثية من حيث المظهر، ولكنها كانت لازمة من حيث الجوهر.

ولما كان الرابع عشر من شهر إبريل حدث شيء غير متوقع : إذ برز تغير في مستوى نقطة من أرضية الحجرة التي بدأت تظهر مثل درجة سلم. ترى هل يقتصر الأمر على وجود جزء أكثر انخفاضاً في الأرضية، أم أن هناك سبباً آخر ؟ كنت أتوقع على الأحرى العثور على بقية الحجرة. غير أن الأمور قد أصبحت جلية في اليوم التالي الخامس عشر من إبريل كما يتضح لنا من قراءة الأسطر التالية من دفتر الحفائر : [في نقطة ٥ (الرقم الذي يشير إلى الحجرة في مُدَوَّنة الحفائر) اشتدت الإثارة والتحفز سواء بسبب الكتل الصخرية التي ينبغي تكسيرها ونقلها خارج المقبرة، أو بسبب انتظار تطور الموقف. عند منتصف النهار تأكدنا رويداً رويداً من اكتشاف سلم (...) ظهرت منه حتى الآن خمس درجات]. وعلى هذا النحو لا تنتهي المقبرة عند هذا المستوى. ولكن إلى أين يفضي هذا السلم ؟ وفي أي حالة من الحفظ سنجد بقية المقبرة ؟ وهل هناك بقية فعلاً ؟ إذ يمكن أن تقودنا درجات السلم إلى لا شيء في حالة إذا ما كان المهندس المعماري الذي شيد المقبرة قد عدل من تخطيطها. كانت تتلاحق في رأسي العديد من

التساؤلات التي تجدد تماماً من الرؤية.

ثم جاءت الأيام التالية بالإجابة على تلك التساؤلات. فبعد درجات السلم بدأت تظهر جدران بئر جنائزية. كان الوضع مشابهاً بعض الشيء لما صادفناه في نهاية المستوى الأول. بيد أن البئر تبدو هذه المرة أشد عمقاً بكثير ؛ وبالتالي فقد استغرق تنقيبها وقتاً طويلاً... نظراً لأنه كان يتعين علينا في نفس الوقت إجراء بعض الأعمال كذلك في «مقابر القطط». وعلى الأخص لأن المصاعب التي سبق أن واجهتنا في المستوى الثاني للمقبرة تضاعفت الآن بسبب تزايد العمق وحالة البئر الرديئة. وقد اصطدمنا لفترة طويلة بالكتل الجبلية المنهارة وأجزاء الصخور والأنقاض. وكثيراً ما اضطررنا إلى تكسير وتقطيع الكتل الضخمة والثقيلة جداً وشدها إلى أعلى بواسطة الحبال لإخراجها من المقبرة.

كيف لنا أن نصف ذلك الهبوط البطيء نحو عالَم مجهول باستطاعتنا استشعار وتخيل مظهره العام عن طريق الاستدلال والمقارنة بغيره من الأماكن والمقابر ومواقع الحفائر الأخرى ؟ راحت الأيام تتابع على نفس الوتيرة تقريباً، يتخللها أحياناً بعض الاكتشافات. وكنت أقبع أسفل المقبرة بصحبة اثنين من العمال. وعقب تنقيب الأنقاض كانت تُرفع أولاً بأول في سلة من الخوص تتدلى من خطاف حديدي مربوط بحبل طويل (أو زوج من الأحبال في حالة رفع حمل ثقيل). وكان ذلك الحبل يلتف حول بكرة مثبتة على عروق خشبية أعلى البئر، حيث يقوم عاملان آخران بجذبه ورفع السلة أو الكتل الحجرية تدريجياً، وتفريغ محتوياتها في قفة أخرى يتناقلها طابور من العمال إلى خارج المقبرة. وهناك تجري غربلة الأنقاض بعناية مرة أخرى.

وكلما ازداد هبوطنا كلما بدت لنا وجوه العمال المنحنين على حافة البئر في أعلى أكثر بعداً وخيالية. وتتلاشى الأنوار بالفعل على طول جدران البئر بين ضوء اللمبة التي تنيرهم والمصباح النقَّال الذي نستخدمه أسفل المقبرة. وكثيراً ما يخيم الصمت الذي لا يعكره سوى صوت ارتطام المطارق والآلات على قطع الصخر، واحتكاك آلة المسطرين على التربة الموطدة، وصرير البكرة أثناء دورانها. وأحياناً

تخرج من فم ريّس العمال ألفاظ نابية، أو نتبادل عبارات التشجيع عند رفع كتلة ثقيلة للغاية تظل معلقة في الهواء توشك أن تهوي بقوة. كما كنا نتجاذب من وقت لآخر المزاح وتكرار الدعابات، أو نطلق العنان لبعض التأملات حول الحياة والعالَم تضفي عليها اللغة العربية مهابة خاصة. وأحياناً أخرى يرد ذكر آخر أخبار القرية، أو الارتفاع المستمر في الأسعار، أو مقارنة العوامل المناخية في كل من مصر وفرنسا، أو حتى المباريات الناجحة للاعب الكرة الفرنسي-الإيطالي الأصل « ميشيل پلاتيني Michel Platini ».

كما كان هناك الصعود والهبوط المتكرر لحسم أمر من الأمور، أو لاستقبال أحد الزوار، أو للتحدث إلى أحد الحرفيين. وعلى حسب البئر التي ننقبها كنا نلجأ إلى السلم المعدني المرن (المرن جداً)، أو الحبال الملساء، أو السلم المصنوع من الحبال الذي "يتأرجح" أكثر من اللازم أو يلتصق أكثر من اللازم بالصخر، أو أخيراً إلى السلالم المعدنية الثابتة – وهو ما يمثل قمة الرفاهية...

أمضينا ساعات وأياماً هنيئة في جوف تلك الآبار التي يهبط قاعها تدريجياً، سنتيمتراً بسنتيمتر تقريباً. ساعات تتأجج نشاطاً وترقباً في نفس الوقت. ولكن على العكس مما يعتقده عامة الناس، فإن الباعث من وراء كل ذلك والأمل الذي يراود الأثري الذي ينقب عن الآثار لا يتمثل في الرغبة في "العثور" على قطع أثرية وإنما "رؤية" شيء ما جديد، لم تسبق رؤيته من قبل، يسمح بتحقيق "فهم" أفضل و"معرفة" أكثر وأرحب. أو على الأصح "فهم" إذا كان ما سيتم اكتشافه يتماشى مع الصورة التي سبق تكوينها عنه ؛ إذا كانت الفرضية التي صاغها سوف يتم تأكيدها أم لا من خلال ذلك البزوغ البطيء للحقيقة المستترة وذلك الكشف الذي تمثله الحفائر. علماً بأن ذهن الباحث والمنقب لايتوقف بالطبع عن صياغة الفرضيات والمضاربة حتى في تلك اللحظات التي تبدو وكأن لا شيء يحدث من الناحية العلمية. ويفسر لنا ذلك أن منهج الأثري يظل دائماً وقبل كل شيء منهجاً علمياً حتى وإن شابه قدر من الخيال الذي يحفزه على محاولة تصور المجهول بفضل اتباعه لنظام متماسك من المعارف والمراجع. وهل هناك حاجة إلى التركيز على أن

الأهمية لا تتمثل في العثور على شيء بهدف أخذه والاستحواذ عليه، وإنما رؤيته ولمسه وإزاحة اللثام عنه واحتضان الاكتشاف – حسياً أومجازياً – تماماً مثلما قضينا وقتاً طويلاً في احتضان المشروع الذي نبع منه. بيد أنه من العسير شرح مثل هذا المسلك الفكري لمن ليسوا من فرسان ذلك المنهج، ولمن تحركهم الدوافع الغريزية الطبيعية في الاستحواذ والتملك المادي للأشياء وذلك على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم.

وهكذا واصلنا الهبوط في البئر. ولما لم نتمكن من الحصول حينئذ على سلم طويل من الحبال، لجأنا لفترة طويلة إلى استخدام وسائل مرتجلة ومؤقتة للهبوط والصعود : سلم خشبي أقصر من اللازم مستكملاً بالحبال الملساء. كان ذلك التدبير مثيراً للإعجاب ويشكل تمريناً رياضياً عظيماً، غير أنه لايمكننا استعماله إلى الأبد. أما الريّس والعاملان المتواجدان معي أسفل البئر فقد بدأ القلق يسيطر عليهم (مثلي أنا إلى حد مَا) بسبب ذلك الهبوط الذي لا ينتهي على امتداد صخور هشة وشبه تالفة. لذلك فقد تعين علينا تثبيت ألواح خشبية أعلى البئر لحمايتنا من الأحجار المتساقطة.

لم يكن بوسعنا الاستمرار طويلاً على هذه الحال : فسيتعين علينا في حالة إمتداد البئر أكثر من ذلك التوقف تماماً عن العمل وعمل شدات خشبية، أو على الأقل اتخاذ عدد من التدابير. وفي الثالث من شهر مايو بعد أن تجاوزنا عمق ستة أمتار، اكتشفنا ما يشبه تصدعاً أو فتحة في الجدار الغربي. وعندما مددت رأسي لرؤية ما يوجد خلف الفتحة وقعت عيناي على وحدة تبدو مترامية لدرجة أنه لا يمكننا تبين سوى جزء منها. حجرة فسيحة مملوءة بكتل منهارة من الجبل والأنقاض وكومات من الركام. كان المشهد مدهشاً على الرغم من أن الأشياء لم تكن تبدو بصورة واضحة بعد. وقد تأكدت فيما بعد أن تلك الوحدة كانت منذ الأصل متصلة بالبئر التي كنا نقوم بتنقيبها ؛ ولكن بسبب الانهيارات كنا عندئذ على نحو ما أعلى من مستوى السقف الأصلي للحجرة.

ثم تعين علينا بذل جهود كبيرة خلال عدة أيام للوقوف على جلية الأمر. وأخذنا نواصل الهبوط في احتراس متناه. ومن وقت لآخر كانت

تبرز وسط الصخور المنهارة والأنقاض عظام آدمية وأثاث جنائزي مهشم إلى حد ما وذو قيمة عالية في بعض الحالات. وربما كانت تلك الأشياء قد تركها اللصوص أثناء مغادرتهم المستوى الثالث، أو يكون قد ألقي بها من أعلى البئر قبل أن يتم ردمه. وقد عثرنا وسط تلك القطع على لوحة رائعة من الحجر الجيري تحمل نقوشاً ونصوصاً لاتزال تحتفظ بألوانها. وترجع تلك اللوحة الجنائزية إلى الأسرة الثامنة عشرة، وتصور زوجين يُدعيان على الترتيب «تيتا Tita» (أو «تيت Tit») و«تو Tou» يتقبلان إمارات البر وحب الوالدين من ابنهما المدعو «كنا Kenna». ويمكن أن ترجع تلك اللوحة – من حيث النمط – إلى عصر سابق لكبير الوزراء. بيد أن أهميتها الرئيسية تنبع في تصوير الزوجة بلون بشرة شبه سوداء مما يشير إلى أنها ربما كانت من أصل نوبي. وتُعتبر مثل تلك اللوحات نادرة جداً نظراً لأنه بصورة عامة كان الأزواج يُصورون بهيئة اصطلاحية : فترى الرجل أسمر داكن البشرة، بينما زوجته فاتحة البشرة وصفراء بعض الشيء على الأحرى، حتى إن كان في ذلك مخالفة للواقع ومجافاة للحقيقة. لذلك كان يجدر بنا الاشارة إلى صورة الزوجة «تو» حتى وإن لم تكن فريدة تماماً من نوعها.

من الآن فصاعداً راحت الحفائر تميط اللثام عن قطع أثرية مشجعة. وكان وجود (اللوحة سالفة الذكر، وتمثال صغير للإله «بتاح» من الفاينس الأزرق، ومكحلة للعينين) يشهد بإهمال لصوص العصر الحديث، وهبوطهم حتى ذلك المستوى في المقبرة دون الالتفات إلى تلك القطع. ولعل تلك الأشياء التي قد تتعلق بدفن «عبريا» أو أفراد أسرته تجعلنا نتكهن بأن كل شيء أسفل ذلك قد أصابه الخلل والتلف بصورة فظيعة.

ها نحن قد تجاوزنا عمق سبعة أمتار دون أن نصل بعد إلى قاع البئر، أو نتوصل إلى مدخل تلك الصالة الفسيحة التي لمحناها منذ عدة أيام مضت. غير أن الأمور قد اتخذت منعطفاً جديداً فجأة في الثالث عشر من شهر مايو. فمنذ بعض الوقت كنا نلمح في الغرب وجود ما يشبه أكواماً من الحصى والتربة والأنقاض المتراكمة تتابع بدون

قطع الصلة مع جدار البئر ؛ دون أن يكون هناك أي اختلاف من حيث المظهر وتركيب الأجزاء ولون الحجارة ...الخ. إلا أن هذه "السدادة" من الأنقاض لابد أن تخفي وراءها الحجرة التي لمحناها في الثالث من شهر مايو، ولعل الباب الذي كان يفضي إليها قد اختفى جارفاً معه جزءاً من جدار البئر. ولما كنا قد هبطنا في ذلك اليوم أكثر من اللازم في البئر، إذا بتلك "السدادة" تخور فجأة وتنهار وتتناثر داخل البئر والحجرة التي كانت تسد مدخلها. عندئذ ألفينا أنفسنا أمام فجوة فاغرة كانت تمثل الوحدة الفسيحة التي كنا قد لمحناها من خلال فرجة ضيقة أصبحت الآن مفتوحة عن آخرها.

كيف يسعنا وصف تلك اللحظات ؟ فمع انقشاع الأتربة المتطايرة من أثر الانهيار شيئاً فشيئاً أخذ يتبدى أمام أعيننا مشهد مذهل. كانت الصالة، أو على الأحرى المغارة، فسيحة وعميقة جداً حتى أن المصابيح تعجز بالفعل عن سبر أغوارها. كما كانت الأنقاض والحصى والكتل الصخرية تملأ كل شيء وتشكل تلالاً ومنخفضات. واختفى السقف ليحل محلة قبة طبيعية كونتها الانهيارات. ومن هنا وهنالك تبرز أجزاء من الآنية الفخارية الكبيرة والعظام. وفي مستوى أدنى على الجانبين نلمح ما يشبه آباراً مردومة كانت في حقيقة الأمر مداخل لحجرات يتعذر بلوغها. وعلى مبعدة من ذلك في آخر الصالة – دون أن نكون متأكدين تماماً من أن ذلك هو آخرها – قد تكون هناك حجرة أخرى. أما الحجرة المنهارة في المستوى الثاني وهي أصغر بكثير فتبدو تافهة مقارنة بما قمنا باكتشافه هنا.

كيف لي التعبير عن ذلك المزيج من الاثارة والإرهاق اللذين استحوذا عليّ في نفس الوقت ؟ عالَم جديد وغير متوقع تقريباً انبثق على حين بغتة. جزء لا يستهان به من المجهول يطرح نفسه أمام فضولي كباحث ومنقب. غير أن كل ذلك كان في نفس الوقت في حالة يرثى لها، منهاراً أو يوشك على التهاوي. ماذا عسانا أن نأمل ؟ إن تنقيب هذا المستوى الثالث – إن كان ذلك ممكناً – سيكلفنا بذل جهود جبارة نظراً لضعف إمكانياتنا المادية وضخامة المصاعب. ومن ثم عكفت طوال فترة طويلة على سبر أغواره بمصباحي الكهربائي دون أن

أجرؤ كثيراً على الولوج داخل هذا العالَم الجديد بسبب المخاطر البديهية التي ينطوي عليها، وكذلك بسبب الوجل والتهيب اللذين تملكاني. كان الهواء ثقيلاً وساخناً، يصعب فيه التنفس، تغشاه رائحة خاصة سبق لي استنشاقها في لحظات أخرى من الحفائر. فقد ظل الهواء محبوساً على امتداد قرون عديدة.

ثم قررت في نهاية الأمر التقدم بمصاحبة ريِّس العمال لفحص كل ذلك عن كثب. وقد كان ذلك الرجل ذو طبع مغامر جسور، يتململ منذ فترة من فرط نفاذ صبره وتحرقه للاستكشاف. ومن ثم فقد غادرنا البئر حيث تركنا اثنين من العمال المتخصصين. وسرعان ما اختفينا عن الأنظار. كنا جميعاً نتوجس خيفة. وأجزاء صغيرة من الصخور تنفصل وتتساقط بمجرد أن تحتك بها خوذة الرأس. وما حيلتنا وقد كان يتعين علينا التقدم مشياً على اليدين والقدمين أو حتى زحفاً على البطون ؟ وكم عانينا من الأحجار المدببة والقاطعة، والرائحة الكريهة النافذة وشدة القيظ ! غير أن كل ذلك كان يهون أمام ما نكتشفه. ولعل طول الحجرة كان يبلغ نحو ثمانية أمتار وعرضها ثلاثة أمتار. ومن هنا وهنالك تبرز وسط الأنقاض آنية فخارية كبيرة ترجع بوجه الاحتمال إلى عهد الدولة الحديثة. كما تنتصب ساق إحدى المومياوات باتجاه السقف الأصلي للحجرة. وعلى الجانبين يمكننا أن نلمح في مستوى أدنى وجود حجرات أخرى تبدو أصغر حجماً وفي حالة أفضل من الحفظ في بعض الأحيان. لم يكن من الممكن بلوغ جميع الحجرات ؛ أما تلك التي كان يسهل دخولها فكان من خلال ثغرات يستحيل التسلل منها بسبب طبيعة الصخور. كان هناك ثلاث حجرات على كل جانب، وحجرة أخرى في آخر الصالة الكبيرة على المحور الرئيسي. ولم يكن كل ذلك يفتقر إلى قدر من الروعة والعظمة، وإن كان يبدو في نفس الوقت ميئوساً منه من هول الاضطرابات التي تعرض لها. وكيف يمكننا في يوم من الأيام التغلب على ذلك الجبل من الأنقاض وإزاحته دون أن تنهال فوق رؤوسنا بقية الصخور التي تتماسك بالكاد فتجرف في سقوطها البئر وحتى المستوى الثاني نفسه ؟

إلا أنه في حقيقة الأمر فقد قادني توغلي حتى آخر "الصالة" إلى اكتشاف من شأنه أن يخفف بعض الشيء من نفحات التشاؤم التي تهب من مجرد التفكير العاقل الرشيد. لم تكن الحجرة الجانبية الأخيرة إلى اليمين (باتجاه الشمال إجمالاً) منهارة البتة. كان سقفها بالتأكيد مقوساً بصورة تثير المخاوف، غير أنه كان في نهاية المطاف السقف الأصلي الذي كان أفقياً مستقيماً في ذلك الحين. وقد تراكمت الأنقاض على ارتفاع معين داخل الحجرة أو على الأقل ناحية المدخل دون أن يتسبب ذلك في سده وإغلاقه. كما كانت تلك الحجرة تشتمل في مركزها على وجه الخصوص على بئر جنائزية جديدة مطمورة حتى ارتفاع نحو متر من حافتها، وعلاوة على ذلك ذات هيئة رائعة. عندئذ نسيت في غمضة عين أكوام الأنقاض والفوضى العارمة التي اجتزتها زحفاً على البطن ومشياً على اليدين والقدمين. حجرة لم تعبث بها أي يد تقريباً وخاوية دون أي أثر لوجود بئر جديدة قد تفضي إلى مستوى رابع ؛ لقد أُصبت بدوار من روعة المفاجأة ! وهكذا اتضح لنا أن عمق المقبرة وحجمها لا يستهان به. وبعد كل ما تم حتى الآن ها نحن نجد أنفسنا من جديد أمام المجهول. ولعل تلك البئر قد رُدمت في وقت من الأوقات نظراً لأنها لم تكن مملوءة بالأنقاض الناتجة عن انهيار الحجرة المحفورة بها كما كان الوضع في المستوى السابق. ويشير عدم وجود سدادتها الأصلية إلى احتمال مرور اللصوص بها ؛ وعلى الرغم من ذلك كنا نعلق الكثير من الأماني على تنقيبها.

كان يخالجني شعوران متباينان وأنا اجتاز مرة أخرى الصالة المنهارة صاعداً إلى أعلى : نشوة الاكتشاف وفرحة العثور على مدخل هذا العالَم الذي لم أكن أشك في وجوده من ناحية ؛ وإدراك جسامة – وربما استحالة – العمل الذي سيتطلبه استكشاف ذلك المستوى الثالث والمستوى التالي له. وقد كنا حينذاك نقترب من نهاية موسم الحفائر الرابع. لذلك فقد أضحى من غير الممكن اعتزام إجراء أي عمل هذا العام بخلاف التردد على تلك الأنحاء لتصويرها ومعاينتها بصورة أفضل...الخ.

مفاجآت في المستوى الثالث

أخذت السنون تتراكم وتتخللها مواسم الحفائر. ولم يبدأ الموسم الخامس إلا في ربيع العام التالي ١٩٨٥، واستمر قرابة ثلاثة أشهر. كم تغيرت ملامح المقبرة طوال هذه المدة منذ بداية الحفائر ! كانت الرؤية تتجدد والمهمة تبدو شاقة جسيمة، وتعطينا الانطباع بابتعاد غايتنا أولاً بأول بمقدار تقدمنا. وقد تعين علينا التسليم من الآن فصاعداً بأن المشروع سيكون أطول وأشق مما كنا نتخيله في البداية. وعلاوة على ذلك فقد بدأت مشكلة عمليات التدعيم والتقوية تفرض نفسها علينا بالحاح. وكان ذلك يتطلب وسائل وامكانيات تفوق ما كان في حوزتي بكثير. وأخيراً فقد ألفينا أنفسنا أكثر من ذي قبل أمام مشكلة المخاطر التي ينبغي مجابهتها والتي تمثل الثمن الذي ينبغي أن أدفعه لكي أنهي مهمتي بسلام، وأؤكد – من يدري – الفرضية التي وضعتها في البداية. غير أنني ما كنت لأعرض أناساً آخرين للخطر، وعلى وجه الخصوص الفريق الصغير الذي يعمل معي في جوف المقبرة. وبالتالي كانت دواعي الأمن تمثل شغلي الشاغل. نعم، كان ينبغي تعلم كبح جماحْ فضولنا ومضاعفة الحيطة والحذر. إن الثقة المطلقة في العناية الإلهية يمكن أن تقود معظم الناس إلى درجة من التهور وسوء تقدير العواقب. لذلك فقد كنت أتراجع أحياناً في بعض المواقف التي تبدو لي غير خطيرة. وكان ذلك لا يسهل الأمور دائماً. غير أن المباديء الرشيدة فرضت نفسها في نهاية المطاف تقريباً : إذ التزم الجميع بارتداء خوذة الرأس في القطاعات الخطيرة، وحظر القيام بأي إصلاحات كهربائية مُرَمَّقة منعاً لوقوع أي ماس أو حرائق (فقد عانت المقبرة بما فيه الكفاية من الحرائق في الماضي)، وتوخي الاحتراس في العمل والتوقف من حين لآخر لمراقبة ما قد يترتب على ذلك من نتائج، وعلى الأخص لترقب الصمت ومن ثم الإنتباه لتساقط الأحجار ورشح المياه، وضرورة عدم تكسير الكتل الصخرية الكبيرة باستخدام المطارق الضخمة لتفادي المخاطر ؛ والتوقف تماماً عن أي عمل مع الاسراع في مغادرة المكان عند اندلاع أولى بوادر الخطر...

وعلى هذا النحو تركز العمل خلال موسم حفائر عام ١٩٨٥ على البئر المؤدية إلى المستوى الثالث والصالة الفسيحة المنهارة. وقد تعين علينا أولاً تفريغ البئر من الأنقاض وبعض المحتويات الموجودة فيها أحياناً. واتضح لنا أن مجموع عمقه يفوق ثمانية أمتار. وخلال موسم الحفائر السابق كنا قد نصبنا سلماً كبيراً من الحبال على طول الجدار الشرقي. وقد اعتدنا تسلقه على الرغم من عيوبه لدرجة أننا كنا نتوقف أحياناً في منتصفه لتبادل الحديث مع الرجال الموجودين أعلى البئر أو أسفله. أما الزوار والزملاء والأصدقاء فقد كانوا يرونه بصورة مختلفة، كما كانت تتباين ردود الفعل لديهم بدرجة كبيرة. وشيئاً فشيئاً تلاشت مشاعر التوجس والخوف التي سيطرت علينا في الساعات الأولى داخل الصالة المنهارة، وانطلقنا من جديد في تعقب كبير الوزراء، وكان يبدو أننا على الطريق الصحيح.

ومن الآن فصاعداً توجب علينا حماية قمة البئر، وتسهيل مهمة العمال الذين سيقومون برفع أطنان من الأنقاض والصخور على امتداد الأشهر القادمة. وكانت بعض الكتل تنفصل أحياناً من القبة الطبيعية التي تكونت أعلى ما كان يمثل سقف الحجرة. إن تلك الأجزاء يمكن أن تصبح خطيرة على الرغم من صغر حجمها نظراً لسرعتها وتساقطها على ارتفاع يناهز عشرة أو اثني عشر متراً. وبالتالي فقد قررنا بالاتفاق مع المسئولين بالموقع تدعيم وتسقيف الحجرة الموجودة في المستوى الثاني التي تنطلق منها البئر. كما كرسنا بداية موسم الحفائر للاضطلاع بمهمتين ملحقتين أصبح من الضروري تنفيذهما. إذ تعين عمل رسم هندسي للمستوى الثالث على الحالة التي كان يبدو عليها منذ اكتشافه. وقد اغتنمنا هذه الفرصة للذهاب لرؤية بعض الحجرات الجانبية التي يمكن بلوغها بالكاد عن كثب. وإلى جانب تلك المهمة (التي انجزها «لينار») حان الوقت كذلك لعمل مسح فوتوغرافي كامل لمقبرة «عبريا» على حالتها الراهنة؛ وقد تولى المصور «الآن لكلير Alain Lecler» ذلك.

وقبل أن نغوص في أعماق مقبرة «عبريا» كان يتحتم إجراء بعض الاستكشافات في قطاع المقابر الشرقية: ألا وهو تعيين وإزاحة

الأنقاض عن مدخل إحدى تلك المقابر على الأقل التي قمنا بتنقيبها تدريجياً من الداخل منذ عام ١٩٨٢. وكان الهدف من وراء هذه العملية أثرياً وعملياً في نفس الوقت : التعرف على حالة الجرف الصخري في الشرق من ناحية ؛ وتهيئة منفذ اضافي إلى الخارج لتسهيل التهوية وإمكانية استغلاله في حالات الطوارىء من ناحية أخرى. وبفضل عمليات المسح التي أجريناها كنا نعلم بالتحديد من أين نبدأ. وهكذا ظهر لنا مدخل صغير لسرداب، لم يكن باباً حقيقياً ولكنه كان كافياً. وقد قمنا بتدعيم وتقوية المكان، وتركيب باب ذي قضبان حديدية.

بدأت المغامرة بالفعل بعد تأمين نقطة انطلاق البئر المؤدية إلى حجرات المستوى الثالث. كانت المهمة جسيمة، بل كانت تبدو شبه مستحيلة إلا إذا أفرطنا في المجازفة. وكان من الأفضل في البداية استطلاع المكان، وتوخي الحذر أثناء إزاحة أجزاء الجبل والطفلة التي تغطي الأنقاض والطبقات الأثرية في كل الصالة. ياله من عمل طويل ومُضْجِر ! كان عدد العمال قليلاً جداً بسبب ضيق المكان وعدم تجدد الهواء. إن ذكريات الحفائر التي شغلت مكانة خاصة في حياة الأثري تمتزج فيها أيضاً الأحاسيس المادية التي صاحبتها : وزن الكتل الضخمة التي ينبغي رفعها، وتفتت بعض أجزاء الصخور وتساقط البعض الآخر من "السقف"، والأحجار المدببة القاطعة.

ثم بدت لنا الصالة الكبيرة أكثر نظافة ووضوحاً بعد انتشال معظم الكتل الصغيرة وأجزاء الصخور. وأصبح بالإمكان التحرك داخلها بمزيد من اليسر والسهولة. وقمنا بتحديد قطاعات كبيرة. وبغية فهم الطبقات الجيولوجية للأنقاض و"تاريخ" المقبرة فهماً أعمق، فقد قررنا أن يقتصر تنظيف الطبقات في بادىء الأمر على جزء من الحجرة فقط. وعلى هذا النحو أخذت الأمور تتضح شيئاً فشيئاً. إذ تبين لنا على سبيل المثال وجود ركيزتين حجريتين تم نصبهما في الأصل على محور الصالة لحمل السقف. وكانت قاعدتاهما لاتزالان في مكانهما، أما عناصرهما الرئيسية المهشمة والمحروقة فمن الممكن تجميعها وإعادة تركيبها. غير أنه من دواعي الأسف أن هاتين الركيزتين لم تحولا حينئذ دون انهيار سقف الحجرة (على ارتفاع يزيد قليلاً عن مترين)

ربما في أعقاب حريق مروع. ولانزال نلمح العديد من آثار النيران، وتفحم بعض الطبقات تماماً علاوة على كافة محتوياتها.

إلا أنه على الرغم من تلك الحرائق فقد ساعد سمْك الأنقاض على حفظ بعض الطبقات الأخرى. ويأتي جزء من تلك الأنقاض من حفر الحجرات والآبار على ما يبدو، ولم تتم إزاحته أبداً. وقد عثرنا بداخلها بانتظام على عظام آدمية وآنية فخارية، وقطع جنائزية صغيرة وأجزاء من التوابيت وأقنعة التوابيت، وقصاصات من البرديات التي ترجع إلى «كتاب الموتى». ومن المحتمل أن ترجع بعض تلك الاكتشافات إلى عهد لاحق لنهاية الأسرة الثامنة عشرة.

إن أكثر القطع غرابة التي عثرنا عليها أثناء تنقيب المستوى الثالث خلال موسم حفائر ١٩٨٥ كانت رأساً من الخشب المجصص والملون لفتاة أو امرأة شابة ذات شعر قصير للغاية، بل تكاد تكون حليقة الرأس. وقد عثرنا على هذه القطعة في الرابع عشر من شهر مايو بالقرب من مدخل الحجرة على ارتفاع مسافة من الأرضية حيث كنت أعمل بمصاحبة فهمي وكمال، عاملين على جانب كبير من الخبرة والمهارة. ولم تسترع انتباهنا للوهلة الأولى. وقد كان الوجه مقلوباً والألوان ملطخة حتى كدنا في أول الأمر أن نخالها قناع تابوت. بيد أن تنظيفها في مكانها بتأن بالفرشاة قد أزاح الستار عن روعة هذه القطعة الهشة. إذ اختفى الخشب كثيراً تحت طبقة الجص التي ظلت ملتصقة في مكانها بشبه أعجوبة ومحفوظة – لحسن الحظ – على جميع الأجزاء الهامة، بينما نفذ الطين والأتربة إلى الداخل. وبعد أن تم تسجيل كل ذلك، بدأت العمليات الدقيقة "لانتشالها" ونقلها إلى الخارج عبر البئر.

تُعتبر تلك الرأس فريدة في نوعها تقريباً. أما القطعة الوحيدة المشابهه لها والتي قد ترجع إلى نفس العصر المعروفة لنا حتى الآن فقد قام «چان فيليب لوير» باكتشافها قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة في موقع «سقارة» بالتحديد. وتدلنا بقايا الشعر التي لاتزال لاصقة على الجص في قمة الرأس إلى احتمال أنها كانت مزدانة بشعر مستعار. وفي الواقع فإن ذلك الشعر المستعار لابد أنه كان يمثل

العنصر الرئيسي، وإن كان لا يمكننا الجزم بأن هذه الرأس كانت تمثل صورة حقيقية أو مثالية لصاحبتها. غير أن الشيء المؤكد على أي حال هو أننا بصدد قطعة فريدة في نوعها. وتشير العديد من القرائن إلى أنها ترجع إلى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ومن المحتمل جداً أنها كانت ضمن الأثاث الجنائزي لـ«عبريا» أو لأفراد أسرته. وبالتالي يُعد ذلك الاكتشاف على قدر عظيم من الأهمية لسببين : لقيمته الذاتية أولاً وخير دليل على ذلك هو أن تلك الرأس الساحرة تأخذ بألباب كل من يراها ؛ وثانياً لأن هذه القطعة تبرهن بصورة قاطعة على الأهمية الكبرى التي يمثلها تنقيب ذلك المستوى.

وبحلول شهر يونيو بلغنا نهاية موسم حفائر ذلك العام الذي أسفر عن العديد من الاكتشافات سواء في مدخل الحجرات الجانبية أو وسط الأنقاض وعلى سطح الصالة الكبيرة. ومن بين تلك الاكتشافات يمكننا أن نذكر عناصر رائعة من الفخار، و"صناجات جميلة" من الخشب على هيئة اليد، وقرط ذهبي. وكان كل ذلك دليلاً أكيداً على تعرض المقبرة للسرقة مرة أو مرات عديدة، غير أنه كان يتعين علينا أكثر من أي وقت مضى مواصلة التقدم على هذا الدرب. وقد انتهينا من تنقيب وتفريغ البئر وجزء من الصالة. وعلى مبعدة من ذلك تم "تنظيف" بعض الطبقات. ومن ثم فقد أغلقنا المقبرة يغمرنا إحساس بالارتياح النسبي.

ثم بدأ موسم الحفائر السادس في الواحد والثلاثين من شهر مارس عام ١٩٨٦ حيث قمنا بفتح المقبرة من جديد بعد أشهر طويلة من الغلق تتجلى في صرير الباب الذي كان يبدي شيئاً من المقاومة، ورائحة نافذة للهواء المختزن، والأتربة التي تغطي السلال المملوءة وقطع الشقف وأجزاء من الخشب العتيق. لم يكن هناك ثمة تغيير حتى المستوى الثالث. إلا أنه بمجرد إزاحة الألواح الخشبية وفتح البئر، كانت في انتظارنا صدمة بصرية وشمية في نفس الوقت. رائحة رطوبة نافذة تغشى المكان، وعندما نميل قليلاً سرعان ما ندرك أن شيئاً ما قد حدث. فقد رُدمت البئر جزئياً وامتلأت بما يشبه الطين أو الوحل الرطب، حتى يخال لنا أنها ذابت على الناحية الشمالية. فقد تسبب

تسرب هائل من الرطوبة وحتى المياه إلى تحويل جزء من الجدار إلى طين. وفي أسفل لم يعد يمكن بلوغ الباب الذي يفضي إلى الصالة الرئيسية تقريباً بعد أن "تحلل" هو الآخر تقريباً ولم يعد يمكن المرور سوى زحفاً على البطون. كل شيء يبدو في حالة من عدم الثبات المطلق. أما كل ما تم تنقيبه وإبرازه داخل الصالة الكبيرة في العام الماضي فقد رُدم من جديد.

كان المشهد مؤسفاً للغاية. فكيف لا يتملكنا الاحباط الشديد ونحن ندرك أن كل عملنا راح هباء على هذا النحو بسبب تسرب المياه من مقبرة أخرى قريبة في الشرق ووصولها إلى البئر ؟ وما عسانا أن نأمل بعد الآن ؟ وربما كان يكفي أن نلمس كل ذلك حتى تتوالى سلسلة الانهيارات. وماذا بقي من أجزاء المستوى الثالث التي لم نقم بعد بتنقيبها ؟ لعل المياه المرتشحة من السطح قد توجت الآثار الوبيلة للحرائق التي تعرضت لها المقبرة في الماضي. تلك كانت التساؤلات والخواطر التي لاحقتني في ذلك اليوم وطوال الأيام التالية بعد انقضاء الصدمة الأولى. وأمام هذا الوضع كانت نفوسنا توسوس لنا بشدة بإيقاف كل شيء، فربما كان ذلك أكثر حكمة. وعلى الرغم من ذلك شرعت في مواصلة العمل رويداً رويداً ودون حتى أن انتبه لذلك في بداية الأمر. وأخذت أدرس الموقف مع المتخصصين الموجودين بالموقع. وقد تم استخراج الطين جزئياً من البئر على ارتفاع معين، وكذا في مدخل الصالة بحيث يمكننا المرور. وأصبح الآن ارتفاع الأنقاض الرطبة يفوق بكثير ما كنا قد وجدناه من قبل عندما دخلنا تلك الحجرة للمرة الأولى. وكان مستوى الأنقاض ينحدر بشدة ويشغل نحو ثلث مساحتها. أما في نهاية الحجرة فكان كل شيء يبدو "طبيعياً" (أي غير مستقر بنفس القدر الذي كان عليه لحظة اكتشافه، ولكن على الأقل جافاً وغير رطب).

المرأة الشابة التي فقدت شعرها المستعار

تُعتبر الرأس الرائعة المصنوعة من الخشب المجصص التي تم اكتشافها في المستوى الثالث للمقبرة فريدة في نوعها تقريباً. وليس لها مثيل آخر

سوى رأس أنثوية أخرى قام باكتشافها «چان فيليب لوير» منذ قرابة خمسين عاماً في فناء المجموعة الجنائزية للملك «چسر» في «سقارة» أيضاً. وتتميز بنفس المظهر العام (رأس شبه حليقه أو شعر قصير جداً، وهيئة شابة وفتية، وقرط دائري كبير) وإن كانت هيئة وجهها أكثر بشاشة بقليل من تلك التي عُثر عليها في المقبرة. ومما هو جدير بالملاحظة أن العنق سليم تماماً، وهو أطول بكثير من الحقيقة ولم يكن مثبتاً فوق جسم خشبي بكل تأكيد. ويمكننا التكهن بأن عنق الرأس التي عُثر عليها في مقبرة «عبريا» كانت من نفس النوع.

وقد أعرب «چان فيليب لوير» حينذاك عن اعتقاده في أن الرأس التي قام باكتشافها كانت مزدانة بشعر مستعار. وجاء اكتشافنا ليؤكد صحة تلك الفرضية نظراً لأننا لانزال نلاحظ وجود خصلات شعر ملتصقة بالألوان في أماكن متعددة من الرأس، على الأرجح شعر طبيعي. وفي الواقع كان ذلك الشعر المستعار — الذي لم يعد له وجود الآن بسبب عوامل التلف — يمثل العنصر الأساسي لتلك القطعة المنحوتة الرائعة. بل كانت تلك الرؤوس في الواقع قبل أي شيء قوالب لتعليق الشعر المستعار. كما لم تكن مجرد أشياء نفعية فقط، وإنما كانت تنطوي كذلك على معاني وإيحاءات واضحة.

إذ تُعد تلك الرؤوس صوراً مثالية لفتيات في مقتبل العمر تنطوي على إيحاءات جنسية وإثارة للشهوات ؛ ونستشف ذلك من خلال بعض العلامات مثل القرط الكبير ولاسيما الشعر المستعار. وقد يتخذ تصفيف ذلك الشعر تسريحات مختلفة ومتنوعة، إلا أنه على أي حال كان كثيفاً ومنفوشاً (انظر الرسم التخيلي المصاحب الذي قد يعطينا فكرة عن هيئة الرأس عندما كانت لاتزال تحتفظ بشعرها المستعار). وقد أثبتت لنا الدراسات الحديثة الاقتران الوثيق بين الشعر المستعار أو الشعر بصورة عامة وبين الخصائص الجنسية لدى الأنثى في مصر كما في غيرها من الحضارات. لذا فقد عثرنا على بعضها داخل المقابر وسط الحلية وأدوات الزينة. وفي المثال الذي يعنينا، يمكننا التكهن بأن تلك الرأس كانت موجودة في وضع مستقيم (داخل قطعة أثاث أو سلة ؟) ؛ ويفسر لنا ذلك طول العنق الذي كان يسمح بانسدال أطراف الشعر دون التوائها.

وفي حقيقة الأمر كانت المتوفية (زوجة «عبريا») والمتوفي يرنوان — من خلال تلك الرأس — إلى تخليد الوظائف الأساسية في الحياة الدنيا وسط أسرار المقبرة والموت. ومن هنا يأتي الاهتمام بكل ما يتعلق بأمور الشهوة والاغراء. إن المتوفي الممدد داخل تابوته أصبح مثل الإله «أوزيريس» ؛ ومن ثم فسيسترد من جديد النشاط والعافية والطاقة الحيوية

التي مكنت الإله من إنجاب ابنه «حورس»، ومثلما فعلت «إيزيس» مع «أوزيريس»، فإن الأنوثة المثالية (المجسدة في الرأس) والمزدانة بكافة سمات الاغراء سوف تنحني عليه بدورها، وتجدد له وعود الخلود والأبدية. كان هذا في الواقع المغزى من وراء وجود تلك الرأس الساحرة التي فقدت شعرها المستعار.

وللمرور من البئر إلى الحجرة قمنا بتثبيت ألواح خشبية فوق الأنقاض الموحلة، كانت وظيفتها رمزية إلى حد ما بكل تأكيد، ولكنها كانت بداية لا بأس بها. ثم تم تجميع هيكل خشبي داخل البئر لدعم الجدران بصورة مؤقتة. وأخيراً تم تبطين الحجرة التي ينطلق منها البئر المؤدية إلى المستوى الرابع تماماً، ووضع دعائم خشبية لتدارك أي حادث عارض. فإن وقوع أي انهيار في ذلك الجزء يعتبر أمراً مفجعاً نظراً لأن وجود المستوى الرابع كان حافزاً منذ البداية لكل ما بذلناه من جهد ومثابرة.

وقد هيأت لي الظروف العصيبة التي مرت بنا فرصة الاتصال بأساتذة مصريين من جامعة القاهرة وبعض مديرين ومهندسين وفنيين من شركات فرنسية تعمل في مصر. وقد سعى هؤلاء من خلال زياراتهم الميدانية للموقع إلى مساعدتنا أو على الأقل إلى الوقوف إلى جانبنا. وراحوا يلتفتون إلى ما نعانيه من ضعف الإمكانيات المادية وحدة المصاعب والمشاكل التي أصبح يتعين علينا مواجهتها من الآن فصاعداً. وفي أثناء ذلك أخذ الفضول يغلب عليهم وحب المعرفة والاهتمام بهذه المقبرة التي ليس لها قاع والحافلة بالمفاجآت المتجددة. وعلى هذا النحو بدأنا نتلقى مساعدات بشرية وتقنية نفيسة للغاية.

إذ قامت شركة « CGEE Alsthom » المشاركة في تنفيذ مشروع ميناء القاهرة الجوي الجديد بتقديم العون لنا خلال موسم حفائر عام ١٩٨٦عن طريق قيامها بتعديل وتحسين التوصيلات الكهربائية داخل المقبرة. وقد كان لذلك أثر كبير من حيث تعزيز الأمن وتسهيل العمل في أعماق المقبرة.

كما توثقت العلاقات بيننا وبين شركة SGE (كبرى الشركات

الفرنسية المصرية المشتركة في مجال الانشاءات) التي تتولى تنفيذ مشروع مترو الأنفاق. وكل من عرفوا القاهرة خلال تلك السنوات التي شهدت خلالها كل منطقة وسط المدينة عمليات حفر عملاقة يتذكرون دون شك المصاعب والمشكلات الجسيمة التي واجهت تلك الشركة خلال تنفيذ شبكة مترو الأنفاق. وعلى الرغم من ذلك، فإن مديرها السيد «كلود مولان Claude Moulin » وعدداً من فريق الفنيين العاملين معه قد وجدوا متسعاً من الوقت للاهتمام بمقبرة «عبريا» وحل مشكلات الانهيارات وتدعيم جدرانها. وفي باديء الأمر فقد أمدونا على الأخص بالنصائح التقنية وبعض المعدات والآلات. وفيما بعد، قاموا بالتعاون مع الفنيين المصريين بوضع خطة شاملة للإصلاح والترميم، شارك مهندسو مترو الأنفاق الفرنسيون مباشرة في تنفيذها.

وفي غمرة المشكلات المتعلقة بالحالة الجديدة التي آلت إليها البئر والمستوى الثالث، كرسنا بعض الوقت خلال ذلك العام على الرغم من ذلك إلى تنقيب البئر المؤدية إلى المستوى الرابع. ونظراً لقيامنا بتدعيم الحجرة التي ينطلق منها البئر، فقد أصبح في وسعنا بالفعل مباشرة الاستكشاف مع الحد بشكل ملحوظ من المخاطر.

كانت طبيعة الصخور في هذه النقطة أفضل بعض الشيء، غير أن طبيعة الأنقاض جعلتنا نتقدم ببطء شديد. إذ كانت تتكون من شظايا كبيرة ناتجة عن حفر البئر نفسها أو من داخل الصالة الثالثة ؛ وفضلاً عن ذلك كنا نعثر وسطها على أثاث جنائزي مهشم وفي حالة سيئة جداً من الحفظ يرجع إلى الدولة الحديثة وكذلك إلى عهد لاحق. ولكن على أية حال أخذنا نواصل الهبوط تدريجياً. وكانت لحظات مثيرة لا تُنسى مليئة بالعمل والصبر والترقب. وكان يخالجني الإحساس بأن "اللحظة الحاسمة" لم تعد بعيدة من الآن فصاعداً. وإن كانت المؤشرات الواضحة على تعرض المقبرة لعمليات السلب والنهب التي قد ترجع إلى قديم الزمان لم تكن مشجعة.

بدأنا تنقيب البئر في الثالث من شهر مايو عام ١٩٨٦. وفي الحادي عشر من نفس الشهر ظهرت لنا فتحة في الجدار الجنوبي، تمكنت فيما بعد من التسلل من خلالها. ثم تتابعت الأحاسيس

والانفعالات الجسدية في باديء الأمر كما ورد هذا اليوم في دفتر الحفائر : [هواء قليل جداً وحار للغاية، وكثير من الذباب. تبدو الصخور صلدة ولكنها مغطاة بطبقة من العفونة المائلة إلى البياض. فوضى عارمة. ينبغي الزحف فوق شظايا الصخور المدببة والقاطعة. ما يشبه سرداباً يفضي إلى حجرة. كل شيء مقلوب رأساً على عقب ومهشم بشكل خاص إلى أجزاء صغيرة : جماجم وعظام وأجزاء خشبية، وبلاطات للغلق وفخار، وتربة ومومياوات]

استغرق تنقيب البئر عدة أيام أخرى حتى بلوغ القاع الذي يبعد عن مستوى سطح الحجرة التي حفر داخلها بمقدار ما يزيد عن ستة أقدام. ثم برزت درجتان باتجاه دهليز قد يكون متصلاً بالبئر عن طريق سلم يواصل الهبوط كما هو الحال بالنسبة لسقف الدهليز. أما الحجرة التي اكتشفناها قبل ذلك بقليل فكانت بالفعل تقع أسفل قاع البئر بكثير.

ثم توقفنا في تلك النقطة واكتفينا بمجرد التنظيف السطحي للسرداب ؛ نظراً لأن نهاية موسم الحفائر كانت قد أزفت، كما كنا منشغلين بأعمال أخرى في المستوى الثالث وفي غيره من الأماكن. وبكل تأكيد كانت المحصلة النهائية مرضية تماماً، غير أننا أغلقنا باب المقبرة في نهاية الموسم وفي ذهننا تساؤل مزدوج : ترى هل ستقع كارثة أخرى في باطن المقبرة قبل الانتهاء من تنفيذ خطة الإصلاح والترميم ؟ وذلك المستوى الرابع والأخير الذي نأمل في إمكانية بلوغه في العام القادم بدون عوائق، هل يدخر لنا خيبة أمل يمكن أن نستشفها من الاستنتاجات الأولية ؟



الفصل الثالث
الحجرة الخفية
(١٩٨٧ - ١٩٨٩)

مواصلة العمل في أساسات المقبرة

عندما بدأ موسم الحفائر السابع في شهر يناير عام ١٩٨٧ راحت مقبرة «عبريا» تبدو لي كفخ لا يمكن الفكاك منه، ولا يدع لنا أي خيار آخر سوى مواصلة العمل بلا هوادة. وقد انتهى بي الأمر إلى أن الحفائر والتحضير لها وكافة الأمور المتعلقة بها قد استحوذت على الجانب الأعظم من نشاطاتي واهتماماتي، بل وحياتي الشخصية نفسها. وكان لايزال في انتظارنا عمل منهك في المستوى الثالث للمقبرة. وقد أصبحت المخاطر جسيمة على الرغم من التزامنا بالحرص والحيطة. أضف إلى ذلك أنه كان يتعين علينا الاضطلاع بكل ذلك دون أن تفارق أذهاننا صورة تلك الحجرة الهامة بدون شك التي اكتشفناها للتو في المستوى الرابع، والتي قد تعرضت للسلب والنهب على الأرجح.

لم تفلح المصاعب ونوبات الإحباط والوهن في إخماد جذوة الثقة المتأججة في نفسي واليقين في أهمية هذا الموقع. كان الكم الهائل من النتائج التي جمعتها حتى الآن يدفعني إلى التمسك بقناعتي في صحة الفرضية التي وضعتها منذ البداية، على الأقل جزئياً. نعم كان ينبغي الاستمرار والتقدم حتى المنتهى، وبلوغ قاع المقبرة، واستكشاف المكان استكشافاً تاماً دون إغفال أي شيء. كما كان يتعين في نفس الوقت متابعة عمليات التدعيم والترميم. ومن الآن فصاعداً أصبح الشعور بالواجب والإحساس بالمسئولية تجاه الموقع هو الدافع

والمحرك لكل ذلك، يمتزج به السعي الحثيث والعِناد الذي سيطر على جميع أعضاء البعثة العاملين معي.

وبالفعل تم تكريس جزء كبير من فصلي الشتاء والربيع عام ١٩٨٧ في تنفيذ خطة شاملة لترميم البئر والمستوى الثالث وضعها خبراء شركة SGE بالتعاون مع مهندسين متخصصين من هيئة الآثار المصرية في سقارة، وإسهام بعض أساتذة كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وعلى الأخص الدكتور هاني هلال الذي لعب دوراً جوهرياً من الأول إلى الآخر.

أكاد أعجز عن إعطاء صورة واضحة وكاملة لما كان عليه العمل خلال تلك الأسابيع الطويلة حيث انشغلنا أحياناً بأمور أبعد ما تكون عن علم الآثار والمصريات لدرجة أن محاولة وصفها بصورة تفصيلية توشك أن تخرج القارئ عن موضوع هذا الكتاب. وقد قام المدير المسئول عن موقع مترو الأنفاق في القاهرة السيد «كلود مولان Claude Moulin» بوضع خطة عمل محكمة بمعاونة السيد «فرانسوا دي هارو François de Haro »، أحد كبار المتخصصين في تنفيذ الأنفاق في باريس وغيرها من المدن. كما أمدنا بما يلزمنا من معدات. وعلى هذا النحو كانت سيارات النقل تُحضر لنا بانتظام شحنات من الأسمنت والرمل (كما لو كانت سقارة تخلو من الرمال !)، وحتى الخرسانة الجافة التي تصبح جاهزة للاستخدام "بمجرد" إضافة المياه إليها، وحديد التسليح والألواح الخشبية، والعوارض والدعائم المعدنية متعددة الارتفاعات ...الخ.

ولكن ما جدوى تلك المعدات دون وجود الرجال المدربين على استخدامها ؟ لم يكن أي عضو من أعضاء البعثة يملك الخبرة الفنية اللازمة لتنفيذ تلك العمليات التقنية، حتى وإن كان ريّس الموقع والعمال المتخصصين والبنائين يمكنهم الإسهام بصورة لا يستهان بها. لذلك كان «فرانسوا دي هارو» يتردد علينا بصورة منتظمة بصحبة بنَّاء ونجَّار تابعين له لعبا دوراً لا يُقدر بثمن تحت إشراف «چان ماري اسپانيه Jean-Marie Espagnet». وللدلالة على ذلك يكفينا سؤال الرجال الذين شاركوا سواء من قريب أو بعيد في تلك المغامرة. فسيتذكرون

جميعاً بشيء من الحنين هاتين الشخصيتين الفذتين اللتين نجحتا ببشاشة وسرعة فائقة في بعث الهمة والنشاط اللازم لتنفيذ المشروع على الرغم من ظروف العمل الشاقة.

لم نكن نسعى بكل تأكيد إلى إنشاء محطة مترو الأنفاق أسفل المقبرة. بل كان الهدف "يقتصر ببساطة" على تبطين البئر بالخرسانة المسلحة، وحماية الحجرة الفسيحة الموجودة في المستوى الثالث عن طريق إضافة قبة مبنية ترتكز على حوائط عمودية مشيدة من الحجارة والأسمنت. لم يكن ذلك بالأمر الهين... نظراً لأنه – علاوة على مخاطر الانهيار الدائمة – كان يتعين علينا في نفس الوقت مواصلة الحفائر، وعمل مسح للمستوى الثالث. وكان ذلك يؤدي إلى تواجد العديد من الأشخاص، حتى ثلاث مجموعات عمل مختلفة، داخل مكان قليل الاتساع، وسط أحواض الأسمنت والحركة المستمرة، والكتل الحجرية والألواح الخشبية ؛ زد على ذلك تساقط الأحجار التي كانت تضفي مزيداً من الإثارة على جو العمل بصورة شبه منتظمة.

أسفرت الحفائر عن اكتشاف قطع كثيرة على جانب من الأهمية : أجزاء توابيت رائعة وأقنعة، وعناصر من الحلي بعضها على قدر عظيم من الجودة، وقصاصات برديات من «كتاب الموتى»، وآنية فخارية ضخمة الحجم في معظمها كانت تُستخدم في الأصل لحفظ الطعام والشراب المخصص للموتى، وعظام رفات وأجزاء مومياوات. كانت القطع المكتشفة تأتي من مصدرين مختلفين. إذ يرجع جزء منها – مثل تمثال الرأس الرائعة التي فقدت شعرها المستعار – إلى الأثاث الجنائزي لكبير الوزراء وأفراد أسرته (لاسيما أغلب الآنية الفخارية). أما باقي القطع فقد ترجع إلى دفنات تعود إلى عصر متأخر، تكاد تكون متطفلة كما جرت عليه العادة دائماً في إعادة استخدام المقابر الكبيرة مرات عديدة. ثم أسفرت عمليات السلب والنهب والحرائق عن بعثرة ذلك الخليط من القطع غير المتجانسة.

استغرقت عمليات التنقيب كثيراً من الوقت. غير أنه عند حلول صيف عام ١٩٨٧ كنا قد فرغنا من تنفيذ جزء كبير من المشروع، والتقليل من الشعور بالخوف والخطر الذي كان يخيم على كل ذلك

القطاع (وإن كنا قد تعودنا في نهاية الأمر على العمل بحرية في تلك الأنحاء).

استحوذ العمل في المستوى الثالث على جام اهتمامي، مما دفعني إلى تأجيل تنقيب المستوى الرابع والأخير إلى وقت لاحق، والاكتفاء بملاحظته والتقاط الصور الفوتوغرافية. ترى هل لايزال يحتفظ لنا ببعض المفاجآت ؟

الخرسانة والقفف الصغيرة

كثيراً ما تطرقنا خلال موسمي حفائر عام ١٩٨٦ وخاصة عام ١٩٨٧ إلى مجالات بعيدة كل البعد عن علم المصريات والآثار. إذ أخذت مشكلات تدعيم وترميم المستويات السفلية للمقبرة تفرض نفسها علينا بحدة ؛ لاسيما بعد أن تسببت كميات كبيرة من مياه الرشح المتخلفة عن المنشآت العلوية في الحاق أضرار جسيمة في المستوى الثالث والبئر التي تفضي إليه. لم يكن من الممكن أن نترك الأمور على ما هي عليه. كما لم يكن باستطاعتنا مباشرة الحفائر كما كنا نعتزم. ومما يزيد الطين بله كانت مخاطر الانهيار الجزئي والكلي تحيق بنا في كل لحظة من اللحظات.

وفي ظل تلك الظروف يندرج التدخل الحاسم للمسئولين عن تنفيذ مشروع مترو الأنفاق في القاهرة. إذ قام المهندسون والفنيون الفرنسيون والمصريون بالتعاون مع المسئولين عن الموقع وبعض المتخصصين من كلية الهندسة بجامعة القاهرة، قاموا بوضع خطة شاملة لترميم المقبرة ؛ مما سمح لنا بمواصلة الحفائر، وبالتالي اكتشاف الحجرة الجنائزية في نهاية عام ١٩٨٧.

وقد عشنا فترة لا تُنسى حيث كان الموقع يتلقى بصورة منتظمة معدات مختلفة، ويستقبل رجالاً أخذ يغلب عليهم رويداً رويداً نفس الفضول أمام تلك المقبرة التي لا نتبين لها قاعاً.

كانت المهمة في غاية البساطة من الناحية النظرية على الأقل. إذ كان يتعين عمل بطانة من الخرسانة المسلحة وتثبيتها بإحكام في الصخر في البئر المؤدية إلى المستوى الثالث والتي يزيد عمقها عن ثمانية أمتار، مع الاحتفاظ بتصميمها الأصلي. كما كان ينبغي تبطين جدران الحجرة الفسيحة في المستوى الثالث باستخدام أحجار تستند عليها قبة كبيرة من الأحجار والأسمنت. ويهدف ذلك إلى توزيع الأحمال وقوة الضغط الهائلة

للجبل بصورة متساوية على جدران الحجرة في ذلك القطاع الضعيف للغاية. لهذا الغرض قام الفنيون بتصميم شدات خشبية خصيصاً لاستخدامها كدعامات مؤقتة. عندئذ "يقتصر" الأمر على نصبها وبناء القبة عنصراً تلو الآخر.

بيد أنه كان يتعين علينا في نفس الوقت تنقيب كل ذلك، وعمل مسح هندسي، وفهم تاريخ ذلك الجزء الجوهري من المقبرة، واكتشاف محتوياته ومواصلة إستكشاف المستوى الرابع. كما كان ينبغي أن نضع في اعتبارنا كافة المصاعب والعراقيل المحلية التي تفرضها علينا طبيعة الموقع. وعلى الرغم من المظاهر الخارجية ظل الهدف من وراء تلك العمليات يتمثل في تنقيب مقبرة ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة، وليس إنشاء محطة أو ممرات لمترو الأنفاق... وعلى صعيد آخر، تحتم على أصدقائنا من شركة SGE الخضوع لقيود لم يكونوا يعتادونها دائماً. غير أنهم قاموا بذلك بطيبة خاطر. وعلى هذا النحو تم عمل الشدات الخشبية للبئر تدريجياً. وكانت الخرسانة تُجهز في الخارج ثم يتم تعبئتها داخل القفف المستخدمة عادة في الحفائر، ثم تُنقل إلى الداخل بواسطة نحو خمسة عشر عاملاً في مُعدل أبطأ بكثير — بحكم طبيعة الأمور — من وتيرة العمل في مواقع البناء الضخمة.

راحت أشهر العمل تتابع. وكان تنفيذ الكم الهائل من الأعمال يستلزم أحياناً تواجد العديد من الأشخاص في تلك الأماكن الضيقة.

كان الرديم والأنقاض تتراكم أمام مدخل الحجرة على ارتفاع أمتار عديدة. وكلما فرغنا من تنقيبها وإزاحتها كانت تلك الأنقاض تسيل أولاً بأول، كما تنهال من وقت لآخر الجدران الأصلية للحجرة نظراً لتفتتها وهشاشتها بفعل الرطوبة والحرائق.

وعلى الرغم من ذلك كنا نتقدم بصورة تدريجية. ثم شرعنا في إبراز الجدران شيئاً فشيئاً وتجهيز الأرضية لتثبيت الجدران الحديثة أو الحوائط العمودية المشيدة لحمل الجبل، لاسيما القبة التي يبلغ طولها نحو ثمانية أمتار، ويُقدر ارتفاعها بثلاثة أمتار من نقطة المركز. كما تم تنقيب الحجرات الجانبية وإعادة تكوين أبوابها بنفس أبعادها الأصلية. عندئذ أخذ الشعور بالخطر وعدم الامان الذي كان يتملكنا في ذلك القطاع يتلاشى شيئاً فشيئاً. كما راحت الأمور تتضح بينما كان لايزال يتحتم الانتظار وقتاً طويلاً قبل الانتهاء تماماً من القبة والبئر ومدخل الحجرة الفسيحة في المستوى الثالث. أما العرض النهائي فسيتطلب عدة شهور أخرى. وعلى أية حال فإن ذلك القطاع من المقبرة أصبح مختلفاً تماماً عما كان عليه عند اكتشافه واستكشافه تدريجياً.

فراغ خلف السلم

عدنا إلى الموقع من جديد في خريف عام ١٩٨٧. وكان يتحتم علينا الإسراع بقدر الإمكان في أعمال التدعيم نظراً لأن أصدقاءنا العاملين بمشروع مترو الأنفاق كانوا على وشك الانتهاء تدريجياً من تنفيذه، والرحيل إلى بلاد ومشاريع أخرى. وعلى الأخص كان يتعين علينا الانتهاء من صب الخرسانات وتشييد الجدران لتفادي وقوع أية مفاجآت مؤسفة في موسم الحفائر القادم المقرر إجراؤه في خريف عام ١٩٨٨.

ثم فُتحت المقبرة من جديد في الخامس من شهر نوفمبر. واستأنفنا في الحال تشييد الجدران الضخمة في المستوى الثالث. كذلك كان ينبغي تهيئة المخزن الذي تم بناؤه خلال فصل الربيع لوضع وترتيب القطع الأثرية المكتشفة منذ بداية الحفائر. وبينما كانت أعمال تشييد القبة تجري على قدم وساق، عزمت الأمر على استئناف تنقيب المستوى الرابع، وعلى الأخص السرداب المنحدر الذي ينطلق من البئر باتجاه الحجرة في الجنوب. وكان لابد من الناحية النظرية أن تتواصل عتبات السلم التي كنا قد بدأنا في إبرازها عام ١٩٨٦. أما الحجرة الواقعة في آخر السرداب فكانت بالفعل على مستوى أدنى بصورة واضحة، وكذلك أرضيتها وسقفها كانا لابد أن يخضعا لميل شديد ؛ وإن كانت الأنقاض التي تملأها والتي كنا نزحف فوقها تحول دون تكوين فكرة دقيقة عنها. لذلك كانت الأولوية تقتضي تنقيب تلك الأنقاض أولاً.

وعند استئناف أعمال التنقيب في الرابع عشر من شهر نوفمبر ١٩٨٧، برزت لنا عتبة جديدة بالفعل. غير أنه أبعد من ذلك بقليل لم يكن هناك أي أثر للصخور أو للجبل على عكس ما كنا نتوقع ! بل كانت الأنقاض ترزح فوق تجويف مملوء جزئياً بكتل حجرية ضخمة. كان من المنطقي أن نتوقع بعد بضعة عتبات وجود بداية بئر شديدة الانحدار تقودنا إلى مستوى أرضية السرداب ؛ أي حالة مطابقة في حقيقة الأمر

لما سبق أن رأيناه بين المستويين الأول والثاني. وستؤكد لنا الحفائر هذه النقطة، وتبرز لنا في نفس الوقت أن الأمور كانت مختلفة جداً. أولاً لأن جانبي السرداب يشهدان بوجود عتبات السلم التي كانت مهيأه فعلاً بصورة أو بأخرى. وثانياً لأنه في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر نفس ذلك اليوم، وأثناء رفع كتلة حجرية لم تتسرب الطين والطفلة أسفلها لاحظنا أن العتبة الأخيرة تبدو أنها تخفي تجويفاً ينطلق أفقياً أسفل البئر. ويُعد ذلك الممر بكل تأكيد عنصراً جديداً وغير متوقع. ترى ماذا كانت علاقته بالمقبرة ؟ بالطبع كان من المستحيل الإجابة في الحال عن تلك التساؤلات : فمواعيد العمل الصارمة بالموقع كانت تفرض علينا إغلاق المقبرة والانتظار لليوم التالي. وعلى أية حال لم يكن بالمقدور رؤية أي شيء نظراً لضيق الفجوة الموجودة أسفل العتبة وبُعْدها أكثر من اللازم.

وفي اليوم التالي تابعنا تنقيب السرداب نفسه طبقة طبقة. فما كان يجب الهبوط بعنف للتوجه لمعاينة التجويف عن كثب. ومن البديهي أن الأناة والتمهل الفطري أو المكتسب يُعد من القواعد التي يتعين اتباعها في أي بحث من الأبحاث. بيد أن الأوضاع أصبحت مختلفة تماماً الآن : إذ كان هناك ثمة شيء سنعلم عما قريب حقيقته... ألم يعودنا «عبريا» على شتى أنواع المفاجآت ؟

وفي يوم الاثنين السادس عشر من شهر نوفمبر واصلنا تنقيب السرداب. وبعد الهبوط على مساحة كبيرة، والتقاط القطع الأثرية المتنوعة والمهشمة المتناثرة في التربة والطفلة، تركنا الكتل الحجرية المبعثرة في أماكنها، وقمنا بكنس وتنظيف المكان بعناية. وفيما بعد أثناء النهار وعقب الانتهاء من الأعمال التمهيدية اللازمة، قررت الذهاب عن قرب لفحص محتويات التجويف الموجود أسفل أو على الأحرى خلف السلم. ولما كنا قد هبطنا في غضون ذلك في الأنقاض، أصبح الأمر ممكناً الآن. ومن ناحية أخرى قمت بوضع حجر على حافة التجويف للحيلولة دون استمرار تدفق الأتربة داخله. أما الآن فقد غدا بالإمكان التمدد على الأرض وتسليط العين داخله مع اضاءته بمصباح كهربائي.

في البداية تخيم الظلال على كل شيء قبل أن تأخذ العين في التعود على الضوء الخافت. وشيئاً فشيئاً نلمح حجرة كبيرة الأبعاد منحوتة بعناية وتقع بوضوح على مستوى أدنى. وأول انطباع يتبادر إلى الذهن هو رؤية "ألواح" متكدسة داخلها. ويبدو أن التلف الشديد قد أصاب كافة محتويات الحجرة التي كانت مرتبة بصورة غير واضحة، أو على أي حال مرصوصة "بنظام" ما. وهي عبارة عن أجزاء توابيت خشبية. وفضلاً عن ذلك، كان هناك غطاء تابوت كبير داكن اللون لايزال يحتفظ بقناعه الجنائزي الرائع جاسماً على ارتفاع عدة أمتار أعلى تلك الكومة. كما نلمح قطعة مستديرة وبيضاء، اتضح لنا أنها إناء من المرمر. وعلى صعيد آخر فقد أدركنا من خلال تفحص المكان بصورة أكثر دقة أن الفتحة التي ينفذ من خلالها البصر داخل الحجرة ليست تصدعاً في الصخر وإنما قمة باب. كما كان من الممكن أن نظنها عن خطأ ممراً حفره اللصوص للانتقال إلى مقبرة أخرى مجاورة كما هو الحال في المستوى الثاني على سبيل المثال. في الواقع نجد أنفسنا أمام جدار من الأحجار يسد مدخل الحجرة، ويختفي بالفعل تحت الأنقاض والطفلة على ارتفاع كبير. ومن ثم تُعد الحجرة أحد العناصر المعمارية لمقبرة «عبريا». ترى هل هي الغرفة الجنائزية التي كان يرقد فيها وربما لايزال جثمان كبير الوزراء ؟

وعقب ذلك بقليل قمت بنزع كتلتين حجريتين من قمة الجدار لتوسيع الفتحة بعض الشيء بهدف رؤية محتويات الحجرة بصورة أفضل ثم التسلل داخلها. وكانت الفتحة لاتزال ضيقة جداً، والانزلاق من خلالها شاق وعسير. ومع مرور الوقت أخذت الأنقاض الموجودة في السرداب تتدفق من خلال الفتحة لتتراكم على تلك التي كانت موجودة في مدخل الحجرة. ومن ثم كان من الممكن الانزلاق برفق على المنحدر لبلوغ الزاوية الجنوبية الشرقية للحجرة بدون مشقة كبيرة.

ما أعجب أن نجد أنفسنا فجأة داخل تلك الحجرة التي ربما كانت مغلقة منذ ثلاثة آلاف عام على الأقل، والتي لم نكن نشك في وجودها منذ بضعة أيام. لقد كانت موجودة بالفعل أسفل البئر، بينما كنا نروح ونجيء فوقها دون أن نعي.

لم يبارحني الأمل في العثور على شيء ما بكل تأكيد خلال تنقيب المستوى الرابع. ومن ناحية أخرى تملكتني دهشة شديدة لملاحظة أن السرداب والحجرة الأولى يمتدان باتجاه الجنوب ؛ في حين لا يوجد أي شيء في الناحية الشمالية أسفل المستوى الثالث نفسه. في الواقع كانت هناك بالفعل الحجرة الجنائزية الفريدة كما تبشر بذلك كافة القرائن.

عندما دخلت الحجرة للمرة الأولى أدركت تماماً أهمية هذا الاكتشاف المفاجيء. غير أنه في نفس الوقت كان المشهد الذي وقعت عليه عيناي يبعث على الحيرة والتردد. كانت الأحجار فاتحة اللون، والجدران مشيدة بعناية وتخلو من آثار النيران والحرائق. كنا نتمكن بالكاد من الوقوف في زاوية الحجرة فوق الأنقاض لشدة ما كانت تزدحم بالأثاث الجنائزي على ارتفاع ما يقرب من مترين في بعض النقاط كما يمكن أن نُخمن. بيد أن هيئة الأثاث كانت عجيبة تماماً. إذ نرى على الأخص أخشاباً وعناصر توابيت سوداء اللون في معظم الأحيان نظراً لأن بعضها كانت مغطاة بطبقة من القار كما كانت تجري العادة، بينما البعض الآخر وعدد لا يحصى من الأجزاء كانت في منتهى البداهة متفحمة إلى حد ما. كان كل شيء يبدو في غاية الضعف ومنتهى الهشاشة. وكانت بقايا زخارف بعض "الألواح" وحتى النصوص المدونة بالمداد الأصفر على خلفية سوداء تتقشر وتكاد تتلاشى.

أما غطاء التابوت وقناعه الجنائزي الذي كنا قد لمحناه من خلال الفتحة.فكان مدهشاً. إذ احتفظ الوجه ببهائه وجماله الباهر على الرغم من اختفاء العينين المصنوعتين من عجائن الزجاج التي كانت مرصعة في سالف الزمان. ولانزال نلمح بقايا زخارف ونقوش مطلية بالذهب. وفضلاً عن ذلك لاحظت وجود أجزاء صغيرة من الرقائق الذهبية المنزوعة من التوابيت وغيرها من القطع متناثرة بكثرة على الأرضية والأنقاض.

كان كل شيء يبدو هشاً لدرجة جعلتنا نتردد حتى في الانحناء ولمس أي قطعة. ولما كان المكان مزدحماً بشتى أنواع الأجزاء الصغيرة، كان من المتعذر التقدم لتبين القطع الموجودة أبعد من ذلك

بالقرب من باقي الجدران بصورة أفضل. وعلى الرغم من ذلك كان من الممكن أن نلمح من هنا وهنالك قطعاً فخَّارية من بينها بعض الآنية السليمة، وعناصر من مساند الرأس الخشبية، وبقايا نصوص. وفي أسفل وسط الأخشاب المسحوقة كنا نُخمن وجود وعاء كبير من المرمر، أو على الأحرى إناء كانوبي لحفظ الأحشاء. وقد أُلقي كل شيء بعنف بصورة متوازية إلى حد ما، وبقدر ما يتسع المكان لذلك. وعلاوة على ذلك ينتشر في كل المكان ما يشبه المزيج من الخشب المسحوق والمتفحم أحياناً، وأجزاء من الجبل المتساقطة من السقف أو الآتية من خارج الحجرة مع الأنقاض وأجزاء صغيرة من الذهب، وأنقاض ذات طبيعة غير محددة.

ثم لحق بي داخل الحجرة مفتش الآثار السيد نور الدين عبد الصمد، وإحدى أعضاء البعثة السيدة «روزلين كوتان Roseline Cottin». وانحشرنا في النقطة الوحيدة التي لا نخاطر فيها بتعريض أي شيء للتلف، وسعينا إلى إمعان النظر من خلال الثغرات الموجودة بين الألواح الأكثر قرباً وأعلى الكومة الضخمة للأشياء غير المحددة. كانت هناك قطعة صغيرة منعزلة تبدو على نحو لافت للنظر أسفل جزء من التابوت على مقربة من القناع الجنائزي الكبير. وهي عبارة عن غطاء رائع لإناء كانوبي vase canope من الحجر الجيري الرقيق يصور رأساً آدمية تعلوها ابتسامة خفيفة وعذبة. وعلى قمة الغطاء نُقشت العلامات الهيروغليفية التي تمثل اسم الإلهة «نيت Neith». يُعد هذا الغطاء تحفة حقيقية جعلتني آمل في العثور في يوم من الأيام وسط تلك الفوضى العارمة على الإناء الكانوبي نفسه والغطيان الأخرى لنفس المجموعة.

وخلال زياراتي اللاحقة للحجرة، أدركت الكم الهائل من الجهود والمصاعب التي قد ينطوي عليها تنقيب محتوياتها تنقيباً دقيقاً. كان من المستحيل الشروع في ذلك مباشرة : إذ بلغ موسم الحفائر نهايته المقررة، وكان فريق العمال لايزال منشغلاً بعمليات التدعيم في المستوى الثالث التي ستتطلب مزيداً من الوقت، وأخيراً كان ينقصني المتخصصون اللازمون لإعطاء "الاسعافات الأولية" لكل تلك القطع، وكذلك الإمكانيات الكافية. وبالتالي لم أكن في غاية الرضا لرؤية إنتهاء

موسم الحفائر قبل منتصف شهر ديسمبر بقليل. ولكنني لم أكن املك حرية الاختيار.

التوابيت والآنية الكانوبية

كثيراً ما كان المصريون القدماء يلجأون إلى وضع مومياواتهم داخل توابيت عديدة متداخلة لتوفير أكبر قدر من الحماية لها — كما كانوا يأملون — وذلك تبعاً لإمكانيات المتوفي المادية ومكانته الاجتماعية. وفي معظم الأحيان، كانت التوابيت الخشبية تأخذ شكل جسم الانسان، وتُوضع أحياناً داخل صندوق خشبي كبير على شكل مقصورة ؛ أو داخل تابوت مصنوع من كتلة حجرية واحدة مثلما كان الحال بالنسبة للفراعنة.

إن دراسة أجزاء التوابيت التي عُثر عليها، وعدد أقنعتها الجنائزية، ومقارنتها بغيرها من المقابر الهامة التي ترجع إلى نفس العصر تسمح لنا بالجزم بأن مومياوات «عبريا» وأفراد أسرته كانت كل واحدة منها محفوظة في الأصل داخل ثلاثة توابيت على شكل جسم الانسان. كما كانت المومياوات مغطاة بأقنعة ذهبية أو مُذهَّبة (عدد من العيون الكثيرة المصنوعة من عجينة الزجاج قد تأتي منها). وليس من المستبعد أن «عبريا» على الأقل كان له مقصورة خشبية كبيرة توضع داخلها التوابيت المتداخلة للمومياء. كانت زخارف كل ذلك الأثاث الجنائزي على الأحرى بسيطة من حيث مواضيعها كما جرى عليه العرف غالباً خلال عهد الأسرة الثامنة عشرة : إذ تُصور أولاً «حورس» و«تحوت» و«أنوبيس»، وشرائط من النصوص تذكر ألقاب المتوفي. غير أن كل ذلك كان يُزَيَّن بمجرد استخدام اللونين الأصفر والأسود، أو بالتكسية برقائق الذهب. وفي بعض الأحيان كان يُضاف إلى الذهب الترصيع بعجائن الزجاج، وتمائم من الحجر الصلد، وزخارف من الخشب المُقَطَّع لتعطينا تحفاً فنية.

تُعتبر الآنية الكانوبية على نحو ما تكملة لا بد منها للمومياء. كما تُعد في الواقع نظيراً للتابوت بسبب احتوائها على الأحشاء المحنطة للمتوفي. ويبلغ عددها أربعة آنية مصنوعة في الغالب من الحجر الجيري أو المرمر. وهي تُدمج بأولاد «حورس» الأربعة الذين من الممكن أن تُدون اسماؤهم عليها أو تُشكل هيأتهم على كل غطاء، وهم : «دواموتف Douamoutef» برأس حيوان ابن آوي، و«قبحسنوف Qebhsenouf» برأس صقر، و«حابي Hapi» برأس قرد، وأخيراً «أمسيت Amsit » برأس آدمي. وأحياناً أخرى ترتبط الآلهات «ايزيس» و«نفتيس Nephthys» و«سلكت

Selket» و«نيت» بالأحشاء والآنية الكانوبية. عندئذ تُشكل مع أولاد «حورس» أزواجاً وفقاً لأشكال يمكن أن تتغير. وكان العرف السائد خلال الأسرة الثامنة عشرة يقضي على الأحرى بتشكيل غطيان الآنية على هيئة رؤوس آدمية فقط تصور المتوفي بطريقة أمينة ومثالية إلى حد ما.

ومن بين المجموعات الثلاثة للآنية الكانوبية الأربعة التي تم العثور عليها في المقبرة، تُعد آنية كل من «عبريا» نفسه و«تاؤورت Taouret» جديرة بالملاحظة بوجه خاص سواء من حيث روعة النحت (لكل أو جزء من مجموعتي الغطيان)، أو من حيث وجود أسماء الآلهات مدونة على قمة الرأس. وليس من المستبعد أن تكون إحدى هاتين المجموعتين — أو ربما حتى كلتاهما — موضوعة داخل صناديق خشبية معدة خصيصاً لذلك الغرض. كما يمكن أن تنوه بذلك الأجزاء العديدة التي لم نفرغ بعد من دراستها وجمعها. وهو أمر معروف لنا ونملك أمثلة عديدة عليه. ويخضع حفظ الآنية الكانوبية لنفس فكرة التداخل التي سبقت ملاحظتها بشأن التوابيت.

كان موسم حفائر عام ١٩٨٧ بخيلاً بالعطاء بوجه خاص، غير أنه انتهى باكتشاف مدهش حافل بالنتائج. لم أكن منشرح الصدر عند إغلاق باب الحجرة والمقبرة لفترة طويلة انتظاراً لموسم الحفائر التالي. بيد أنه كان يتعين علينا تدبير الأمور على أسس جديدة آخذين بعين الإعتبار المهام التي تجابهنا. وقد طرحت مشكلة ضعف الإمكانيات المادية نفسها علينا من جديد، في حين ظلت الاعتمادات المالية الحكومية غير كافية. وقد وُفقت لحسن الحظ في الحصول بالنسبة لموسم الحفائر التالي تماماً مثل النصف الثاني من موسم العام الماضي ١٩٨٧، على دعم جديد من مؤسسة «باريبا PARISBAS» التي كانت قد حبتنا بثقتها قبل أن نبدأ فعلياً في تنقيب المستوى الرابع. لذا فقد أصبح من الطبيعي أن تشاركنا الآن ثمرة التوصل إلى ذلك الكشف. وبالمثل أعادت مؤسسة «مارتين ليون MARTINE–LYON» المبادرة التي قامت بها عام ١٩٨٥، وأسهمت في تحمل بعض نفقات موسم الحفائر الجديد.

أما الآن وبعد تدبير الاعتمادات المالية اللازمة لم يعد يبقى سوى العثور على معاونين أكفاء وعلى استعداد في نفس الوقت لمجابهة ظروف العمل الشاقة، والاضطلاع في وقت واحد بعمليات التدعيم

والتنقيب، وانتشال كافة العناصر المتشابكة للأثاث الجنائزي الهش الذي أمطنا اللثام عنه في شهر نوفمبر عام ١٩٨٧. وقد توصلت إلى حل لتلك المشكلة بفضل المساهمة النشطة إلى جانبي خلال موسم حفائر عام ١٩٨٨ لكل من : « ڤاليري لاكودر لوتن Valérie LACOUDRE-LOOTEN » و« جان باتيست لاتور Jean-Baptiste LATOUR» في الكيمياء والترميم، ورسامة الحفائر « ماري چنيڤياڤ فروادوڤو Marie-Geneviève FROIDEVAUX » من المركز القومي الفرنسي للبحوث العلمية في عمليات المسح، و« روزلين كوتان » في إدارة كل ما يتم اكتشافه من قطع، و« پيليپنكو M[≠A. PILIPENKO » (خزف)، والمهندس المعماري « فرنك دريدمي Franck DREIDEMIE » الذي خلف مارك « لينر » في إتمام الخرائط والرسوم والمقاطع للمقبرة. وأخيراً عالمة المصريات والباحثة في المركز القومي الفرنسي للبحوث العلمية « كريستيان زيڤي كوش Christiane ZIVIE-COCHE » التي امدتنا بخبرتها ومهارتها خلال جزء من موسم الحفائر مثلما فعلت مرات عديدة في الماضي.

حيوان ابن آوى والأسرى التسعة

عندما فُتحت المقبرة من جديد في الثامن من شهر أكتوبر عام ١٩٨٨، لاحظت بارتياح شديد أن كل شيء بداخلها كان على نفس الحال التي تركناه فيها. كان المحيط الجوي أسفل المقبرة متشبعاً بالرطوبة، غير أن الصخور لم تتأثر كثيراً بذلك على ما يبدو. ومع ذلك لم نكن نعتزم بداية الحفائر على الفور. إذ كان يتعين أولاً القيام ببعض الأعمال التمهيدية بعد أن يلتئم شمل جميع أعضاء البعثة. وكان ينبغي عمل تغطية فوتوغرافية منهجية للحجرة بمعاونة المصور « الآن لكلير »، والتشاور مع الكيميائيين لتحديد أفضل سبل التدعيم وإخراج الأثاث الجنائزي. وعلى صعيد آخر تولت « ماري چنيڤياڤ فروادوڤو » — إلى جانب أعمال المسح — القيام بعمل رسم منظوري لغرفة الدفن كما كانت تبدو لنا حينئذ. ويهدف ذلك إلى إبراز ما تراه العين وسط مزيج معقد غير محدد الشكل، لا يسمح التصوير الفوتوغرافي بإظهاره بنفس الوضوح.

وأخيراً لبلوغ الغرفة الجنائزية بحرية تامة وبدون عوائق كان ينبغي الانتهاء من أعمال تمهيدية تتمثل في تنقيب وتفريغ السرداب الموجود في المستوى الرابع تدريجياً، أي مواصلة العمل الذي كنا قد بدأناه في خريف عام ١٩٨٧.

استغرق تنفيذ تلك المهام عدة أسابيع. وفي نفس الوقت سمح لنا رصد ودراسة الحجرة ومحتوياتها بجمع حصاد من الاستنتاجات الهامة. ومن ثم راح تخطيط غرفة الدفن بالنسبة للسلم يتضح لنا بجلاء، وكذلك تركيب الجدار نفسه.

إذ كان ذلك الجدار يتكون من تجميع مختلف الأحجار المقصوبة بعناية بدون أي مادة رابطة. غير أنه يمكننا أن نرصد حول الباب آثار لملاط ربما استُخدم لسد الجدار الأصلي للحجرة. وبالتالي فقد جرى فتح الحجرة ونهب محتوياتها كما تشهد حالتها بصورة مذهلة، ثم أغلقت من جديد عن طريق بناء جدار حجري. إن الملاحظة الواعية لذلك القطاع وللجدار ودرجات السلم التي تبدأ من البئر وتتوقف بعد ذلك فجأة كانت تدخر لنا مفاجأة سارة. فمن خلال تسليط الضوء بطرق متعددة وزوايا مختلفة على كل ذلك القطاع، لاسيما درجات السلم الأخيرة، اكتشفت فجأة وجود ما يشبه النصوص المدونة في بقايا الملاط الوردي اللون الذي لايزال يغطي جزئياً درجات السلم الأخيرة. وفي الواقع كان ذلك يمثل البصمة المتكررة للختم الذي ربما قد وُضع في الملاط قبل أن يجف عند إغلاق الحجرة عقب الانتهاء من مراسم الدفن.

ونظراً لحالة الجبل والملاط، كانت تلك الاختام غير مقروءة في البداية. إلا أنني نجحت في النهاية في التعرف على بعض العلامات والرسوم بفضل الاستعانة بالاضاءة الجانبية. بيد أنها أصبحت مجرد أشكال لا يمكن تحديدها. ثم تمكنت فجأة عن طريق عقد المقارنات وتحريك المصباح الكهربائي النَقَّال في كافة الاتجاهات من قراءة أو على الأحرى تمييز الختم الموضوع بصورة متكررة. وهو يشبه على الوجه الأكمل شكلاً بيضاوياً رُسم بداخله حيوان ابن آوي متمدداً فوق صفين أو ثلاثة صفوف من الأسرى الراكعين، وقد قُيدت أيديهم خلف

ظهورهم. وبالطبع أصبح من المتعذر رؤية التفاصيل بيد أن العلامات كانت أكيدة، وآثار الأختام المتعددة كانت تُكمل بعضها البعض. وعلى الأخص نجحنا في "تمييز" ذلك الختم لأنه كان معروفاً لنا. إن فك رموز النصوص المطموسة نصفياً وعِلم النقوش بصورة عامة يتمثل بالفعل جزئياً في مطابقة بقايا يصعب تحديدها بعلامات ومجموعات علامات متراكمة في الذاكرة من كثرة قراءة وملاحظة النصوص التي في حالة جيدة من الحفظ.

حيوان ابن آوي متمدد يعلو تسعة أسرى ! إن ذلك الختم الذي يصور « أنوبيس »، إله الموتى والمقابر، يهيمن على أعداء مصر وقوى الشر العدوانية ويُفقدها فاعليتها، ذلك الختم يعرفه علماء المصريات بالفعل تمام المعرفة ؛ غير أنه يرتبط بصورة عامة بجبانة "طيبه" والمقابر المنحوتة في صخور الجبل الواقع في مواجهة الأقصر. بل إنه يقترن في الأذهان بوادي الملوك. فأي متخصص في دراسة التاريخ المصري القديم لابد أن يخطر على باله الأختام الموجودة في اماكن متفرقة من مقبرة توت عنخ آمون، لاسيما في المدخل حيث يتعاقب اسم الملك الشاب مع صورة حيوان ابن آوي يعلو الأسرى التسعة. كما اكتُشف ذلك الختم داخل مقابر أخرى تنتمي إلى نفس هذا العصر تقريباً. بيد أن العثور في سقارة على حيوان ابن آوي متمدداً فوق الأسرى التسعة يُعد أمراً نادراً (علماً بأن مقبرتي « حورمحب » و« مايا Maya » قد امدتنا بنفس الختم). إن العلاقات الضمنية لهذا الكشف الذي يفتقد إلى عنصر الإثارة في الظاهر، يمكن أن تتأكد أهميتها بالنسبة لمعارفنا حول جبانة « منف » في عهد الدولة الحديثة، وتنظيمها والعلاقات التي كانت تربطها بالإدارة المركزية. وربما ستعيننا أيضاً على التعريف بشخصية « عبريا » نفسه بصورة أفضل. ألا تجعلنا ألقابه، وعلى الأخص لقب "الأب الإلهي" الذي سنتوصل إليه بفضل تنقيب ما تبقى من أثاثه الجنائزي الرائع، نضعه في مصاف الشخصيات البارزة في تلك الحقبة التاريخية ؟ وعلى الأخص « يويا Youya » الذي كان ينتحل مثله لقب "الأب الروحي" وصهر « امنحتب الثالث ». وقد قام الامريكي « تيودور داڤيس Theodore Davis » باكتشاف مقبرة « يويا » في وادي الملوك عام ١٩٠٥ لم تمسسها يد تقريباً وبداخلها ختم حيوان ابن

آوي والأسرى التسعة.

وعند اغلاق الحجرة الجنائزية في مقبرة «عبريا» ووضع الأختام عليها، دُون في الملاط قبل أن يجف على الأرجح اسمه وحتى اسماء الملك أو الملوك الذين عاش في عهدهم. غير أن كافة تلك العلامات قد اختفت الآن. وعلى الرغم من ذلك تتضح لنا حقائق أخرى في ضوء الملاحظات المتكررة. إذ اكتشفت على الأخص أن عتبتي السلم الأخيرتين لم يجر نحتهما في صخور الجبل كما يمكن أن نعتقد في البداية، وإنما تم جلبهما وتثبيتهما ببراعة شديدة في الصخر. وقد عثرنا بالفعل وسط الأنقاض على بعض العتبات الأخرى التي تم جلبها لاستخدامها في إطالة السلم، وبالتالي إخفاء مدخل غرفة الدفن. ومن ثم فقد تم عمل تصميم ماكر وذكي، وتهيئة الحجرة في الأصل عند وضع تصميم المستوى الرابع بصورة فريدة.

وعلى هذا النحو كانت الأعمال التمهيدية للحفائر غنية بالمعارف ومثيرة للاهتمام في حد ذاتها. كما كانت الملاحظة الواعية واليومية تقريباً لكافة القطع المتراكمة داخل الحجرة تفسح أمامنا آفاقاً رحبة ومشجعة للدراسة. وبكل تأكيد كان في انتظارنا أيام وأسابيع فريدة.

السيدة «تاؤورت Taouret»

عقب التوقف عن العمل لفترة وجيزة شاركنا خلالها في المؤتمر الدولي الخامس لعلماء المصريات الذي عُقد في القاهرة، شرعنا في تنقيب الحجرة الجنائزية نفسها. وبخلاف غطاء رائع لإناء كانوبي كنا قد استدللنا عليه منذ خريف عام ١٩٨٧، عثرنا بدون مشقة وسط الأنقاض على مقربة من المدخل على قطعة أثرية طويلة وصلبة وغير عريضة : اتضح لنا أنها عبارة عن ذراع نذري منحوت من حجر الشست schiste الجميل. وكانت سليمة لاينقصها سوى شظية عثرنا عليها أثناء غربلة الأنقاض. كانت النصوص المدونة عليها في حالة ممتازة من الحفظ، وإن كانت تحدد فقط التجزئة التقليدية لذلك المقياس الطولي المصري القديم الذي يساوي ٥٢,٣٠ سنتيمتراً. ومن دواعي الأسف أن

النص المنقوش على أحد جوانبها والذي يحمل اسم المتوفي وألقابه قد اختفى بالفعل. كان هذا الاكتشاف مبشراً بخير جم بالنسبة لي ومدهشاً لسببين. أولاً نظراً لندرة الأذرع النذرية الحجرية التي في حالة جيدة من الحفظ في المتاحف والمجموعات الأثرية، علماً بأنه قد تم العثور على كثير منها في سقارة خلال عمليات السلب والنهب التي جرت على نطاق واسع في مطلع القرن التاسع عشر. وثانياً لأنه تصادف قيامي في الماضي بالتعمق في دراسة الأذرع النذرية. لذا فقد بدا لي فألاً خيراً أن تكون أول قطعة أثرية أعثر عليها داخل الحجرة هي تلك النسخة الرائعة التي تُعد أول ذراع يتم اكتشافه في سقارة من خلال الحفائر العلمية المنتظمة.

ثم راحت الأمور تأخذ مجراها تدريجياً. وقمنا بفك الجدار الذي كان لايزال يسد باب الحجرة، وتدعيم الممر نفسه باستخدام الألواح الخشبية. أما الكشافات الكهربائية القوية الثلاثة التي تم تثبيتها، فكانت تضاعف من درجات الحرارة المرتفعة بصورة لا تطاق، خاصة عندما نتواجد بأعداد كبيرة داخل تلك الأنحاء الضيقة، فنغرق في مجهود جسماني كبير أحياناً. بيد أنها كانت تمدنا بإضاءة كافية لرصد كافة التفاصيل. وفيما بعد تم تركيب تليفون داخلي في مدخل الحجرة تمثلت أهميته الكبرى في الاتصال بأعضاء البعثة والعمال المتواجدين خارج المقبرة أو تحت خيمة العمل. وأعتقد أنني لا أبالغ كثيراً إذا قلت أن « عبريا » هو المصري القديم الوحيد، بل ربما الرجل الوحيد على وجه الأرض الذي زُودت مقبرته بتليفون داخلي يُعد بكل تأكيد وسيلة جذرية للاتصال على الأقل بعالم الأحياء، إن لم يكن بالعالم الآخر...

تم تنظيم وتنفيذ الحفائر بدقة وعناية. وكانت وتيرة العمل تختلف كثيراً باختلاف الظروف. وكان ينبغي تدعيم ورفع، وتصوير وتنقيب الأنقاض بعناية فائقة، ووضع القطع المكتشفة داخل العلب والسلال أو حتى الصناديق الخشبية المصنوعة خصيصاً لذلك الغرض. وكان الريّس محمد شحات يقود العمل، وينظم عملية إخراج السلال والصناديق الكبيرة بمهارة وفعالية، ويعاوننا في حل المواقف الحساسة. كان العمال يرفعون الكتل الحجرية الموجودة في مدخل

الحجرة والقفف المملوءه بالأنقاض من خلال البئر. ثم تتمثل الخطوة الثانية في نقل كل ذلك خارج المقبرة عبر البئر الأولى التي تم تبطينها بالخرسانة. وأخيراً تسمح لنا غربلة الأنقاض بتأن ويقظة في العثور على بعض اللآليء ورقائق الذهب، وأجزاء صغيرة جداً ولكن هامة أحياناً من عناصر الترصيع.

وكثيراً ما كان يتعين علينا الصعود خارج المقبرة حيث نصطدم بأشعة الشمس المبهرة، والضوضاء المثيرة للأعصاب والمطمئنة في نفس الوقت لمجموعة توليد الكهرباء، والتنقل المستمر بين المقبرة ومخزن الآثار حيث كنا نقضي ساعات طويلة بالتعاقب مع أعمال الحفائر. وفي كثير من الأحيان كان المخزن هو المكان الوحيد الذي نستطيع فيه التمعن في فحص ومعاينة القطع الأثرية بعد تنظيفها.

كان كل يوم يأتينا بحصة من الاكتشافات. وفي البداية كان يخالجنا الشعور بتنقيب خليط من القطع غير المتجانسة. ويفاقم من حدة هذا الانطباع تناثر كافة القطع، وتهشم عدد كبير منها لاسيما تلك المصنوعة من الخشب المذَهَّب. ثم أخذت الأمور تتضح تدريجياً، ورحنا نتعرف على المجموعات الكبيرة التي كانت تشكل في الأصل محتويات المقبرة.

ويمكننا أولاً تصنيف الأثاث الجنائزي داخل فئات كبيرة من القطع وفقاً لطبيعتها وللمادة المصنوعة منها كالآتي : التوابيت والعناصر التابعة لها من أقنعة وأيدي وترصيعات، وأجزائها المختلفة من القيعان والجوانب والغطيان والأرجل (ولا يغيب عنا أن كل مومياء كانت توضع في ثلاثة توابيت متداخلة) ؛ وآنية من المرمر والحجر الصلد، وأوعية مخصصة لحفظ الزيوت والمستحضرات الثمينة ؛ وجرار وأباريق وقوارير وأقداح ...الخ من الخزف المزخرف أحياناً، وعدد منها تم استيراده من الخارج ؛ والتمائم وغيرها من القطع التي ترتبط بصورة وثيقة بالمومياوات ؛ وحلية من الذهب والفاينس ؛ وعناصر أثاث وخزائن صغيرة مزخرفة وقطع أخرى من الخشب. يصعب علينا حصر قائمة بكل القطع.

غير أنه قد اتضح لنا منذ الأيام الأولى للحفائر أن الأثاث الموجود في الحجرة الجنائزية يرجع إلى دفنات متعددة، وأنه على الرغم من التلفيات التي أحدثها لصوص المقابر وقيامهم بقلب محتوياتها رأساً على عقب، لايزال بوسعنا تحديد كل واحدة من تلك الدفنات، والتعرف على الأقل على جزء من الأثاث التابع لها.

لم يكن بالإمكان القيام بكل ذلك إلا خطوة بخطوة، وقطعة بقطعة، وجزءاً بجزء. وكان كل يوم تقريباً يهل علينا بواحد أو غالباً بالعديد من الاكتشافات المفاجئة والمذهلة أحياناً. وعلى هذا النحو فقد عثرنا في الثاني عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٨٨ على عنصرين من عجينة الزجاج الملون وسط المزيج المعقد من الأنقاض وبقايا الخشب. وكان ذلك يمثل وجه جانبي أزرق اللون لامرأة ذات شعر مستعار داكن الزرقة وعصابة رأس حمراء. وقد أكدت لنا الحفائر فيما بعد أنها كانت مستخدمة في ترصيع أحد التوابيت. بيد أن أهم ما في الأمر في البداية هو الجمال الساحر لتلك الرأس التي تمثل إلهة السماء «نوت Nout». لايمكن نسيان مدى الانفعال وشدة التأثر الذي تملكنا حينئذ. كانت تلك الرأس آية من آيات الجمال، وعلى الرغم من انتمائها إلى فئة القطع "الصغرى" لا أخشى التصريح بأن تلك الرأس، والرأس الأخرى المماثلة لها التي عثرنا عليها فيما بعد، تُعد من أروع القطع وأنقى وأطهر الوجوه التي تركها لنا الفن المصري القديم.

وقد أسفر تنقيب الحجرة انطلاقاً من الجدار الشرقي باتجاه الغرب عن إحراز سلسلة من الاكتشافات المتتالية المتعلقة بمومياء تسببت العوامل الزمنية وعبث اللصوص في تحويلها إلى مجرد هيكل عظمي. وكانت ترتبط بها مجموعة من الأواني الكانوبية منحوتة من الحجر الجيري الرقيق وتُعد تحفة فنية حقيقية (من بينها الإناء الذي تم اكتشافه عام ١٩٨٧) وعناصر توابيت وحلية، وجعران من الشست يسمى "جعران القلب scarabée de coeur". وقد قام الدكتور «ايچان ستروهال Eugen Strouhal»، أحد الانثروبولوجيين العاملين في منطقة سقارة، بفحص عظام تلك المومياء التي ترجع إلى امرأة تُدعى «تاؤورت». وكانت هذه الأخيرة تحمل لقب "نبت برnebet per " بمعنى

"سيدة المنزل"، وإن لم يكن من المستبعد العثور في يوم من الأيام على لقب آخر لها مدون على إحدى القطع.

أما عن اسم «تاؤورت» في قاموس اللغة المصرية القديمة فكان يعني "العظيمة" أو حتى "العريقة" ؛ كما يمكن أن يشير إلى الإلهة فرس النهر العطوفة التي دأب علماء المصريات على تسميتها «تويريس Touéris»، وهي إحدى الأشكال الإغريقية لـ«تاؤورت». ومن بين الحلية التي تم العثور عليها على مقربة من الهيكل العظمي كان هناك خاتمان رائعان من الذهب يزدان كل واحد منهما بفص من الحجر الصلد كان يُستخدم كختم ويدور حول محور. ويمثل أحد الخاتمين صورة تقليدية بسيطة ولكن واضحة للمعبودة «تويريس» على هيئة أنثى فرس النهر تقف على قدميها الخلفيتين. وهكذا فقد اتخذت تلك المرأة الشابة الساحرة أنثى فرس النهر كإله حام، وإن كانت على النقيض من ذلك الحيوان في غاية الرشاقة والأنوثة...

بعض المعلومات عن السيدة «تاؤورت»

بخلاف صورها الرائعة التي تُظهرها إلى حد ما بصورة مثالية (على الأواني الكانوبية والتوابيت) فقد تعرفنا على «تاؤورت» من خلال هيكلها العظمي وبعض البقايا المحنطة المصاحبة له. ويمكن أن تمدنا دراسة تلك البقايا الآدمية بمعلومات على قدر كبير من الأهمية : إذ تأتي لتكملة — وربما لتصحيح — الصورة الخيالية التي يمكن أن نكونها عن تلك الشخصية إذا اقتصر اعتمادنا على مجرد صورها.

عكف الدكتور «ايچان ستروهال» التابع لمتحف «براج Prague» القومي على فحص الهيكل العظمي لـ"تاؤورت" في شهر ديسمبر عام ١٩٨٨. وعلى الرغم من عدم انتهاء الدراسة الشاملة فقد قام بصياغة عدد من الملاحظات الهامة نسوق منها ما يلي :

— تثبت حالة المسالك الأنفية والبقايا الصغيرة جداً للمواد العضوية داخل جمجمة الرأس أن المخ لم يجر استئصاله، في حين تم تحنيط الجسم كما تشهد بذلك عدد من النقاط المسودة الواضحة في بعض الأماكن من الهيكل العظمي.

— كانت جمجمة الرأس متوسطة الصلابة، بينما بقية أجزاء الجسم كانت ذات بنية متينة، وتحتوي على نتواءات عضلية نامية. وتشير معظم الخصائص الجنسية الثانوية دون أي غموض أو التباس إلى أن المتوفي كان أنثى.

— يشير تآكل الأسنان والتآم بعض النتوءات في الجمجمة، وبعض خصائص عضو التأنيث، والتغيرات المورفولوجية في أطراف عظام العضد والفخذين، ووجود بعض الأعراض المَرَضية العنيفة، إلى أن السن لحظة الوفاة قد يتراوح بين العقدين الرابع والخامس.

— تدل آثار المخاض البادية على عظام عضو التأنيث على أن السيدة «تاؤورت» قد حملت العديد من الأطفال.

— يتطابق الشكل المورفولوجي للجمجمة مع النوع الأنثوي الذي كان سائداً في المجتمع المصري القديم حينذاك.

— وأخيراً بالنسبة للتغيرات الباثولوجية، كان الهيكل العظمي مصاباً بمرض spondylosis تطوري لاسيما في أسفل العمود الفقري. كما نتبين ميلاً إلى بداية مرض ostéophytosis عام وتعَظُّم الأنسجة الغضروفية. كما يبدو على الهيكل العظمي بعض العيوب الخلقية.

لابد أن تكون «تاؤورت» من الناحية المنطقية زوجة «عبريا»، إذا أكد لنا استمرار الحفائر أن هذا الأخير قد دُفن فعلاً في تلك الحجرة، وهو ما حدث بالفعل. ولكن ماذا نفعل حيال زوجة كبير الوزراء التي ورد ذكرها في نصوص الحجرة الأولى للمقبرة تحت اسم «اوريه Ouriai» أو «اوريا Ouria» ؟ في الواقع يمكن أن يُعد ذلك اسماً تصغيرياً لـ «تاؤورت Taouret» : إذ أن حرف «التاء T» الأخير لم يكن يُنطق على أي حال من الأحوال ؛ كما أن حرفي «التاء والألف Ta» في بداية الاسم كان من الممكن الاستغناء عنهما. علماً بأن هذه النزعة إلى استخدام الأسماء التصغيرية كانت سائدة خلال تلك الحقبة التاريخية في سقارة وفي غيرها من الأنحاء.

وعلى هذا النحو كانت «تاؤورت» أول شخص قابلناه في تلك الحجرة أولاً من خلال ملامحها المنحوتة إلى الأبد بصورة مثالية في الحجارة، ثم من خلال بقاياها الآدمية وكنزها الجنائزي، أو على الأقل ما تركه لنا اللصوص. لم يكن هؤلاء يتبعون نفس منهجنا العلمي، أو

يملكون نفس القدر من الوقت والإضاءة كما يشهد بذلك "نسيانهم" للخاتمين الذهبيين.

القائد «حوى Houy»

بعد العثور على «تاؤورت»، ترى على من يأتي الدور الآن ؟ كلما تقدمنا في تنقيب الحجرة وانتشال القطع الأثرية وإزاحة الأنقاض، كلما تضاعفت الاكتشافات. وفي نفس الوقت كان الأثاث الجنائزي المتراكم على ارتفاع ما يقرب من مترين في بعض النقاط لا يزال ضخماً. ونظراً للبطء المتعمد في العمل، ومشكلات التدعيم التي كانت تضطرنا أحياناً إلى إيقاف الحفائر لإجراء بعض العمليات الدقيقة للغاية، اتضح لنا سريعاً عدم إمكانية إتمام العمل في نهاية موسم الحفائر المقررة في آخر شهر ديسمبر عام ١٩٨٨. وعلى الرغم من الاكتشافات الهامة لتلك الحجرة ظلت اعتماداتنا المالية كما هي بدون زيادة، فضلاً عن الالتزامات العديدة التي كانت في انتظار كل فرد من أعضاء البعثة.

كان ذلك يمثل آفاقاً مزعجة وإن كانت بواعث الرضا لاتنقصنا. إنني أقصد على سبيل المثال نصين على جانب كبير من البساطة، بل والابتذال تقريباً. بيد أن كل واحد منهما قد أعاننا على تأكيد نقاط أساسية ظلت معلقة منذ بداية الحفائر في عام ١٩٨٠. إذ عثرنا أولاً على لوحة صندوق خشبي صغير على خرطوش بسيط (أي على اسم أحد الفراعنة مدون داخل الشكل البيضاوي المميز الذي يمثل المدار الشمسي الذي يهيمن عليه الملك). وحتى الآن لم نعثر داخل المقبرة على أي اسم فرعوني يعيننا على تحديد، على سبيل المثال، في أي عهد من العهود عاش «عبريا» وتوفي. وقد سبق أن عثرنا بالفعل على خرطوش مطموس تقريباً على إحدى لوحات الحجرة الأولى، بيد أن قراءته كانت غير مؤكدة. وبالتالي فقد كنت في غاية السرور والارتياح عند قراءة اسم «امنحتب الوصي على طيبه»، أي الفرعون «امنحتب الثالث» العظيم. ولكن ماذا عن «امنحتب الرابع-اخناتون» وطابع "العمارنة" الذي تتميز به تلك المقبرة ؟ وسيأتينا المستقبل بعناصر

أخرى للإجابة على هذا التساؤل.

وفي السادس والعشرين من شهر نوفمبر تمكنا أخيراً من فحص إناء كانوبي رائع من المرمر كنا قد لاحظنا وجوده منذ فترة طويلة. عندئذ بدا لنا نص كان خافياً عنا حتى الآن يرد فيه ذكر الإله «حابي» والمعبودة «ايزيس»، أحد الأزواج الحامية للأواني الكانوبية والأحشاء المحنطة المحفوظة داخلها. ولكن على الأخص تشير العلامات الهيروغليفية إلى النص الكامل لاسم كبير الوزراء «عبريا». وهي المرة الأولى التي أعثر فيها على اسمه منذ عام ١٩٨١ والنص المدون على الركيزة الموجودة في المستوى الأول. وبالتالي تُعد هذه الغرفة الجنائزية لكبير الوزراء الذي يرجع إليه على الأقل جزء من الأثاث الجنائزي الموجود فيها. وستظل هذه اللحظة في بداهتها وبساطتها من بين اللحظات التي لا تُنسى أبداً والتي عشتها خلال ذلك البحث الطويل.

ظل جزء كبير من أيام العمل مكرساً للاهتمام "بالألواح الخشبية". كانت عناصر التوابيت في حالة يرثى لها نتيجة لعبث اللصوص، وانتزاعهم رقائق الذهب التي كانت تغطيها. وقد كنا نواجه مصاعب جمة كانت تتطلب الإتيان بمعجزات حقيقية لتدعيمها على قدر المستطاع، ورفعها وتخليصها من وسط الأنقاض المتشابكة، وتغليفها وإخراجها من المقبرة عبر البئرين والحجرات الضيقة. كان المرممون والريّس والعمال المتخصصون يتبارون في إبراز مهاراتهم. وكثيراً ما كان يتعين علينا جميعاً بمعاونة مفتش الآثار مواجهة مواقف صعبة وخطيرة. وعلى سبيل المثال عندما وضعنا أحد العناصر الجنائزية الضخمة فوق دعامة بدأت تختل تحت وطأة ثقل القطعة بينما كنا عاجزين عن تحريكها وإدارتها لشد ما كانت الحجرة تزدحم بالأنقاض، وكل ذلك يجري وسط درجة حرارة ورطوبة عالية، وهواء فاسد لا يُطاق تقريباً. أو عندما قمنا بإخراج الغطاء الكبير لتابوت ابن «عبريا» بقناعه الرائع الذي كان جاثماً منذ البداية وسط الحجرة أعلى القطع المتكدسة بصورة يصعب تحديدها. ثم وضعناه داخل مايشبه نصف صندوق خشبي صُنع خصيصاً لهذا الغرض. وعندما أردنا رفعه خارج

المقبرة باستخدام الحبال والخطاطيف والرافعة التقليدية انحشر الصندوق بين جدران البئر بسبب ثقله وضخامة حجمه. عندئذ أصبح من المستحيل جذبه إلى أعلى أو دفعه إلى أسفل، في حين بدأت تبدو على الحبال والخطاطيف دلائل التلف بسبب تعرضها لفترة طويلة لقوة جذب زائدة عن الحد. عندئذ أخذ توتر الأعصاب يتزايد. وفي النهاية نجحنا في الخروج من هذا المأزق بعد أن أوشكنا على كارثة محققة.

وعلى الرغم من مظاهر التلف البادية على تلك التوابيت إلا أنها كانت لاتزال تمثل مصدراً خصباً للمعلومات، وتُعد قطعاً على قدر كبير من الروعة والإتقان في بعض الحالات. لاسيما أننا لاحظنا مع تقدم الحفائر أن بمقدورنا في حالات عديدة إعادة تصميمها رويداً رويداً على الورق، بل القيام فعلياً بجمع العناصر المبعثرة تماماً وإعادة تركيبها. وللدلالة على ذلك نذكر القناع الرائع الملقى إلى جانب أحد جدران الحجرة والذي قمنا فيما بعد بإعادة تثبيته في مكانه الأصلي على غطاء تابوت بدون قناع عثرنا عليه وسط الحجرة. أو جانب تابوت مزخرف لايزال يحتفظ جزئياً بتذهيبه نعثر له على الجانب الآخر المناظر بعد عدة أسابيع. في الحقيقة كان جزء كبير من مهمتنا ينصب على انتشال عناصر التوابيت والقطع الخشبية الأخرى التي كانت متشابكة بصورة مبهمة ومعقدة لدرجة أنه لم يكن بمقدورنا التكهن "بقيمتها". وبعد ذلك كنا نتذوق داخل مخزن الآثار لذة تجميع العديد من عناصر التوابيت والأثاث والفاينس والفخار. عندئذ نتوصل بسعادة غامرة إلى تكوين وحدات رائعة لم تكن تخطر لنا على بال. ما حيلتنا وقد عثرنا على كل شيء داخل الحجرة بدون أي نظام أو ترتيب، ودون أن يترك لنا أحد أية إرشادات للتجميع...؟ ومن ثم فستستغرق تلك العملية بعض الوقت.

ما أكثر المفاجآت التي كانت تدخرها لنا تلك الأيام ! وما أروع المعجزات الصغيرة التي تضعها العناية الإلهية في طريق الأثريين أحياناً ! فبعد أن كرسنا الكثير من الوقت لتدعيم ورفع إحدى اللوحات الخشبية لتابوت لا يثير الانتباه، اكتشفنا اسفلها فجأة تمثال « اوشبتي ouchebti » (أو شاوبتي chaouabti) رائعاً من الخشب كان ملقى على ظهره ؛ وعلى الرغم من ذلك لم يتعرض وجهه الجميل لأي

تلفيات بفضل الفراغ الطفيف جداً الموجود بينه وبين اللوح الخشبي الذي وقع عليه. وقد عثرنا على مقربة من ذلك التمثال الصغير الرائع على قطع أثرية أخرى، وعلى الأخص على رأس ثانية للإلهة «نوت» من عجينة الزجاج الأزرق يزينها شعر مستعار داكن الزرقة. وهي تشبه تماماً الرأس الأولى التي عثرنا عليها في بداية الحفائر، غير أنها فقدت عصابة الرأس من العقيق الأحمر. ترى كيف كانت التوابيت التي استُخدم في توشيتها وترصيعها مثل تلك القطع الرائعة ؟ ربما لن نتوصل ابداً إلى الاجابة على هذا التساؤل.

تماثيل الاوشبتي

تُعتبر التماثيل الجنائزية الصغيرة المسماه «اوشبتي» من بين أكثر مجموعات القطع المميزة لمصر القديمة. ومع مرور الزمن ازداد تداول الاسم الذي يشير إليها والذي يعني «المجيب répondant» ؛ بعد أن كانت تلك التماثيل الصغيرة تُعرف في البداية باسم «شاوبتي chaouabti» أو «شابتي chabti». بيد أن تعديل الاسم لم يغير أي شيء من طبيعتها أو الغرض من وراء استخدامها.

وبغض النظر عن اختلاف أحجامها وتنوع المواد المصنوعة منها (حجر، خشب، فاينس، طين محروق) عادة ما تُصور تماثيل الاوشبتي على هيئة نماذج صغيرة لمومياوات. ويمسكون غالباً في أيديهم بأدوات زرع وفلاحة الأرض (كالفأس، والغرارة، ...الخ) إذ كانوا ينوبون في الواقع عن المتوفي عندما يُطالب في العالم الآخر بالقيام بالأعمال الزراعية المفروضة على كل فرد مهما كانت منزلته. ويفسر لنا ذلك وجود نص مدون على عدد من تماثيل الاوشبتي يتألف من أسطر عديدة مقتبسة من الفصل السادس من «كتاب الموتى» الذي يحمل تلميحاً إلى تلك المهام التي تنتظر المتوفي خلال اقامته في الـ«دوات Douat» (مملكة الموتي).

وقد أخذ عدد تماثيل الاوشبتي الموضوعة في المقبرة — أحياناً داخل صناديق صغيرة مزخرفة ومعدة خصيصاً لذلك الغرض — في الازدياد تدريجياً بصورة كبيرة. وفي أغلب الأحيان كان هذا الرقم يبلغ ثلاثمائة وخمسة وستين تمثالاً، أي بعدد أيام السنة. عندئذ كانت تلك المجموعات الضخمة للتماثيل الصغيرة تُقسم إلى فرق حقيقية للعمال الزراعيين : وكان الخدم مزودين بالفأس والقفة لحمل التربة، في حين يمسك رؤساء

الفرق بالعصي (بصورة عامة كان هناك رئيس أعمال لكل عشرة منها).

غير أنه في عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت المقبرة لا تحتوي إلا على عدد محدود جداً من تماثيل الاوشبتي : أحياناً كان يوجد بعض منها، أو حتى تمثال واحد فقط. ترى هل ينطبق ذلك على مقبرة «عبريا» وأفراد أسرته ؟ على أي حال كنا نتوقع العثور على ثلاثة تماثيل صغيرة على الأقل. وربما قام اللصوص بسرقة بعضها طمعاً في قيمتها الثمينة. وسنكتفي في الوضع الراهن بالتكهن بأن تمثال الاوشبتي الخشبي الكبير الذي لا يحمل أية نقوش أو زخارف كان يرجع إلى «حوي» أو «تاؤورت». وعلى أي حال فإن تمثال الاوشبتي من المرمر الذي عثرنا عليه داخل غرفة الدفن كان يرجع بالتأكيد إلى «عبريا» كما يثبت النص المصاحب للفصل السادس من كتاب الموتى. وهي قطعة متقنة الصنع حتى وإن كانت تقاطيع الوجه تفتقد إلى الكثير من الرقة. أضف إلى ذلك على وجه الخصوص أننا عثرنا إلى جانب التمثال مباشرة على العلبة الخشبية الصغيرة التي كان مثبتاً داخلها بواسطة ألسنة من الابنوس.

تسببت الاضطرابات الدينية التي شهدها عصر العمارنة في إدخال بعض التعديلات على المفاهيم الجنائزية. إذ تقلصت أهمية «أوزيريس» وعالم «الدوات» ولم تعد رائجة. واستُبدلت فصول «كتاب الموتى» التقليدية بصيغة أخرى جديدة. غير أن كل ذلك كان ينطبق على الأخص على العاصمة الجديدة والعائلة المالكة وكذلك أفراد البلاط المرتبطين بها بصورة مباشرة. ولعل منطقة «منف» كانت أقل تأثراً بتلك التوجهات الجديدة. وربما قد احتفظت بمعظم النصوص التقليدية والمفاهيم الجنائزية القديمة. وفي الحالة التي نحن بصدد دراستها يمكننا أيضاً الافتراض أن تمثال الاوشبتي الخشبي يخلو من النصوص لأن «حوي» قد مارس مهام منصبه وتوفى في عهد «اخناتون» : مما يفسر غياب النص الجنائزي التقليدي.

غير أن تواصل أعمال الحفائر قد أثبت خطأ حدسنا. فعلى غير المتوقع تماماً، عثرنا على القطع الأصلية التي كانت مثبتة فيها الإلهتين الفاتنتين ذوات اللون الأزرق والتي عثرنا أيضاً على أيديهما وأرجلهما وأجزاء من ثيابهما. وقد عثرنا من هنا وهنالك على أجزاء خشبية تحتفظ ببقايا نص رُصعت كل علامة هيروغليفية منه بعجينة الزجاج الملون. وأثناء رفع عنصر خشبي كبير في يوم من الأيام وقعت أنظارنا على غطاء تابوت رائع ينقصه القناع وإن كان لايزال يحتفظ بقلادة مصنوعة من التجاويف المرصعة بعجينة الزجاج. كما كانت

هناك تمائم مثبتة في الخشب. وعلى الرغم من قيام اللصوص بانتزاع رقائق الذهب بعنف ووحشية، وقلب غطاء التابوت مرتين على الأقل، فلايزال يوجد أسفل ذلك بقليل نص رائع يحتفظ بأغلب عناصر الترصيع. ويعلو هذا النص صورة إلهة السماء «نوت» محفورة في الخشب ناشرة ذراعيها المجنحين. لم يكن علينا سوى إعادة تثبيت الرأس الثانية التي عثرنا عليها مؤخراً في مكانها الأصلي، وكذلك العديد من العناصر الأخرى (أما غطاء تابوت الرأس الأولى التي عثرنا عليها للإلهة «نوت» فلن يتم اكتشافه إلا في العام التالي).

ويحمل النص الهيروغليفي بوضوح لقب «كاتب المجندين الجدد لسيد الأرضين، حوي». كان من المفترض أن المعبودة «نوت» تحمل في أحشائها وتلد من جديد وتحمي المتوفي الذي يرقد داخل التابوت، والذي لم يكن إذن محبوساً في أعماق الأرض وإنما ممدداً أسفل القبة السماوية، واثقاً في أنه لن يفنى أبداً مثل النجوم المتلألئة في الأفق البعيد.

ويُعد ذلك قطعة على قدر عظيم من الروعة والإتقان، لا تحتوي المتاحف والمجموعات الأثرية إلا على القليل منها. وعلى الرغم مما لحق بذلك الغطاء المرصع من أضرار فادحة، إلا أنه لايزال يشهد بفخامة الأثاث الجنائزي الموضوع في تلك الحجرة. إن ابن «عبريا» الذي ورد ذكره في نصوص الحجرة الأولى قد دُفن أيضاً في نفس المقبرة، كما أن أثاثه الجنائزي يضارع أثاث والده. وقد أدركنا كذلك أنه لم يكن يشغل منصب قائد سلاح الفرسان وبالتالي العجلات الحربية فحسب، وإنما كان أيضاً كاتب المجندين الجدد، بمعنى المسئول من بين مهامه العديدة عن تجنيد الفرق العسكرية.

وبعد مضي بعض الوقت عثرنا وسط الأخشاب والأنقاض المختلفة على هيكل عظمي آخر، أو بالأحرى بقايا مومياء. كان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بأنها مومياء «حوي» بالتحديد. وعلى أي حال فقد قُدر لهذا المتوفي الجديد الذي ربما ترجع إليه الأواني الكانوبية من المرمر الخالية من النصوص والتي عثرنا عليها واحدة تلو الأخرى، قُدر له أن يظل حبيس مقبرته لمدة عدة أشهر أخرى. فقد حلت نهاية موسم

الحفائر، وتعين علينا التوقف عن العمل وترك كل شيء في مكانه بعد اتخاذ بعض التدابير الأمنية. وفي انتظار بداية موسم الحفائر التالي سيمر علينا الوقت ببطء شديد.

«عبريا» أخيرا

دفعني نفاد الصبر بكل تأكيد، وأيضاً الاحتراس والحكمة إلى ضرورة المسارعة بالعودة إلى الموقع عقب إغلاقه في شهر ديسمبر عام ١٩٨٨. وبمجرد أن سنحت لنا الظروف المادية، تم تنظيم بعثة حفائر جديدة تتألف من نفس فريق العمل تقريباً. ثم فُتحت المقبرة ومخزن الآثار في شهر يونيو عام ١٩٨٩، أي بعد أقل من ستة أشهر من إغلاق الحجرة الجنائزية على الهيكل العظمي لـ«حوي»، وعلى كومة من الأثاث الجنائزي والأنقاض التي لم يجر استكشافها بعد. كان ذلك في بداية موسم الصيف حيث يتحاشى جميع الأثريون بصورة عامة التنقيب في مصر بسبب الارتفاع الشديد في درجات الحرارة. ولا يخفى على أحد أن سقارة يسود فيها طقس حار جداً حتى في أثناء الليل في ذلك الوقت من العام. ناهيك عن العمل الشاق للغاية داخل المقبرة وخارجها، والذهاب والإياب بصورة متواصلة بين الموقع ومخزن الآثار الذي يتحول عند الظهيرة إلى آتون مستعر.

غير أنه كان يتعين علينا مواصلة العمل والانتهاء منه بقدر الإمكان. كان ينبغي فتح المقبرة من جديد، والتحقق من أن كل شيء كان على حاله. وربما كان ذلك مجرد حدس يساورني، بيد أن الإسراع في العودة كان على أي حال مبادرة لها ما يبررها. إذ لاحظت عند إعادة فتح المقبرة في السادس من شهر يونيو عام ١٩٨٩ أن المياه قد تسربت من جديد إلى الداخل وبلغت المستويين الثالث والربع. لم تكن مجرد رطوبة، وإنما سيلان حقيقي ينبع من منطقة استراحة كبار الزوار، ويمر عبر تجاويف الصخر، وينضح شيئاً فشيئاً حتى يتشبع به الجبل كله. كانت المياه تسيل حتى داخل الحجرة الجنائزية التي تغشاها الآن رطوبة فظيعة، وكذلك على الجدار الشرقي وبالتالي في الناحية التي

سبق استكشافها. إلا أن الأثاث الجنائزي لاسيما الأخشاب التي لم نقم بعد بتنقيبها قد أصبحت الآن في وسط متشبع بالرطوبة بعد أن ظلت أكثر من ثلاثة آلاف عام في جفاف مطلق. كما تعرضت إحدى الحجرات الجانبية في المستوى الثالث، كنا قد انتهينا من تنقيبها لحسن الحظ، لأضرار جسيمة. بيد أنه بفضل وجود الخرسانة والقبة التي قمنا بتصميمها لم يحدث أي تدفق خطير. ومع ذلك فقد كادت الكارثة أن تقع. فلو كنا قد انتظرنا عدة أشهر أخرى لكان من الممكن أن تنهار حجرة الدفن، وعلى الأخص كانت بقية محتوياتها ستفسد وتتعفن في منتهى الحماقة.

وعقب تجاوز الشعور بالذعر والأسف، ووضع تقييم دقيق للموقف، اتخذنا التدابير اللازمة مع المسئولين بالموقع. وفيما بعد تم تركيب شبكة لتصريف المياه المتسربة من أعلى المنحدر بمعاونة فنيين متخصصين في مشروع مترو الأنفاق. ومن الآن فصاعداً يمكننا أن نأمل في انتهاء تلك المشاكل الخطيرة نهائياً عن طريق المتابعة المنتظمة.

ومن ثم فقد استأنفنا الحفائر، وبصورة متوازية تنقيب الطرف الآخر للمستوى الرابع، علاوة على بقية أعمال الترميم والتدعيم بعد أن تركنا وقتاً كافياً لتجف الصخور الجبلية. لم تحدث أية تعديلات كبيرة في تكوين فريق العمل. وقد تم انتداب مفتش آثار جديد للعمل بالموقع، السيد أحمد عبد العال الذي كان حماسه وخبرته دعماً ثميناً لنا في تلك الأوقات العصيبة التي كنا نجتازها أحياناً. ثم عشنا من جديد أسابيع فريدة لم يكن يمضي يوم دون أن نحرز اكتشافات هامة وذات قيمة فنية كبيرة في أغلب الأحيان.

وبالطبع كرست بداية موسم الحفائر في انتشال الهيكل العظمي لـ«حوي» والأجزاء المتنوعة التي كانت تحيط به. وكما فعلنا برفات أمه (على افتراض صحة وتأكيد ذلك النسب) كان يتعين علينا جمع كافة العظام والأسنان، وأجزاء الأقمشة وحتى خصلات الشعر بعناية فائقة، وترتيبها ونقلها إلى مخزن الآثار حيث تُوضع في سلة لحين قدوم عالِم الانثروبولوجيا لفحصها ودراستها.

وعلى صعيد آخر، واصلنا أعمال التنقيب ناحية الجدار الجنوبي والزاوية الجنوبية الغربية للحجرة في القطاع الذي أطلقت عليه اسم "منجم المرمر". إذ قمنا مراراً خلال موسم الحفائر الماضي بالعثور على آنية من المرمر متنوعة الأشكال والأحجام. غير أنه كان هناك قطاع يحتوي على عدد كبير للغاية من تلك الآنية التي كانت توجد أيضاً في الأنحاء المتاخمة، وإن كان يتعين علينا الانتظار حتى بلوغ الطبقات السفلية لإبرازها ومسحها وانتشالها. كانت جميع الآنية تقريباً سليمة، أما تلك التي تعرضت للكسر فكنا نعثر شيئاً فشيئاً على كافة أجزائها المتفرقة، ونتمكن بالتالي من إعادة تجميعها ولصقها. كانت بعض الآنية لاتزال تحتفظ بغطيانها وقواعدها. وكانت كلها مسدودة بأختام وتحتوي على زيوت وغيرها من التوابل الثمينة. وفي بعض الحالات كان بداخلها بعض الترسبات الضاربة إلى السواد يمكن تحليلها. وأحياناً كنا نعثر على آنية أخرى تختبيء أسفل إناء كبير. وكانت تختلط فيها الآنية الفخارية والأواني الكانوبية التي كانت تنقصنا. ويبلغ مجموع عدد الآنية التي اكتشفناها في "المنجم" الواقع في جنوب الحجرة وفي قطاعات أخرى بنحو ثلاثين إناء من المرمر.

وكانت تنتظرنا وسط الأنقاض والأجزاء الخشبية المتناثرة المزيد من المفاجآت الهامة أحياناً من الناحية التاريخية. وهكذا فإن عنصر الصندوق الخشبي الصغير المزخرف الذي تم اكتشافه العام الماضي والذي يحمل خرطوش الملك «امنحتب الثالث»، تم تكملته في معظمه بفضل العثور على عناصره الأخرى، لاسيما غطاؤه. إن هذه القطعة الرائعة المكسية بالأبنوس تحمل "الاسم الأول" لـ«امنحتب الثالث نب-ماعت-رع Neb–Maat–Re » وكذا اسم "الزوجة الملكية العظيمة" الملكة «تي Tiy ». وربما كان ذلك الصندوق هدية من الفرعون وزوجته إلى «عبريا » الذي كانت تربطه بهما علاقات وشيجة. وفضلاً عن ذلك فقد عثرنا قرب نهاية موسم الحفائر على قرطين منقوش عليهما خراطيش نفس ذلك الملك.

غير أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد البسيط. ولعل القاريء يتذكر أن المستوى الأول للمقبرة يشهد بعدد من الخصائص، ويحتوي

على نصوص تنتمي إلى ما نعرفه عن عصر العمارنة، وفترة حكم «امنحتب الرابع». بيد أننا عثرنا داخل الحجرة على أشياء طفيفة تبدو زهيدة الشأن اتضح لنا أنها في غاية الأهمية. وهي عبارة عن أجزاء أختام طينية ربما تم وضعها عند إغلاق الصناديق الصغيرة والآنية الأخرى ولاتزال تحمل النص التالي : [نيفر-خبرو-رع-اوا-ان-رع Nefer-Keperou-Re-oua-en-Re الذي يحبه (أوزيريس) اونيفر Ounnefer]، أي اسم تتويج الملك «امنحتب الرابع» نفسه. وبالتالي فقد ورد في المقبرة ذكر اثنين من الفراعنة : «امنحتب الثالث» وابنه «امنحتب الرابع». ويمكن أن يُعد هذا الاكتشاف بعد تنقيحه بعدد من المعطيات الأخرى من بين أهم النتائج التي أسفرت عنها الحفائر كما سيتضح لنا فيما بعد. يطيب لي أن أشير إلى أن القطع المتواضعة والبسيطة مثل آثار الأختام لا تقل أهمية عن القطع الأخرى التي تبهر الأنظار. ففي مصر كما في سائر بقاع الأرض لا يقتصر تدوين التاريخ على الوثائق الفريدة.

وعلى هذا النحو تقدمنا في أعمال الحفائر حتى راحت كومة الأخشاب المتنوعة وعناصر التوابيت الضخمة والأنقاض والخليط من الأجزاء غير المتجانسة تتلاشى رويداً رويداً. وأصبح بمقدورنا التحرك بسهولة أكثر داخل الحجرة التي تم تفريغ نصف مساحتها. بل أضحى باستطاعتنا الالتفاف من الناحية الجنوبية حول آخر كومة ضخمة للأنقاض لم نبدأ بعد في تنقيبها، إذ نجحنا تدريجياً في إبراز الجدار في تلك الناحية.

القلوب البديلة

من بين مختلف العناصر المكونة لجسم الإنسان من منظور الانثروبولوجيا المصرية القديمة، ربما كان القلب أهمها على الإطلاق. لم يكن القلب مجرد "عضو" من الأعضاء (وهو مفهوم حديث لم يكن معروفاً في ذلك الحين) وإنما كان فضلاً عن ذلك هو المركز أو المحرك الداخلي للنفس الإنسانية على الصعيدين المادي والمعنوي.

كان القلب بالفعل مصدر عمل الحواس والعضلات، فضلاً عن دوره في ضمان استمرارية الحياة. كما كان أيضاً مقراً للفكر ومركزاً للشعور، والمسيطر الأوحد على كافة الوظائف الحقيقية والمجازية التي درج علم

الانثروبولوجيا الغربي على توزيعها بين المخ والقلب. وبصفته مقراً للإحساس والتفكير كان للقلب حياة خاصة به تقريباً ومستقلة عن حياة الشخص الذي ينتمي إليه. ويفسر لنا ذلك أهميته بالنسبة للحياة بعد الموت والبعث في العالم الآخر. أما محاسبة الموتى في العالم الآخر فكانت تجري أمام محكمة «أوزيريس» عن طريق وضع القلب في كفة الميزان الكبير للإله «تحوت»، في حين توضع في الكفة الثانية «ماعت Maat» التي تمثل المعايير الأخلاقية. كان ينبغي أن يظل ذراع الميزان في وضع أفقي، والويل كل الويل لمن ثقلت موازينه.

وإذا وضعنا في اعتبارنا هذه المعطيات (وغيرها من الأمور العديدة الأخرى) لأدركنا أهمية القلب ليس فقط بالنسبة للأحياء وانما كذلك بالنسبة للموتى. نعم كان ينبغي مراعاة ذلك الرفيق الثمين والمحافظة عليه في أفضل الأحوال ! ألا ندين له بنعمة الحياة والإحساس والتفكير والحركة ؟ ألا يُعد ضامناً وكفيلاً للحياة المستقبلية إذا نجح بدون عقبات في اجتياز المحن الرهيبة والاختبارات المهولة التي تعترض طريق المتوفي للمرور إلى العالم الآخر ؟

وفي ظل تلك الظروف لا يجوز انتزاع القلب من جسد المتوفي لتحنيطه بمفرده. بل لمزيد من الأمان، كان يصاحب جثمان المتوفي بديلاً واحداً أو أكثر من بديل للقلب الحقيقي خوفاً من تعرضه السريع للتلف. وكانت تلك البدائل تُصنع من المواد الرائعة والثمينة التي تُعمر طويلاً. كما تحمل في الغالب نصوصاً مقتبسة من «كتاب الموتى»، وبالتحديد تلك المتعلقة بالمتوفي وبقلبه، لاسيما الفصل الثلاثون وتنويعاته المختلفة «صيغ وتعاويذ لمنع قلب فلان... من أن ينقلب عليه في مملكة الأموات».

وفي أكثر الأحيان كان الجعران يمثل القلب البديل للمتوفي (مثلما كان الحال بالنسبة لـ«تاؤورت» على الأرجح). كما كان من الممكن أيضاً اللجوء إلى قطعة توحي بالعلامة الهيروغليفية التي تمثل ذلك العضو في نظر المصريين القدماء. وفي حالات نادرة جداً كان يُستخدم ما يشبه قطعة حجرية مثبت عليها جعران من الأحجار النفيسة على وجه الاحتمال. كان بعض تلك البدائل يوضع داخل لفائف المومياء، والبعض الآخر مثل النوع الثالث كان يُعلق حول عنق المتوفي. كان «عبريا» يملك على الأقل قلبين بديلين منقوشين على قدر كبير من الإتقان عثرنا عليهما أثناء تنقيب الأنقاض المتراكمة داخل الحجرة الجنائزية.

كما عثرنا على عناصر توابيت رائعة أخرى، وقمنا بتدعيمها وإخراجها من المقبرة. وعلى الأخص نجحنا في تجميع نصفي غطاء

تابوت خشبي رائع كان في حالة جيدة جداً من الحفظ. وعقب نقله إلى مخزن الآثار اكتشفت في ارتياح غامر أن القناع الجميل الذي عثرنا عليه عام ١٩٨٨ والذي لايزال يحتفظ بعينين مرصعتين ينطبق تماماً على غطاء التابوت. وعلاوة على ذلك كان يحمل صورة الإلهة «نوت» ناشرة ذراعيها المجنحتين. وفى الحال ثبتنا عليه الرأس الثانية من عجينة الزجاج الزرقاء وعناصر ترصيع أخرى. وقد أصبح ذلك الغطاء الآن بعد تنظيفه في غاية السحر. وعلى عكس غطاء التابوت الآخر الذي يحمل اسم «حوي»، لم يكن هذا الغطاء الثاني يحمل أية نصوص. وعلى أية حال فإن ملامح قناعه الجنائزي قد تتشابه مع ملامح «تاؤورت» كما صُورت على آنيتها الكانوبية.

كلما تقدمنا في عمليات التنقيب راحت الاكتشافات تتوالى، وتوحي بأن «عبريا» نفسه ربما دُفن في آخر الحجرة ناحية الغرب، وأن مومياءه ربما لاتزال موجودة حتى الآن ولكن لعلها في حالة سيئة جداً من الحفظ مثل المومياوتين اللتين تم العثور عليهما والمفترض أنهما لـ«حوي» و«تاؤورت». إذ نجد بالفعل في الناحية الغربية للحجرة قطعاً أثرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بـ«عبريا»، ومن بينها آنيته الكانوبية التي كانت متناثرة مثل باقي الآنية الأخرى.

وفي الزاوية الجنوبية الغربية لغرفة الدفن عثرنا خلف بعض آنية من المرمر على تمثال «اوشبتي» مختبئاً وسط الأنقاض. وبخلاف التمثال الخشبي الرائع الذي يخلو من النصوص، فإن التمثال الجنائزي الصغير الوحيد الذي عثرنا عليه هذه المرة مصنوع من المرمر. وعلاوة على ذلك كان في حالة عظيمة من الحفظ. ويزدان بأسطر هيروغليفية ملونة باللون الأزرق، تفصل بينها خطوط حمراء. وهي تمثل الفقرة المعتادة من «كتاب الموتى» التي نقرأها تقليدياً على مثل ذلك النوع من القطع الأثرية. بيد أننا نقرأ بوضوح على الكتفين اسم «كبير الوزراء عبريا». وبكل تأكيد فإن وجه التمثال منحوت بغير إتقان بسبب صعوبة تشكيل مادة المرمر، غير أنه جدير بالملاحظة نظراً لنضارة ألوانه، ولكونه تمثال الأوشبتي الوحيد الذي عثرنا عليه يحمل اسم «عبريا». ثم اكتشفنا بعد ذلك إلى جانبه مباشرة

جميع العناصر المختلفة المكونة لصندوق خشبي صغير رائع جداً وغطائه المُحَدَّب كان مخصصاً لحفظ تمثال الأوشبتي من المرمر. وقد تم إلقاء كل ذلك بعنف شديد أدى إلى تفكك الصندوق وتهشمه (وقد تم ترميمه الآن). ولامراء في أن التمثال الجنائزي الصغير لـ«عبريا» كان موضوعاً داخل ذلك الصندوق نظراً لأنه لايزال يحتفظ في قاعه بألسنة من الخشب الداكن اللون كانت تهدف إلى تثبيت الأوشبتي، ومنعه من الحركة والاهتزاز داخل الصندوق أثناء عملية نقله. وقد أجرينا التجربة بأنفسنا، وتأكدنا تماماً من صحة تلك الفرضية.

وخلال شهري يونيو ويوليو تم العثور في النصف الغربي للحجرة على قطع أثرية صغيرة ولكن ذات معان بليغة الأثر مثل : قطعة من الفاينس تمثل أزهار البردي (وهي ترمز إلى الخضرة وعنفوان الشباب) وتحمل لقب «الأب الإلهي عبريا»، وجزء من حلية من حجر الشست يلتحم بجزء آخر سبق العثور عليه خلال موسم الحفائر السابق، وهي من نوع نادر وتحمل فقرة من أحد فصول «كتاب الموتى» خاصة بقلب المتوفي الذي يرد اسمه بوضوح ؛ وقطعة مميزة تمثل كذلك قلب المتوفي وتحمل نصاً مماثلاً باسم «عبريا». وتأتي تلك التمائم الحامية وغيرها من القطع المكتشفة في نفس القطاع بكل تأكيد من مومياء «عبريا» نفسه. وربما قام اللصوص بتقطيع أوصالها بحثاً عن الحلية والتمائم الذهبية. وتتدرج القطع التي عثرنا عليها في هذا السياق، حتى أنني أكاد أتخيل اللصوص المتعجلين يلقون بها في تقزز واشمئزاز من حولهم اعتقاداً منهم بأنها غير ثمينة بالقدر الكافي لسرقتها.

أصبحنا على قاب قوسين أو أدنى من مومياء «عبريا». وعلى أية حال فقد انتهى بنا المطاف إلى العثور على جثة ثالثة تحولت هي الأخرى إلى مجرد هيكل عظمي. وتشير كافة القرائن إلى احتمال كونها مومياء «عبريا» نفسه. ومن بين كل اللحظات التي لا تُنسى والتي عشناها داخل تلك الغرفة الجنائزية، ستظل تلك اللحظة على وجه الخصوص محفورة في ذاكرتنا. فقد تلاشت كومة الأنقاض والرديم، وعلى الجدار الغربي كان يستند تابوت خشبي أو على الأحرى جزؤه

السفلي الذي كان في حالة يرثى لها، غير أننا لم نكن للمرة الأولى أمام مجرد عناصر مفككة. ولعل هذا التابوت كان مزخرفاً ومذهَّباً ورائعاً. وكان الهيكل العظمي ممدداً داخله، راقداً على جنبه إلى حد ما، والرأس ملوية إلى الخلف تكاد تكون منفصلة عن باقي االجسد. كان ذلك المشهد يبعث على السخرية والتأثر الشديد في نفس الوقت.

ولانزال نرى شريطاً ذهبياً عريضاً ملتفاً حول أحد الذراعين. وفضلاً عن ذلك عثرنا داخل قاع التابوت وكذا في أنحائه المباشرة على عناصر عديدة لعقود ذهبية ومن بينها فصوص ساحرة على شكل سعف النخيل ذات طابع شرقي واضح. كما أن فحص ومعاينة كافة تلك الأجزاء داخل مخزن الآثار ستمدنا بمزيد من المعطيات الهامة حول تلك المومياء. زد على ذلك بالطبع دراسة عظام الرفات التي سيقوم بها عالِم الانثروبولوجيا خلال موسم الحفائر التالي.

غير أن «عبريا» كان يدخر لنا مفاجأة أخيرة. لم تكن اكتشافاً بمعنى الكلمة، وإنما مايشبه المداعبة المريبة التي كادت أن تتحول إلى كارثة. فعندما أردنا انتشال التابوت الخشبي عقب إفراغه من الهيكل العظمي ومختلف الأجزاء المتواجدة، راح الجدار الذي يستند عليه التابوت يتحلل، وبدأ جزؤه السفلي يتساقط بالفعل قطعة قطعة. فقد كانت الصخور الجبلية تستند بالفعل على التابوت وباقي القطع ؛ كما أن الارتفاع العنيف والمفاجئ في مستوى الرطوبة الناتجة عن تسرب المياه وارتشاحها قد زاد من تفاقم الأمر.

لم نكن أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط داخل الحجرة في تلك اللحظة العصيبة. فلو كانت الفجوة داخل الصخر استمرت في الاتساع لأوشك الجدار وبالتالي جزء من سقف الحجرة على الانهيار فوق رؤوسنا. حدث ذلك في سرعة خاطفة. عندئذ تحتم علينا إذن القيام بحركات بهلوانية لدعم وتثبيت الصخر بأيدينا وأرجلنا. وسمح لنا التليفون الداخلي بطلب الإغاثة، فهب إلى نجدتنا على الفور رجال من مجموعة العمل هبطوا في الحال لمساعدتنا في القيام بالتدعيمات اللازمة. ثم عم الهدوء والاستقرار شيئاً فشيئاً بعد لحظات أشبه ما تكون بحالة التأهب القصوى في أعماق منجم يوشك على الانفجار. لقد

مضى كل شيء على خير ما يرام حتى الآن في تنقيب الحجرة، فمن ذا الذي كان يخطر بباله أن كبير الوزراء، أو ما تبقى من أثاثه الجنائزي أصبح مع مرور الزمان يلعب عن غير قصد دور الداعم للصخور ؟

على هذا النحو أخذنا نتقدم يوماً بعد يوم في تنقيب الغرفة الجنائزية ؛ كما أن الكومة المذهلة من الأخشاب والأنقاض المختلفة كشفت لنا جزءاً وراء جزء، ومفاجأة تلو الأخرى عما كان فيما مضى كنزاً جنائزياً رائعاً. فهناك العديد من القطع والاكتشافات التي يتعين علينا وصفها، على الأقل المجموعات الفريدة من الفخّار السليم الذي تم العثور عليه في هذا المستوى وأعلى من ذلك، ومن بينها : قوارير النبيذ التي تحتفظ بـ"بطاقاتها" المدونة بالقلم الهيراطيقي، وآنية طويلة العنق، وجرار منتفخة الشكل، وأباريق على شكل قلل مستوردة من منطقة بحر «إيجه» ومزدانة بنقوش ملونة في غاية الجمال، وقنينات طويلة مطلية باللون الأحمر ربما تأتي من منطقة سوريا وقبرص، وأقداح وأطباق. كما ينبغي كذلك ذكر كافة عناصر الحلية والعقود من الفاينس الملون على هيئة الفاكهة وأوراق النبات والتي تُعد من خصائص ومميزات عهد كل من «امنحتب الثالث» و«امنحتب الرابع». ونعكف حالياً على إعادة تجميع العقود المدهشة بنضارتها وذوقها الرفيع وأجزائها المثلثة الكبيرة التي تحمل صفوفاً عديدة من الدرر واللآلىء. أما العناصر المتعددة والفصوص الذهبية للعقود التي لم يلتفت إليها اللصوص فتعكس لنا ثراء الحلية التي كانت تُزين المومياوات والتي كانت موضوعة داخل صناديق خشبية صغيرة إلى جانبها.

الأذرع الطولية

كانت وحدة الطول الأساسية المستخدمة لدى المصريين القدماء هي الذراع المسماه بـ«الذراع الملكية» والتي تساوي ٥٢.٣٠ سنتيمتراً. وقد كانت مجزأة بدورها إلى وحدات أكثر صغراً. إن استخدام الذراع لقياس أبعاد الآثار المصرية ينطوي دائماً على قدر من الأهمية تجعلنا نلتفت إلى أن تلك الأبعاد تتكون غالباً من مضاعفات — صحيحة أو ناقصة — لوحدة الذراع، كما أنها ترجع إلى أعداد بسيطة. (ففي حالة المقبرة على سبيل المثال : يبلغ عمق البئر ستة عشر ذراعاً، ويُقدر ارتفاع الحجرة في

المستوى الثالث بأربعة أذرع، ...الخ).

كانت المعابد تحتفظ بنسخة حقيقية (من الحجارة على سبيل المثال) لتلك الوحدة الطولية، وتُستخدم في هذه الحالة كمعيار يمكن الرجوع إليه، شأنها في ذلك شأن وحدة القياس المتري المحفوظة في فرنسا في قصر «بروتيي Breteuil». وعلى صعيد آخر كان بعض الناس من علية القوم يضعون في قبورهم أذرعاً حجرية أو خشبية أو حتى ذهبية إما لارتباطها المباشر بطبيعة عملهم في الحياة الدنيا (في حالة المهندسين المعماريين مثلاً)، وإما للتأكيد على فكرة الدقة والإحكام والصواب، وبالتالي علاقتها بالمفهوم الجوهري للإلهة «ماعت» رمز العدالة والمعايير الأخلاقية.

وتحتفظ المتاحف والمجموعات الأثرية الخاصة بالعديد من الأذرع السليمة التي ترجع إلى المقابر الخاصة. وقد أسفرت عمليات التنقيب الهمجية التي جرت على نطاق واسع خلال القرن الماضي في العثور على عدد من تلك الأذرع بصورة مؤكدة في منطقة «منف» وفي معظم الأحيان في مقابر سقارة. وكافة تلك النماذج تقريباً ترجع إلى عهد الدولة الحديثة، كما هو الحال بالنسبة للذراع التي اكتشفتها بعثة الحفائر الانجليزية الهولندية المشتركة داخل مقبرة «مايا». كما يمكننا التنويه في هذا المقام إلى النماذج الرائعة التي عُثر عليها في «طيبه» داخل مقبرتي «خاع Kha» و«سننجم Sennedjem» اللتين لم تتعرضا للسلب والنهب في الماضي.

إن اكتشاف ذراعين سليمتين داخل غرفة دفن «عبريا» وزوجته وابنه يندرج في هذا السياق، وتجدر ملاحظته بصورة خاصة. أولاً لأن عدد الأذرع السليمة المعروفة لنا حتى الآن قليل جداً. وثانياً لأنها المرة الأولى التي نعثر فيها على هذا النوع من القطع الأثرية في سقارة من خلال حفائر علمية ومنتظمة. أما السبب الثالث والأخير فهو لكون كلتا الذراعين — ولأسباب مختلفة — تُعدان نسختين جديرتين بالاهتمام. إذ تتسم الذراع الأولى المصنوعة من حجر الشست بقدر عالي من الإتقان ودقة الصنع وروعة التفاصيل. في حين أن الذراع الخشبية الأخرى في حالة جيدة جداً من الحفظ على الرغم من ضعف وهشاشة المادة المصنوعة منها، والتلف الذي لحق بالعديد من القطع الخشبية التي تم اكتشافها داخل الغرفة الجنائزية. وعلى صعيد آخر، يجدر بنا أن ننظر بعين الإعتبار إلى الأهمية الوثائقية لتلك الاكتشافات. وللأسف الشديد فقد طُمس النص الملون والمنقوش على ذراع الشست والذي يشير إلى اسم وألقاب صاحبه (الذي من المفترض أن يكون «حوي»). بيد أن الذراع الخشبية ترجع بصورة مؤكدة إلى «عبريا» نفسه. فبخلاف التجزئة التقليدية للذراع المدونة على أحد الأسطح، فإن الأسطح الثلاثة الرئيسية للقطعة قد زُينت بأحرف

هيروغليفية ملونة تشير بإسهاب إلى ألقاب «عبريا» وصفاته الفخرية. إذ نقرأ فيما نقرأ أنه كان «ابن كاب Kap» (بمعني ابن السرايا). لم يرد ذكر هذا اللقب في أي موضع آخر في المقبرة. وهو يُعد مثالاً للأهمية الوثائقية الكبيرة التي تنطوي عليها دراسة تلك الذراع الخشبية التي ربما تُكن لنا المزيد من المفاجآت.

وختاماً سأكتفي بالتنويه إلى اكتشاف أخير على قدر كبير من الأهمية كان بمثابة طرفة عين للصدفة أو القدر في التاريخ الطويل لتلك الحفائر. أصبحت الحجرة شبه خاوية وكنا نقوم بعمليات التنظيف الأخيرة. ووفقاً للعادات الحميدة التي يتبعها الأثريون، رحنا نكنس أرضية الحجرة باستخدام الفرشاة الصغيرة على مقربة من الجدار الغربي الذي كاد أن يتسبب في وقوع كارثة منذ بضعة أيام... وأخذنا نلتقط من الأرض بعض الأنقاض غير محددة الشكل، وأجزاء خشبية وعدد من اللآليء. ثم عثرنا في لحظة من اللحظات على قطعة خشبية طويلة تبلغ نحو خمسين سنتيمتراً.

وقد ظننا في باديء الأمر أن تلك القطعة – بسبب الأتربة التي كانت تغطيها ومظهرها غير المشجع – ما هي إلا جزءاً كسائر الأجزاء العديدة التي قمنا بجمعها حتى الآن. بيد أننا كنا مخطئين في هذا الاعتقاد. فبعد تنظيفها وفحصها عن قرب، اتضح لنا أنها ذراع طولية أخرى. وقد كانت مشوهة بصورة طفيفة ومخدوشة في أكثر من مكان، غير أنها تحمل نصاً لايزال بمقدورنا قراءته بيسر.

وعلى هذا النحو كانت أول قطعة نعثر عليها داخل الحجرة في عام ١٩٨٨ عبارة عن ذراع سليمة من حجر الشست، وآخر اكتشاف لنا يتكون كذلك من ذراع خشبية سليمة أيضاً. وتمثل تلك القطعتين الفريدتين بداية ونهاية أعمال تنقيب الحجرة الجنائزية. إلا أن أعظم ما في الأمر أن الذراع الخشبية تحمل سلسلة من الألقاب والصفات الفخرية لـ« عبريا » نفسه مدونة بأحرف هيروغليفية جميلة ملونة باللون الأبيض. وفي حين لم ترشدنا ذراع الشست إلى شخصية صاحبها نظراً لاختفاء النص الذي يشير إليه، فإن الذراع الخشبية تشير إلى« عبريا »، بل وتمدنا بمجموعة من ألقابه كان بعضها لايزال مجهولاً لنا مثل لقب

"رسول الملك"، وعلى الأخص لقب "ابن السرايا" الذي ستواتينا فرصة الحديث عنه لاحقاً. ويبدو الأمر كما لو كان «عبريا» — الذي انطلقنا في ملاحقة كل معلومة عنه — لايرغب في انتهاء تنقيب حجرته الجنائزية دون أن يترك لنا بطاقة تفصيلية عنه خلف تابوته لتكون بمثابة إمضاء.

أما الآن فقد أصبحت الحجرة خاوية تماماً. وراح فريق العمل يتفرق كل في طريق. وكان شهر يوليو على وشك الانتهاء. وكان موسم الحفائر عصيباً ولكن لايُنسى. وقد بقيت بعض الوقت بالموقع لحسم العديد من الأمور. وأصبح مخزن الآثار ممتلئاً الآن بقطع جديدة ستتطلب المزيد من الجهود الضخمة لدراستها دراسة وافية. ثم فُتحت المقبرة مرة أخرى في شهر سبتمبر من نفس العام لمدة بضعة أيام للإنتهاء من عمليات تنظيف وتدعيم المستوى الثالث التي تمت بمعاونة السيد «كروس M.S. Croce» التابع لمتحف «تورينو» في ايطاليا. وفيما بعد سنحت لي الفرصة كثيراً في الهبوط إلى قاع المقبرة حيث كان يغمرني الحنين لذكرى المرة الأولى التي رأيت فيها تلك الحجرة، والأشهر التي لا تُنسى التي قضيتها في تنقيبها.



الفصل الرابع
العثور على كبير الوزراء

من علم الآثار إلى علم التاريخ

البحث ثم العثور، صياغة فرضية والتحقق من صحتها بواسطة التجربة التي تمثلها الحفائر، التوصل إلى اكتشافات حقيقية وعلى قدر من الإثارة : هكذا يمكننا تعريف المنهج العام الذي تم اتباعه في الموقع على امتداد كل تلك السنوات. غير أن التوقف عند هذا الحد سيكون بمثابة إنقاص هذا العمل طويل الأمد من أحد جوانبه الأساسية، بل حتى إهدار لمعناه العميق. ففيما وراء الحفائر والموقع والقطع الأثرية والنصوص والوثائق المختلفة ينبغي الالتفات إلى وجود التاريخ بمعناه الواسع. كما أن ممارسة علم المصريات ينبغي أن تقودنا لا محالة إلى ممارسة علم التاريخ بمدلوله العريض. وبالطبع لا يخفى على أحد ما يمكن أن ينتج عن عملية البحث والاكتشاف من لذة وسعادة غامرة. بيد أن الهدف الأسمى يتمثل في محاولة الفهم، وإدماج الاكتشاف الجديد داخل البناء الهش للمعارف المكتسبة حتى لو تطلب ذلك قلب أوضاع التنظيم المحكم لذلك البناء، وإعادة تنسيقه على أسس جديدة.

لقد ولى ذلك العهد الذي كان يقتصر فيه دور علم الآثار – أو "العلم الملحق للتاريخ" كما كانوا يسمونه آنذاك – على توصيل الوثائق الجديدة إلى عدد من المتخصصين تؤول إليهم وحدهم مهمة تفسيرها وتحليلها دون أن يبارحوا مقاعد مكاتبهم وأرفف مكتباتهم. أصبح الأثري الآن أقدر الناس على فهم وشرح ما رأته عيناه وما

اكتشفته يداه، دون أن يمنع ذلك صياغة تفسيرات أخرى، وإثارة التعليقات، وإعادة طرح المشاكل من جديد.

إن تنقيب مقبرة «عبريا» وتحليل نتائجها قد تطلب ولا يزال تنقلاً مستمراً بين أرض الواقع وشتى المراجع، بين المادة الخام والأفكار المجردة، بين المناهج المتعلقة بعلم الآثار بحصر المعنى والأعمال الخاصة بعلم النقوش، وأخيراً بين فحص الأمور التصاقاً بأرض الواقع وبين الابتعاد والتحليق اللازمين لرؤية وفهم الأمور بصورة أفضل. وبما أن مجال الملاحظة والبحث يتطرق في نهاية المطاف إلى شتى مظاهر تاريخ مصر القديمة، لذا يتعين على عالِم المصريات أن يصبو إلى السيطرة على كل سلسلة الترابط الفكري للمعرفة بدءاً من اكتشاف أصولها وإنتهاء باستغلالها. ترى هل تُعتبر مهمة طموحة ؟ ليس أكثر في الحقيقة من مهمة مؤرخ العصور الوسطى وعصر الثورة الفرنسية. غير أن طبيعة المصادر التي ينهل منها عالِم المصريات، وآلاف المصاعب الأخرى التي ينطوي عليها ذلك الفرع من العلوم تجعل مهمته محفوفة بالمخاطر. بيد أن تلك المصاعب لاينبغي أن تثنيه عن خوض المغامرة.

وبصورة عامة، كما هو الحال بالنسبة لـ«عبريا» ومقبرته وكنزه الجنائزي، فإن السؤال الذي يمكن طرحه يُعد بسيطاً بل شبه مبتذل : وماذا بعد ذلك ؟ ما الذي سيطرأ على الأمور من تغيرات من الآن فصاعداً بالنسبة لمعارفنا حول هذا الجانب أو ذاك من مصر وتاريخها؟ تلك هي التساؤلات التي ينبغي طرحها عقب أي اكتشاف. كان كبير الوزراء «عبريا» بكل تأكيد منسياً ومجهولاً فأعدنا إليه الآن المكانة التي كان يشغلها في عهده. وبدون شك كانت بعض الوثائق والقطع الأثرية الهامة جداً والرائعة في بعض الأحيان مستترة ومنسية، وبالتالي ليس لها وجود، فأعدنا لها وجودها الآن وحقيقتها وأهميتها الذاتية. لا يمكن الإستهانة بكل ذلك، إلا أنه سيكون من المؤسف التوقف عند هذا الحد، والاكتفاء بإعداد الفهارس وعمل بيانات بالألقاب، ووضع قوائم جرد للقطع المكتشفة، والاقتصار على استخلاص النتائج البسيطة والجزئية.

سأنطلق الآن - وتلك الأفكار لا تبارح ذهني - في محاولة تحليل الخطوط العريضة للدرس أو على الأحرى للدروس المستفادة من تلك الحفائر نظراً لأنها متعددة وغنية. غير أنه تجدر بنا الاشارة إلى ملاحظتين.

إذ نود أولاً التذكير بأن هذا الكتاب يخاطب جمهوراً عريضاً من القراء، وليس فقط المتخصصين الذين سيجدون ضالتهم في النشر العلمي الذي سيجري إعداده لاحقاً. وبالتالي فلن نخوض هنا في مناقشات تقنية يتطلب فهمها مراجع وأدلة على قدر مفرط من التخصصية.

وثانياً تقتضي طبيعة الأمور أن يكون مسعى العالِم المتخصص بطيئاً وحذراً، وأن يتحرى التأني والدقة في دراسة الوثائق والمصادر الجديدة، وأن تستند المقارنات والاستنتاجات على أسس راسخة وعميقة. وكل ذلك من الممكن فهمه وإدراكه. كما نوجه عناية القارئ إلى أنه لايجب أن يتوقع العثور هنا على خلاصة جازمة ونهائية عن « عبريا » والدور الذي قام به، واحتمالات البلبلة التي قد تنشأ عن اكتشاف مقبرته، نظراً لأننا انتهينا منذ بضعة أشهر فقط من عمليات التنقيب الشاقة لغرفته الجنائزية الغنية ؛ ولأن دراسة القطع المشونة في مخزن آثار البعثة ستتطلب شهوراً عديدة أخرى ؛ ولأن ما نجريه من أبحاث تتشعب بين العديد من المجالات المثيرة والرحبة والتي من شأنها أن تجرفنا بعيداً جداً عن نقطة انطلاقنا.

مقارنات...

في البداية ينبغي إعادة وضع المقبرة التي تم اكتشافها في صخرة « البوباستيون » ومحتوياتها داخل سياق أوسع وأرحب. ويستلزم الأمر في الواقع عقد بعض المقارنات بغية تقييم كافة القطع التي تم اكتشافها على الأخص داخل غرفة الدفن الواقعة في المستوى الرابع والوقوف على نوعيتها الخاصة. وباختصار شديد هل تُعتبر هذه

المقبرة على الرغم من تعرضها للسرقة أثراً شائعاً ومألوفاً ؟ إن الإجابة بالنفي على هذا السؤال تعني التأكيد على أهميتها.

غير أنه إذا بحثنا عن المقابر الأخرى التي ترجع إلى عهد الدولة الحديثة لكي نظل داخل الحقبة الزمنية التي ينتمي إليها « عبريا »، فماذا ترانا نجد ؟ الحق يُقال لن نجد الكثير في سقارة نفسها ! في الواقع يشير التاريخ الحديث للموقع إلى أن مقابر الدولة الحديثة قد عانت على الأخص من عمليات السلب والنهب التي حدثت في الماضي، لاسيما خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد تم الاعتراف مؤخراً بأهمية « منف » وسقارة خلال الدولة الحديثة، خاصة عقب إماطة اللثام عن مقابر مدهشة مبنية ترجع إلى تلك الحقبة. وعلى الرغم من تهدمها وتدميرها جزئياً فإن مقاصير مقابر كل من « حور محب » و« تيا Tia » و« مايا » و« نفررنبت Neferrenpet » ...الخ، الواقعة في جنوب الممر الصاعد لهرم الملك « أوناس » لاتزال تُعد آية من آيات الجمال والإعجاز. بيد أن الأجزاء السفلية لتلك المقابر والحجرات الجنائزية وقعت فريسة لعمليات السطو الوحشي خلال العصور القديمة، ومن جديد في العصر الحديث. وتزخر المتاحف والمجموعات الخاصة بالعديد من القطع الفريدة في أغلبها ترجع إلى مقابر الدولة الحديثة التي كشفت عنها حفائر قام بتمويلها كبار تجار العاديات خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر. ولعل بعض المقابر كانت سليمة تماماً حينئذ، أو تم سرقتها جزئياً مثل مقبرة « عبريا » قبل أن تقع فريسة لعمليات التنقيب الهمجية. وينطبق ذلك على سبيل المثال على مقبرة القائد « جحوتي Djehouty »، أو مقبرة المسئول الأول عن الأعمال في منف « امنحتب Amenhotep » المعروف بـ« حوي Houy ». أما تلك "الحفائر" التي تمت بدافع من الروح التجارية الجشعة فتُعتبر من الخسائر العلمية الفادحة نظراً لتشتيت القطع المكتشفة في مشارق الأرض ومغاربها. كما ظلت أهمية « منف » في عهد الدولة الحديثة مجهولة لأمد بعيد لدرجة أنه يتحتم علينا في يوم من الأيام تكوين متحف تخيلي لإبراز ثراء وعظمة وروعة الكنوز الجنائزية لـ« سقارة » في ذلك العصر.

كما تجدر بنا الإشارة إلى مقابر ذلك العهد الواقعة في الأنحاء المتاخمة لهرم الملك «تيتي»، أي على مقربة من صخرة «البوباستيون». وقد قام بعض علماء المصريات من أمثال «ڤيكتور لوريه Victor Loret»، ومن بعده «چيمس كيبال James Quibell» و«سيسيل فيرست» بإجراء حفائر منتظمة بها ابتداء من نهاية القرن الماضي. وأسفر ذلك عن اكتشاف مقابر هامة لا تزال تحتوي أحياناً على أثاث جنائزي. غير أنني أعتقد بأنه يمكننا التأكيد – دون أن نقع في حبائل المبالغة – بأن اكتشاف مقبرة «عبريا» يُعد أمراً فريداً تماماً في سقارة. كما يُعتبر "كنزه" الجنائزي بالفعل مجموعة نادرة سواء من حيث الكم أو النوع أو الوثائق على الرغم من عمليات السطو والتدمير. زد على ذلك الأهمية الفريدة لشخصية «عبريا»، والحقبة التاريخية التي عاش ومارس مهام منصبه فيها : وهي فترة ازدهار وأزمة في نفس الوقت يمكن أن تسلط عليها المقبرة والأثاث الجنائزي تدريجياً أضواء جديدة.

ولكن لندع سقارة جانباً الآن ونلتفت إلى بقية أنحاء مصر القديمة، ومقابر أخرى لم تُنتهك حرمتها ترجع إلى نفس العصر تقريباً أمدتنا – من خلال الحفائر العلمية المنتظمة – "بكنوز" مماثلة "لكنز" «عبريا»، بل وأعظم منه قيمة. ويمكننا ذكر العديد من المواقع الأثرية مثل «غراب Gourob» في مدخل الفيوم، أو بعض الجبانات الواقعة في أقاليم مصر العليا والنوبة اكتُشفت بداخلها أحياناً مجموعات لا يُستهان بها. وعلى الرغم من ذلك ينبغي أن نوجه أنظارنا على الأخص إلى العواصم الكبرى الأخرى لذلك العهد. ففي شمال البلاد، لا يوجد أي شيء بالفعل في مصر السفلى نظراً لعدد من الأسباب التاريخية وطبيعة تلك الرقعة الجغرافية (باستثناء مجموعة كنوز «صان الحجر» التي ترجع إلى عهد لاحق مباشرة للدولة الحديثة). أما في مصر الوسطى، تُعد «تل العمارنة»، الموقع العريق لـ«أخت آتون Akhet-Aton» – عاصمة «اخناتون» – مرجعاً رئيسياً يساعدنا على تقييم مجموعة «عبريا» الجنائزية بصورة أفضل. بيد أنه يتعين علينا قصر المقارنات على أعمال تنقيب مختلف أنحاء المدينة نظراً للتلف الشديد الذي لحق بالمقابر الرائعة لأصحاب المناصب الرفيعة في

الدولة وعلية القوم، والتي تبدو كأنها لم تُستخدم اطلاقاً (إلا إذا افترضنا قيام السكان بنقل الموتى والأثاث الجنائزي إلى مكان آخر عند هجرة المدينة).

لا يبقى أمامنا إذن سوى مدينة «طيبه» ! وسنجد ضالتنا في تلك العاصمة المتألقة التي كانت تضارع مدينة «منف» في الشمال، لا سيما جباناتها الواقعة على الضفة الغربية للنيل. وتنتشر فيها بكثرة مقابر الدولة الحديثة التي لاتزال تحتفظ بنضارة ألوانها، وترتبط أحياناً باكتشافات فريدة جعلتنا منذ أمد بعيد وحتى الآن نميل إلى الاعتقاد بأن صخور «طيبه» ستنشق عن مسك الختام بالنسبة للمقابر والكنوز الجنائزية للشخصيات البارزة في عهد الدولة الحديثة. غير أننا بدأنا ندرك أكثر فأكثر منذ نحو خمسة عشر عاماً بأن ذلك ينطبق على مقابر الملوك وأغلب أفراد العائلة المالكة، في حين يختلف تماماً في حالة الشخصيات البارزة في الدولة.

إن الاكتشافات التي تم إحرازها في «طيبه» من خلال الحفائر العلمية المنتظمة تُعد من بين أكثر الصفحات المشرقة التي دونتها أيدي الأثريين الذين وهبوا حياتهم لاستكشاف مصر القديمة. إنني أقصد بذلك بعض الاكتشافات الخارقة والفريدة في معظم الحالات سواء من حيث شخصية المتوفي أو من حيث الأثاث الجنائزي السليم الذي لم تطاله أيدي العابثين تقريباً.

ويمكننا الإشارة إلى محتويات مقبرة مدير الأعمال «خاع Kha» التي ترجع هي الأخرى إلى عهد «امنحتب الثالث»، والتي قام «شياپاريللي E. Schiaparelli» باكتشافها سليمة تماماً في «دير المدينة». وهي محفوظة اليوم في متحف «تورينو» بايطاليا. وتُعتبر وحدة فريدة للغاية نظراً لروعتها وثرائها وتنوعها الذي يشمل كافة مظاهر الحياة اليومية للمصريين القدماء في ذلك العهد. كان «خاع» من الشخصيات البارزة، ولكن يبدو أن أعماله كانت منحصرة داخل مجالات محددة، ولا تنطوي على أية مشاركة في الحياة السياسية أو إدارة الدولة الفرعونية.

وفي نفس موقع «دير المدينة» الذي راح ينمو في ظل الأسرة التاسعة عشرة، وأصبح يرتبط بصورة وثيقة بالعمال الذين قاموا بحفر وإعداد وزخرفة مقابر وادي الملوك ووادي الملكات، تم اكتشاف المقبرة الرائعة لرئيس العمال «سننجم» وأسرته. وهي ترجع إلى عهد الملك «سيتي الأول»، أي إلى الأسرة التاسعة عشرة. أما أثاثها الجنائزي الذي لا يخلو من الأهمية فيقل ثراء وتنوعاً عن أثاث «خاع» (نظراً لاختلاف العصر والمكانة الاجتماعية التي ينتمي إليها كل منهما). ويمكننا أن نعدد أمثلة أخرى من الاكتشافات المتفرقة أو الجماعية في مقابر الأشراف أو وادي الملكات، وبعضها ينطوي على أهمية بالغة. بيد أن كل ذلك لا يمثل سوى بقايا متباينة لوحدات جنائزية هامة ترجع إلى شخصيات لم تكن دائماً على نفس القدر من الأهمية.

فلنتوغل إذن بصورة أعمق داخل صخور وجبال «طيبه» حتى وادي الملوك حيث تم العثور بالفعل على مقابر لاتزال تحتفظ بكامل محتوياتها وكنوزها أو بجزء منها، وترجع بصورة عامة إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة. إن ما تم اكتشافه داخل الحجرة الجنائزية لـ«عبريا» وملحقاتها لا يخلو من أوجه المقارنة مع المقابر المكتشفة في وادي الملوك. حتى أن كبير الوزراء يبدو إلى حد ما كأحد الأقارب المنسيين في الشمال لهؤلاء الملوك. غير أن ختم حيوان ابن آوي ممدداً فوق الأسرى التسع، ومنصب وألقاب «عبريا»، والعديد من عناصر أثاثه الجنائزي يمكن أن تنوه إلى وادي الملوك الشهير وبعض المقابر المنحوتة فيه. فلننس إذن للحظة من اللحظات أن مقبرة «عبريا» تقع في سقارة، ولتبلغ بنا الجسارة المتناهية حد تخيلها منحوتة في وادي الملوك.

فلم يقتصر هذا الموقع الشهير على دفن الملوك فقط كما يمكن أن نستشف من اسمه. إذ حظي بشرف ذلك الإمتياز عدد من الشخصيات البارزة كانت تربطها علاقات وثيقة بالأسرة الحاكمة. وشاءت سخرية القدر أن نعثر على مقبرتين سليمتين تقريباً لإثنين من تلك الشخصيات بينما تعرضت مقابر معظم الفراعنة للسلب والنهب والتخريب رأساً على عقب. وترجع المقبرة الأولى التي لم تُنتهك

حرمتها إلى الضابط «ماحربرا Maherpra»، وهو من أصل نوبي ومن المقربين إلى «تحتمس الثالث». وقد قام «فيكتور لوريه» باكتشاف تلك المقبرة التي تشغل محتوياتها الرائعة صالة كاملة في المتحف المصري. أما المقبرة الثانية فترجع إلى الأب الإلهي وقائد سلاح الفرسان «يويا».

وإذا كنا قد تخيلنا أن مقبرة «عبريا» تقع في وادي الملوك فإنما للتنويه إلى أن شخصية صاحبها ومجموعة أثاثه الجنائزي وأثاث أسرته تتسم بالعديد من أوجه التشابه مع شخصية «يويا» وكنزه الجنائزي وكنز زوجته «تشويو Tchouiou » (أو «تويا Tchouia »). إن هذين الزوجين اللذين قد لا تربطهما في الأصل أي صلة بالأسرة الحاكمة، يجسدان أحد النماذج الصارخة لإرتقاء الطبقات الاجتماعية في عهد الأسرة الثامنة عشرة. كانت منطقة «أخميم» في مصر الوسطى مسقط رأس «يويا» الذي كان ضابطاً كبيراً وأباً لفتاة شابة تُدعى «تي» أصبحت فيما بعد الزوجة العظيمة للملك «امنحتب الثالث». ويبدو أن تلك الملكة قد شغلت منزلة هامة ولعبت دوراً كبيراً. وبخلاف إبن يُدعى «عانن Anen » تقلد مناصباً كهنوتية من المقام الأول، رُزق هذان الزوجان بإبن آخر يُدعى «أي Ay» اعتلى فيما بعد عرش مصر عقب وفاة «توت عنخ آمون». وفضلاً عن ذلك من المعتقد أن «نفرتيتي» الجميلة زوجة «امنحتب الرابع-اخناتون» كانت تربطها علاقات أسرية حميمة بتلك العائلة.

لصوص المقابر في العصر العتيق
كما يصفهم «كارتر»

لايمكننا تنقيب المقابر العتيقة دون أن تواجهنا باستمرار تقريباً الأضرار التي اقترفها لصوص المقابر في العصور القديمة والقرون الحديثة. وأينما ولينا أنظارنا نستشف بصماتهم، وبصورة أو بأخرى كانت لهم دائماً أفضلية السبق على الأثريين، باستثناء بعض المعجزات...

غير أن لصوص العصور القديمة الذين كانوا يمارسون "مواهبهم" أحياناً عقب إغلاق المقبرة بفترة وجيزة يثيرون دهشتنا بصورة خاصة نظراً

لإنتمائهم إلى نفس الفكر الثقافي والروح الدينية التي كان يعتنقها ضحاياهم. ولعلهم هم أيضاً كانوا يحلمون بـ [مقبرة جميلة في الغرب (طيبه، منف، ...الخ) بعد شيخوخة هانئة] وفقاً للعبارات المأثورة المستخدمة في النصوص الجنائزية. أما «هوارد كارتر Howard Carter» فلم يعان كثيراً من اللصوص على الرغم من تعرض مقبرة «توت عنخ آمون» مرتين على الأقل للسرقة بطريق الكسر، واختفاء بعض القطع الأثرية عقب دفن الملك بفترة وجيزة. إلا أن التفكير في هؤلاء المفسدين الذين لا مناص منهم ربما قد شغله طويلاً لدرجة جعلته يصف لنا ببلاغة شديدة (في كتاب بعنوان مقبرة توت عنخ آمون *The Tomb of Tutankhamen*) إحدى عمليات السرقة الليلية التي وقعت في وادي الملوك منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام على النحو التالي :

[بوسعنا أن نتخيل المؤامرات التي كانت تُحاك قبل وقوع الجريمة بأيام، واللقاء السري على الهضبة الصخرية تحت جنح الليل، وحراس المقابر الخونة الذين يبيعون ضمائرهم أو الذين يتم تخديرهم، والتقدم في الظلمات، والزحف والتسلل إلى غرفة الدفن من خلال فتحة ضيقة، والبحث الضاري تحت أشعة الضوء المرتجف، والتفتيش المحموم عن أي كنز يسهل نقله، وأخيراً عودة اللصوص إلى أوكارهم في الفجر محملين بالغنائم].

في عام ١٩٠٥ قام الأمريكي «تيودور داڤيس» باكتشاف مقبرة «يويا» و«تويا» في وادي الملوك. وعلى الرغم من تعرضها لزيارة اللصوص كانت لاتزال تحتفظ بأغلب محتوياتها، لاسيما التوابيت الرائعة ومومياوتين في حالة عظيمة من الحفظ تُعدان من أفضل ما تركته لنا مصر القديمة. كما عثرنا داخل الغرفة الجنائزية على عجلات حربية وأثاث غني، وآنية من المرمر وصناديق مزخرفة، وقطع أثرية صغيرة وبصورة عامة محتويات على قدر رفيع من الجودة والإتقان. وتشهد العديد من تلك العناصر بعمق الصلات الوطيدة التي كانت تربط بين هذين الزوجين والعائلة المالكة، والتي تُعد تعليلاً لاختيار وادي الملوك كمكان لدفنهما. وأخيراً نوجه عناية القارىء إلى أن المنقبين قد عثروا بالطبع داخلها على ختم الجبانة — أي حيوان ابن آوي ممدداً فوق الأسرى التسع. ويُعتبر ذلك الاكتشاف فريداً للغاية من شتى النواحي الأثرية والفنية والتاريخية. كما لايزال يثير العديد من التساؤلات مثل التقدير الدقيق لشخصية «يويا»، والعلاقات الأسرية

المعقدة التي كانت تربطه بالملك «امنحتب الثالث» وخلفائه وآخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

ولنشر أيضاً إلى اثنين من المقابر الملكية الموجودة في وادي الملوك. إذ قام «تيودور داڤيس» وفريق المنقبين العاملين معه باكتشاف المقبرة المسجلة تحت رقم ٥٥. وقد عانت الأمرين من لصوص المقابر في العصر القديم، وتسرب المياه وارتشاحها. غير أن محتوياتها، لاسيما تابوت فريد مرصّع بالأحجار الكريمة الرائعة وآنية كانوبية جميلة، تمثل وحدة أثرية من الطراز الأول. أضف إلى ذلك أن الأهمية التاريخية لتلك المقبرة الملكية ومحتوياتها تتمثل فيما يتعلق بعهد العمارنة والسنوات التي سبقته وخلفته ؛ إذ ترتبط المقبرة بالفعل ارتباطاً وثيقاً بتلك الحقبة التاريخية والاضطرابات التي اجتاحتها.

أما المقبرة الثانية فترجع في منتهى البساطة إلى «توت عنخ آمون». وبكل تأكيد ما من أحد يجرؤ على الادعاء بمقارنة الكنز الجنائزي الذي لا يُضاهى لهذا الملك بكنز «عبريا» وأسرته حتى عندما كان كاملاً لم يُمس. فلا سبيل إلى مقارنة مقبرة ملك حتى وإن كان "مغموراً" ومقبرة "مجرد" كبير وزراء مهما كانت أهميته الشديدة وصلاته الوشيجة بالملك. بيد أننا نجد في الحقيقة العديد من أوجه المقارنة الممكنة بين بعض عناصر هذين الكنزين من الناحية التصنيفية. علاوة على أنه لا يمكننا إنكار أوجه التشابه بين بعض القطع الأثرية في كلتا المقبرتين : مثل التوابيت المغطاه برقائق الذهب والمرصعة بعجينة الزجاج (وكذلك إلهة السماء «نوت»، وواحدة على الأقل من أعمدة النصوص الطويلة التي تمت توشيتها بنفس الطريقة). وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة : فكلنا نعلم جيداً أن الملك الحاكم كان يغدق الهدايا على جلسائه والمقربين إليه من رجال البلاط. كما كان يبيح لهم إلى حد ما استغلال الورش الملكية التي كانت تستقطب للعمل بها خيرة الفنانين وأمهر الحرفيين الموجودين بالبلاد.

لا ندعي من خلال هذا الاستعراض السريع إعطاء القارىء قائمة وافية بكافة القطع الأثرية والكنوز الجنائزية التي ترجع إلى الدولة الحديثة والتي أثمرت عنها الحفائر العلمية المنتظمة. بل نهدف على الأقل إلى الإشارة إلى أن نقاط التشابه وأوجه المقارنة ليست بالكثرة الشديدة التي نخالها. كما نرغب في نفس الوقت - من خلال طبيعة المقابر المشابهة وقلة عددها - في التأكيد على أهمية محتويات مقبرة «عبريا» كوحدة متكاملة، وليس فقط كمجموعة قطع أثرية مهما بلغت روعتها. ومن ناحية أخرى، يُعتبر ذلك الاكتشاف كما أشرنا آنفاً "سبقاً أثرياً" في سقارة. وكل ذلك يضفي على المقبرة ومحتوياتها مكانة خاصة جداً.

شخصية هامة وبارزة

من بين المجموعات الجنائزية سالفة الذكر، ربما كان الأثاث الجنائزي لكل من «عبريا» و«تاؤورت» و«حوي» أكثر اقتراباً وتشابهاً من مجموعة «يويا» و«تويا». مع الأخذ بعين الاعتبار التلفيات والسرقات، وكذا إعادة تجميع وتركيب التوابيت والقطع الأثرية التي يمكن القيام بها والتي سيكون من شأنها تكملة ذلك الاكتشاف الناقص للأسف الشديد.

كان «يويا» و«تويا» والدي «تي» الزوجة الملكية العظيمة للملك «امنحتب الثالث»، كما كانا على الأرجح جدي الملك «أي» ! ومن ثم لم يكونا من عامة الناس على الرغم من انحدارهما من أصل مغمور لايزال غامضاً بالنسبة لنا. ومن ذا الذي يشكك في منزلتهما العظيمة بعد أن دُفنا في وادي الملوك نفسه، وأصبح اكتشاف كنزهما الجنائزي اكتشافاً فريداً ؟ غير أن «عبريا» لم يكن هو الآخر من عامة الناس على ما يبدو ! وكل تلك السنوات الطويلة من البحوث والاكتشافات توحي لنا بذلك، وتؤكده عنصراً عنصراً بصورة مدوية أحياناً. وفضلاً عن ذلك نجد في كبير الوزراء المنسي في سقارة العديد من النقاط المشتركة مع «يويا» بخلاف أثاثهما الجنائزي : لاسيما الصلات التي كانت تربطهما

بالملك «امنحتب الثالث» الذي عمل كل منهما في خدمته (ولعل «يويا» أقدم في الخدمة بقليل من «عبريا»). ومن ناحية أخرى كان كلاهما ينتحلان لقب "الأب الإلهي" أو "والد الإله" ؛ وبالطبع لم يكن الإله في هذه الحالة سوى الملك الحاكم نفسه.

وتجدر بنا الإشارة في هذا المقام إلى أن طريقة كتابة التاريخ قد تطورت بصورة ملحوظة منذ عدة عقود. وينطبق ذلك أيضاً على تاريخ مصر القديمة. فلم يعد علماء المصريات يصبون جُل اهتمامهم على الفراعنة والشخصيات البارزة في الدولة فقط. إذ تميل النزعة الجديدة إلى عدم الخلط بين أقلية حاكمة وبين مجموع الشعب المصري بكافة طبقاته الاجتماعية التي أخذت تثير أكثر فأكثر فضول واهتمام الباحثين. ولكن هل يليق بنا إهدار جزء كبير وهام من الوثائق بدعوى أننا نعرف قدراً كافياً من المقابر التي لم تعد تضيف أي جديد إلى معارفنا حول علية القوم الذين تقل أهميتهم نظراً لأنهم يشكلون أقلية لا تمثل السواد الأعظم من المصريين ؟ سيكون في ذلك منافاة للعقل وجهل بما يمكن أن تمدنا به تلك الآثار والوثائق بمعلومات لا تتعلق فقط بأصحابها وإنما أيضاً بالمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه، وبتاريخ مصر القديمة بصورة أعم وأشمل. وفضلاً عن ذلك فإننا لا نملك في أغلب الأحيان مصادر تاريخية أخرى غير تلك المقابر.

ومن ثم لايزال العديد من علماء المصريات يعكفون على دراسة مقابر أصحاب المناصب الرفيعة نظراً لكونها مصادر متميزة لدراسة "كافة" مظاهر الحياة في مصر القديمة. وينطبق ذلك الأمر تماماً على «منف» وسقارة في عهد الدولة الحديثة، وهو مجال بِكْر لا يفتقر إلى النضارة والثراء. وفي هذا السياق تبرز أهمية «عبريا» الذي مارس مهام منصبه في حقبة تاريخية تتسم بالتحول والتغيير، وتعتصرها الأزمات التي لانزال نجهل الكثير عنها، والتي تسهم المقبرة ومحتوياتها في تعريفنا بها بصورة أفضل.

يبدو «عبريا» إذن كشخصية بارزة ذات نفوذ كبير. وهناك ثلاثة أدلة على ذلك : مقبرته الفسيحة والعميقة، وثراء وروعة أثاثه الجنائزي، وأخيراً وعلى الأخص ألقابه ومناصبه كما تتجلى لنا مدونة

على جدران المقبرة وعدد من القطع الأثرية. ولكن لكي ننجح في تفسيرها بدقة يتعين علينا أن نضع في اعتبارنا عدداً من الأمور والحقائق. فمن ناحية لا يزال من العسير الإلمام بالمعنى والأهمية الحقيقة لألقاب ومناصب الموظفين وأصحاب المقامات في مصر القديمة. ومن ناحية أخرى اختفت العديد من نصوص المقبرة من جراء عمليات التلف والسلب والنهب التي تعرضت لها. وعلاوة على ذلك لم نفرغ حتى الآن من إعادة تجميع وتركيب التوابيت، وتفسير العديد من الوثائق الهامة. وأخيراً لم يُذكر اسم «عبريا» على ما يبدو في أي مكان آخر سواء على جدارن أي أثر أو قطعة محفوظة في مصر أو في بقية أنحاء العالم. ويُعد ذلك نقطة هامة ومثيرة جداً في نفس الوقت.

وبالتأكيد لا يُعتبر ذلك أمراً فريداً في حد ذاته. إذ يمكننا إعزاء ذلك الصمت والغياب إلى مصادفات حفظ الوثائق، واندثار قدر هائل من الآثار، ووجود عدد كبير من القطع الأثرية المحفوظة في المتاحف لم يتم نشرها حتى الآن. إلا أن ذلك الأمر يبدو مدهشاً نظراً لأهمية تلك الشخصية. ترى هل ورد ذكر «عبريا» في مكان آخر تحت اسم آخر كما كان يحدث أحياناً ؟ ما من شيء يسمح لنا بتأكيد ذلك حتى يومنا هذا. ترى هل تعرض عقب وفاته لعمليات الاضطهاد التي كانت تحدث أحياناً في عهد العمارنة وفي الفترة التالية له كما تنوه إلى ذلك على سبيل الاحتمال بعض آثار الطمس والكشط البادية على جدران الحجرتين الأولتين ؟ تساؤل آخر لانملك الإجابة المؤكدة عليه.

ينبغي علينا التمييز بين نوعين من الألقاب التي ينتحلها «عبريا» : تلك التي تنطبق على المناصب الحقيقية والمهام الفعلية التي تولاها صاحبها سواء في نفس الوقت أو على التوالي ؛ وتلك التي تشير على الأحرى إلى مناصب فخرية أو تعكس تدرجات دقيقة في رتب رجال البلاط كما هو الحال كثيراً في بلاد الشرق القديم والمعاصر. ومن بين النوع الثاني، يجدر بنا التنويه إلى الألقاب الفخرية التي أصبحت قديمة وتقليدية ولا تتطابق مع الواقع الفعلي.

وبوسعنا ذكر أمثلة عديدة للنوع الثاني من الألقاب المدونة على جدران المقبرة أو القطع الأثرية مثل الذراع الخشبية التي عثرنا عليها

في نهاية الحفائر. إذ نقرأ الألقاب التقليدية جداً لأشخاص على نفس القدر من المنزلة مثل "كريم النسب والنبيل" (أو "الأمير") يتبعها أحياناً "مستشار ملك مصر السفلى" (علماً بأن الفرعون يظل على امتداد كافة العصور "ملك مصر العليا والسفلى" مما يُذكر دائماً بالإزدواجية الأصلية للبلاد). كما يمكننا ذكر صفات مدحية أو ألقاب ترتبط بالبلاط الملكي مثل "الرفيق الأوحد" (للملك)، و"الذي يُرضي سيد الأرضين بفضل شخصيته"، و"المفضّل لدى الإله المنزه عن كل نقص" (أي الملك). ولكن في بعض الأحيان نجد تلميحات إلى مهام محددة، أو إلى مكانة رفيعة في حاشية الملك، أو حتى إلى علاقات فريدة ومتميزة مع السلطة الحاكمة.

وسيتأكد لنا ذلك الانطباع الأخير بفضل الألقاب التي تمثل مهاماً ومناصب حقيقية، وعلى الأخص تتعلق بصورة مباشرة بإدارة الدولة وبالملك الحاكم. إن المنصبين الأكثر أهمية اللذين شغلهما «عبريا» وورد ذكرهما في نفس الوقت أحياناً على بعض القطع الأثرية هما بالطبع منصبي "كبير الوزراء" و"الأب الإلهي". أما الألقاب التي تشير إلى منصب كبير الوزراء أو المصاحبة له فهي "القاضي"، وعلى الأخص "رئيس المدينة" و"كبير الوزراء" بحصر المعنى (في اللغة المصرية القديمة «تشاتي tchaty »). ولكن يمكننا أن نذكر أيضاً ألقاب "الذي على رأس الأرض كلها" (أي مصر)، و"الفم الذي يُطَمئن في الأرض كلها"، أو حتى الصفات مثل "الذي نخبره بخفايا القلوب لكي يتصرف وفقاً لتعليمات جلالة الملك"، و"ميزان سيد الأرضين". ولاتقتصر الألقاب الأربعة الأخيرة على كبير الوزراء وحده وإنما تتماشى مع مهام منصبه الخطير. إذ كان كبير الوزراء في ذلك العهد رجلاً عظيم الشأن، مكلفاً من قِبَل الملك بتسيير شئون البلاد والسيطرة التامة على مجريات الأمور. وهناك نصوص تحدد صلاحياته وسلطاته وامتيازاته تحديداً دقيقاً. وللحد من ذلك النفوذ المتعاظم ربما دعت الحاجة - على الأقل خلال تلك الفترة من الدولة الحديثة - إلى ازدواجية ذلك المنصب : إذ كان هناك كبير وزراء الجنوب ويقيم في «طيبه» على الأرجح، وكبير وزراء الشمال ومقره «منف» بكل تأكيد. ولعل صعوبة المهام وثقل الأعباء تعلل تلك الازدواجية التي ربما كان يمليها أيضاً الحرص على التقليل

من نفوذ وسلطان أصحاب ذلك المنصب. ومن ناحية أخرى، فمن البديهي أن بعض الرجال ممن يشغلون مناصب رسمية أقل أهمية كثيراً ما قاموا بأدوار سياسية أشد أهمية، وكانوا أكثر اقتراباً من الملك الحاكم. علماً بأن تأثير هؤلاء المقربين والمستشارين "الشخصيين" للملك لا يمثل ظاهرة تنفرد بها مصر القديمة دون سائر الدول.

أعباء وواجبات كبير الوزراء

إن مقبرة كبير الوزراء «رخميرع Rekhmire» في «طيبه» الذي مارس مهام منصبه في عهد الملك «تحتمس الثالث»، أي قبل «عبريا» بنحو قرن من الزمان، تحتوي — بخلاف اللوحات الملونة الرائعة — على نصوص على قدر عظيم من الأهمية تتعلق بذلك المنصب. وهي تضم على الأخص وصفاً تفصيلياً لمختلف المهام التي ينصب عليها ذلك المنصب الجوهري، بالإضافة إلى خطاب التنصيب الذي وجهه له الفرعون. إذ يُعدد فيه الملك المسئوليات الكبرى التي ستؤول إلى «رخميرع» وواجباته، مع التركيز بدقة على دوره كقاضي، وعلى الآداب والمعايير الأخلاقية التي ينبغي عليه الالتزام بها خلال ممارسته لمنصبه.

إن ذلك الخطاب حافل بالتعاليم التي تعيننا على تقييم مدى أهمية منصب كبير الوزراء. وعلى أية حال لعلنا بصدد خطاب لم يتغير كثيراً بتغير الملوك، وتتابع المسئولين على هذا المنصب. ومن ثم يمكننا التكهن بأن «عبريا» قد استمع إلى مثل ذلك الخطاب أثناء حفل تنصيبه، ولعله دونه على جدران مقبرته كما كانت تجري العادة، مماثلة لما عثرنا عليه داخل مقبرة «رخميرع».

وفيما يلي نسوق الترجمة الحديثة التي صاغتها «كلير لالوات Claire Lalouette» لتلك الخطبة (في كتاب النصوص المقدسة والنصوص الدنيوية في مصر القديمة *Textes sacrés et Textes profanes de lEgypte ancienne*، صادر عن دار النشر الباريسية جاليمار Gallimard عام ١٩٨٤، المجلد الأول، ص ١٨٢–١٨٤) :

[يقول له جلالة الملك : «من الآن فصاعداً ينبغي عليك الاشراف على قاعة اجتماعات كبير الوزراء، ومراقبة كل ما يجري داخلها لأنها دعامة البلاد

كلها . لتعلم أن منصب كبير الوزراء ليس بالأمر المريح والممتع، بل هو مر أحياناً مرارة العلقم.

[لتعلم أن كبير الوزراء شأنه شأن معدن النحاس الذي يحمي ذهب سيده، إنه لا يطأطيء الرأس أمام كبار الموظفين والقضاه، ويحسن اصطفاء من يخالطهم من الناس. وإذا عاش إنسان في كنف سيده، فإنه يدين له دون غيره بالولاء.

[سيأتيك المتظلمون من الجنوب والشمال ومن كافة أرجاء البلاد... أما أنت، فلتحرص على أن يكون تنفيذ كافة الأمور بموجب القانون ووفقاً لحقوقهم مع ضمان العدالة لكل واحد من بني البشر. (...)

[يتعين عليك الالتزام بتلك التوجيهات. لا تفرق في المعاملة بين من تعرفه ومن لا تعرفه، بين من تربطك به أواصر القربى ومن هو غريب عن بيتك. إن القاضي الذي يتصرف على هذا النحو سينجح هنا في ممارسة منصبه. لاتصرف شاكياً دون أن تسمع دعواه. إذا قدّم لك متظلم شكوى فلا تطرده بغير سبب. أما إذا كان لابد من طرده، فبيّن له لماذا تطرده : إذ أن الشاكي يفضل الاستماع إلى شكواه على أن يراها تُجاب. (...)

[لتعلم أن النجاح سيكون حليفك في ممارسة منصبك إذا التزمت بتطبيق العدالة لأن أهم شيء أن يكون كبير الوزراء منصفاً وعادلاً : فهو الذي يسهر على احترام القوانين وتنفيذها بدقة منذ أن خلق الله الكون. ولتعلم إذن أن لهذا السبب يُطلق على رئيس كتبة كبير الوزراء لقب "كاتب الحقيقة والعدالة" (أي الإلهة ماعت). أما القاعة التي ستعقد فيها الاجتماعات فتشتمل على "حجرة فسيحة" تأخذ فيها قراراتك تُعرف بحجرة «الإلهتين ماعت».

[إن كبير الوزراء هو من يحكم بالعدل والإنصاف في حضور كل الشعب. لكن تأمل : إن الرجل يحتفظ بمنصبه طالما عمل وفقاً للتعليمات الصادرة إليه ؛ وسيكون في أحسن حال إذا توافقت أفعاله مع ما قيل له. لاتتوقف في أي لحظة من اللحظات عن الحكم بالعدل فقوانينه معلومة للجميع. لاتصاحب المتعجرفين والمتغطرسين من الناس لأن الإله الملك يفضل الهَلِع على المُعْتَد والمَزْهو. فلتعمل إذن وفقاً للارشادات التي أعطيناها لك، والموضوعة أمامك لكي تحرص على تنفيذها].

غير أنه من العجيب ألا يرد ذكر كبير الوزراء « عبريا » في مصادر أخرى. ترى هل كان على الأحرى مسئولاً عن شمال البلاد ؟ فقد يوحي لنا مكان دفنه بذلك الافتراض، غير أن « منف » ربما كانت أيضاً مسقط

رأسه. ومهما كان الأمر فإن ما يؤكد على أهمية «عبريا» – علاوة على منصبه العظيم ككبير وزراء – هو منصب رفيع آخر يصعب علينا تحديده بدقة، ولعله كان أكثر أهمية نظراً لأنه يعزز الانطباع بأنه كان من الشخصيات المقربة جداً للملك. ونقصد بذلك لقب "الأب الإلهي" أو "والد الإله" (وأحياناً "الأب الإلهي المحبوب") بمعنى "والد" الملك الحاكم المدون فقط على بعض القطع الأثرية. ترى هل جاء حصوله على ذلك اللقب في وقت متأخر جداً حال دون تدوينه في كافة أرجاء المقبرة؟ أم تراه كان أقل أهمية عن سائر الألقاب الأخرى ؟ وهل توجد أسباب أخرى لذلك ؟

وبالنسبة للحقبة التاريخية التي تعنينا، ينبغي علينا من جديد عقد المقارنات مع «يويا» و«أي». إذ كانا ينتحلان ذلك اللقب الذي حث عدد من علماء المصريات على الاعتقاد بأنه يشير إلى صلة قربى غير مباشرة مع الملك : وأن حامله هو والد زوجة الفرعون. هل كان ذلك هو الحال حقيقة ؟ علماً بأن فريقاً آخراً من علماء المصريات يعارض ذلك التفسير الحرفي و"الأسري" للقب "الأب الإلهي" الذي ربما يُعد نعتاً فخرياً يعكس الدور الذي يلعبه صاحبه في تربية الأمير الذي سيصبح ملكاً في المستقبل. ولعله كان تسمية تُطلق على أشخاص – نظراً لتقدمهم في السن أو لخبرتهم المشهودة – قد كان لهم تأثير كبير على الملك الذي ربما كان يركن إليهم بفضل ما يتمتعون به من حكمة.

وعلى أية حال فإن أهمية لقب "الأب الإلهي" – في ذلك العهد على الأقل – مؤكدة لا جدال فيها، فضلاً عن أننا لم نصادفه كثيراً وذلك بصرف النظر عن معناه الدقيق. إن مثال «عبريا» لايسمح لنا في اللحظة الراهنة بحسم تلك القضية. فما من شيء يعيننا على تأكيد وجود صلة قرابة حقيقية بينه وبين عائلة «امنحتب». وفي المقابل، لا مراء في أنه شارك في تربية الأطفال الملكيين كما تشهد بذلك بعض ألقابه، وكما كانت تجري العادة غالباً بالنسبة لكبار الوزراء وأصحاب المراتب العليا في الدولة. ومن ثم فقد دُون في إحدى لوحات الحجرة الأولى أنه كان "مربي الأطفال الملكيين". ولكن إلى أي أطفال يشير النص ؟ لعلهم أبناء «امنحتب الثالث» وعلى الأخص «امنحتب الرابع».

بيد أن ما يبدو لنا مجرد نعت تقليدي مرتبط بمنصب كبير الوزراء يأخذ أبعاداً أخرى إذا أضفناه إلى لقب "الأب الإلهي". ومن هنا يتضح لنا تمتع «عبريا» على ما يبدو بعلاقات متميزة مع الحاكم. ولِمَ لا وهو "عيون الملك في كافة أرجاء البلاد" (أو "في كل مكان")، وعلى الأخص "الذي جعله سيد الأرضين كا Ka له" بمعنى قرينه أو على الأحرى سنده الحيوي ؟ وبكل تأكيد يجب أن نضع في اعتبارنا الغُلو والمبالغة التقليدية التي تغلب على كافة تلك النعوت. غير أن استحواذ فرد واحد على كافة تلك الصفات والألقاب يُعد أمراً جديراً بالملاحظة.

وقبل أن نتابع تحليلنا، ينبغي علينا الالتفات إلى صعوبة تحديد اسم الملك الذي تنوه إليه جميع تلك الألقاب تحديداً دقيقاً : هل هو «امنحتب الثالث» أو «امنحتب الرابع» (الذي أصبح فيما بعد اخناتون)، أم هذا مرة وذاك مرة أخرى ؟ وسنتناول هذه المسألة في الصفحات التالية.

ولنتطرق الآن إلى لقب آخر عثرنا عليه مدوناً على الذراع الخشبية : ألا وهو «ابن الكاب kap» (بمعنى "السرايا" أو "بيت الحضانة" الملكي كما يحلو للبعض ترجمته أحياناً). وينتحل ذلك اللقب عدد من الشخصيات من طبقات المجتمع العليا أو المتوسطة. ولابد أن ذلك يشير إلى نشأتهم داخل إطار القصر الملكي بصفتهم "غلمان في خدمة الأمير"، أو على أية حال كرفقاء للأمراء الملكيين سواء كانوا من الورثة الشرعيين أم لا. وقد دفعتنا أسماؤهم إلى الاعتقاد أحياناً بأن هؤلاء الأطفال ليسوا مصريين وإنما من أصل أجنبي، بيد أنه سيكون من الخطأ الفادح تعميم هذا الرأي. وقد انخرط العديد من "أطفال السرايا" في سلك العمل العسكري على الأحرى، وإن كنا نجدهم في كافة مجالات ودوائر المجتمع. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن «عبريا» كان أول كبير وزراء وأب إلهي من بين "أولاد السرايا". وعلى أية حال يمكننا استنتاج أنه كان منذ حداثة سنه على علاقة بالبلاط والأمراء (ومن بينهم «امنحتب الرابع» الذي ربما كان يصغره سناً). ويتماشى ذلك مع كافة مدلولات الألقاب التي نحن بصدد دراستها.

كثيراً ما كان أصحاب الرتب العليا في الدولة الحديثة، وعلى الأخص خلال الأسرة الثامنة عشرة، يشغلون في نفس الوقت وظائف متعددة ترتبط – في أعيننا – بمجالات مختلفة : بلاطية ومدنية وكهنوتية وعسكرية. وهو أمر مشابه – مع مراعاة كل النِسَب – للدور الذي كان يلعبه بعض النبلاء والشخصيات البارزة في الحكومة الفرنسية قبل قيام ثورة ١٧٨٩. ترى ماذا كانت الحال بالنسبة لـ« عبريا » ؟ هل تعيننا الوثائق المحفوظة على البحث والتحري في هذا الاتجاه ؟ وفي الحقيقة يمكننا أن نذكر – مع كافة التحفظات على المستوى العسكري – لقب "رئيس الخيول" بمعنى قائد العجلات الحربية. وإن كنا لسنا واثقين تماماً من قراءة تلك الألقاب نظراً لحالة النصوص السيئة من الحفظ. أما إذا صدق ذلك فسنتذكر أن « حوي »، ابن « عبريا »، كان بكل تأكيد قائد العجلات الحربية. وعلى هذا النحو كانت الألقاب تتوارث أحياناً من جيل إلى آخر. وسنتذكر كذلك أن « يويا » الشهير كان هو أيضاً يشغل نفس المنصب (فضلاً عن العثور داخل مقبرته على عدد من العجلات الحربية).

ومن الناحية الدينية، لم نعثر على أية مؤشرات خاصة حتى الآن، فيما عدا بعض العلامات المطموسة نصفياً والمدونة على اللوحة الثالثة للحجرة الأولى. ونستدل منها على لقب « bak tepy n Iten » بمعنى « كبير كهنة آتون »، وبقية النص مطموسة. إلا أن الأمل يراودني في الاستدلال على بعض تلك العلامات عن طريق الاستعانة بتقنيات التصوير الفوتوغرافي الخاصة. وفي حالة تأكدي من قراءة تلك الألقاب فسيُعد ذلك أمراً جديداً وجوهرياً : إذ تشير إلى أن « عبريا » ربما شغل منصباً مرموقاً يتعلق بعقيدة الإله « آتون » "الجديد". ولكن في هذه الحالة هل يرتبط ذلك المنصب بمعبد « آتون » في « منف »؟ إننا نعرف بالفعل، أو نظن معرفة « كبار كهنة آتون » في العاصمة الجديدة نفسها، أي في « اخت آتون » (تل العمارنة) ؛ ولكن كيف ندرج ذلك في سياق التسلسل الزمني ؟ فإذا كان « عبريا » قد مارس القدر الأعظم من منصبه في عهد « امنحتب الثالث » كما تشير العديد من القرائن، فهل يجب أن نستنتج إذن أن العقيدة الآتونية بكهنتها المخصصين قد تم إرساء دعائمها منذ عهد ذلك الملك ؟ سيكون ذلك الاستنتاج جديداً جداً. أم هل

يُعد ذلك برهاناً على أن «عبريا» قد ظل في منصبه على الأقل بعض الوقت في عهد «امنحتب الرابع» ؟ ولماذا لم يرد ذكر ذلك اللقب في مكان آخر بالمقبرة، أو على القطع الأثرية داخل الحجرة الجنائزية على سبيل المثال ؟ ترى هل تقلد ذلك المنصب في وقت متأخر جداً لدرجة حالت دون إمكانية تدوينه على القطع التي كانت معدة منذ فترة طويلة؟ في حقيقة الأمر فإن الحجرة الأولى للمقبرة أو «المقصورة» — وعلى الأخص الأجزاء المرسومة فقط والتي لم يتسع الوقت لنحتها مثل اللوحة الثالثة بالتحديد — قد تم استكمالها على يدي ابن كبير الوزراء ربما عقب وفاة هذا الأخير. ولعل نص الإفريز الأفقي لنفس تلك الحجرة يوحي لنا بذلك.

وعلى هذا النحو يشير كل شيء إلى الدور البارز والمتعدد الوجوه الذي لعبه «عبريا» في مؤسسات الدولة. بيد أن كل شيء يظل في نفس الوقت معلقاً يصعب تفسيره. ولكي نتمكن من تقييم كل ذلك بصورة أفضل يتعين علينا التوصل إلى مضاهاة المعطيات الخاصة بـ«عبريا» و«حوي» من ناحية، وعهد كل من «امنحتب الثالث» و«امنحتب الرابع» من ناحية أخرى. كما يستلزم الأمر وضع إطار دقيق للتسلسل الزمني، وإن كانت نقاط الغموض التي تشوب تلك الحقبة التاريخية تحول دون امكانية تنفيذ ذلك في الوقت الراهن.

عصر الملك «امنحتب الثالث»

هناك عصور لاتدوم أكثر من عدة عقود ولكن ذكراها تظل محفورة في الذاكرة لملايين السنين. إذ تمثل فترات توهمنا باستتباب نوع من الاستقرار والتوازن والوفاق والقوة والصفاء في نفس الوقت. ويرتبط كل ذلك بشخصية الإنسان أو الملك أو الحاكم الذي هيأ ذلك النجاح. وينطبق ذلك على سبيل المثال على بلاد الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد في ظل ما اصطُلح على تسميته «عصر بريكلس Périclès». أما مصر القديمة فقد عاشت فترات عديدة مشابهة ربما كان أعظمها على الإطلاق فترة حكم «امنحتب الثالث» التي استمرت نحو أربعين عاماً. وقد تميزت بالنفوذ والقوة والثراء والعظمة لدرجة جعلتها تتصف بـ"النظام والجمال والترف والسكينة والمباهج" كما جاء على لسان الشاعر الفرنسي «بودلير

BAUDELAIRE » في إحدى قصائده. كانت مصر تهيمن على امبراطورية مترامية الأطراف تضم كل من النوبة والسودان وسوريا وفلسطين. وكانت الثروات تتدفق عليها من كل مكان، والبلاط الملكي يعيش حياة مترفة. كما عاد ذلك بالنفع العظيم على إله الامبراطورية «آمون» ومعبده وكهنته. وتم تكوين جيش قوي ؛ وبالطبع تنامت أهمية كبار العسكريين على الرغم من أن مصر لم تعد تقريباً في حاجة إلى خوض المزيد من الحروب. فقد شن الفراعنة السابقون، لاسيما «تحتمس الثالث»، قدراً كافياً من المعارك حتى أصبح من الممكن العيش الآن على أمجادهم وانتصاراتهم. ولا يمنع ذلك أحياناً من توجيه بعض الحملات لقمع حركات التمرد واستتباب الأمن هنا وهنالك. بيد أن دور الجيش اقتصر في أغلب الأحيان على تأمين سير الأمور بالبلاد. كان المبعوثون الشخصيون ورسل فرعون يخترقون في جلجلة سهول سوريا على متن عجلاتهم الحربية دون أن يعترض طريقهم أحد. ومن حين لآخر كانت الشعوب الخاضعة لمصر ترسل الجزية المفروضة عليها، وتقدمها للملك من خلال احتفالات شبه "هوليودية" تعكس نفوذ مصر وسطوتها.

كما كان الرجال القادمون قسراً (مثل أسرى الحرب) أو طواعية (مثل مختلف المتخصصين، واللاجئين وغيرهم) يتدفقون على مصر من شتى بقاع الأرض. وقد نشأ عن ذلك المزيج من مختلف الجنسيات طابع خاص بدأ يسود حتى داخل أوساط البلاط الملكي. ومن ثم فقدت مصر سحرها المتقشف وبساطتها الشديدة وذاتيتها الخاصة. غير أن ذلك المزيج الكبير من الشعوب الذي تميز به القرن الرابع عشر قبل الميلاد قد أفرز شكلاً خاصاً جداً من أشكال الثقافة والحضارة كان فريداً في إنجازاته التي لا تُعد ولا تحصى. وللدلالة على ذلك يكفي أن ندع أنفسنا ننجذب بسحر مقابر «طيبه» التي ترجع إلى ذلك العهد، أو نهيم ساعة العصاري بين صفوف أعمدة معبد الأقصر التي شيدها «امنحتب الثالث» من الحجر الرملي الوردي اللون.

تنبعث من عهد «امنحتب الثالث» صورة وضاءة وباهرة أكثر من اللازم فتغرينا بشدة في الوقوع في حبائل الخيال الجامح. وعلى هذا النحو يستقر بنا الأمر غالباً عند تخيل «امنحتب الثالث» في صورة طاغية شرقي غارق في الثروات والملذات والخليلات اللاتي يأتين من كافة أرجاء مملكته، تاركاً عنان السلطة الفعلية بين يدي زوجته العظيمة، الملكة «تي». وفي تلك الأثناء تعاظم نفوذ «آمون»، وعلى الأخص كبار كهنته، وتضخم سلطانهم بإفراط. وتشير هذه النظرة غير الواقعية إلى أن «امنحتب الثالث» ربما قد تمكن من الاحتفاظ بالسيطرة الصارمة على الموقف حتى قدوم ابنه «اخناتون» ليقوض ذلك البناء الشامخ. فبعد عهد رائع من الأحلام الجميلة

جاء عهد آخر من الكوابيس المزعجة. ولم تمض أكثر من أربعة أعوام حتى بدد الإبن تركة والده.

ولكن التاريخ ليس على هذا القدر من البساطة والتسطيح ! لامراء في أننا نحتاج إلى مثل تلك العهود البراقة حتى وإن استدعى الأمر تزويقها بعض الشيء، وحتى أن نصبغ عليها من ألوان أحلامنا. في الواقع كانت عوامل الأزمات والاضطرابات المتوارية موجودة في كل مكان على طول «عصر امنحتب الثالث». وعلى أية حال فإن عظمة تلك الحقبة التاريخية تتمثل في ذلك التغير والتطور الاجتماعي والثقافي ؛ وإن كان ضعفها يأتي من هروبها المتواصل إلى الأمام. وإذا حكمنا على الأمور من خلال ذلك المنظور فسندرك سريعاً امتداد جسور التواصل والاستمرارية بين عهدي «امنحتب الثالث» وخليفته «امنحتب الرابع»، وخطأ فكرة الانفصام الجذري بين هذين العصرين. وبالفعل يكتسب «عصر امنحتب الثالث» بعض العقود حتى وإن فقدت صورته جزءاً من بريقها وبساطتها. وعلى أية حال فإن الطابع الجديد وغير المتوقع للكنز الجنائزي لـ«عبريا» وأسرته يحثنا على إعادة تقييم الأمور من خلال هذا المنطلق. وبالتأكيد لن يفقد القرن الرابع عشر الفرعوني من عظمته ورفعته. كما تثبت لنا بعض القطع الأثرية التي أمدتنا بها المقبرة أن عدم ثبات الأوضاع السياسية والدينية التي تشكل خلفية «عهد امنحتب الثالث» لن تفقده إحدى انجازاته العظيمة : ألا وهي السيطرة على مفهوم الجمال.

آبــاء وأبنــاء

«عبريا» وابنه «حوي» من ناحية، و«امنحتب الثالث» وابنه «امنحتب الرابع» (اخناتون) من ناحية أخرى : سيكون من السذاجة الاعتقاد بأن كبير الوزراء قد مارس مهام منصبه في عهد فرعون الأسرة الثامنة عشرة العظيم ؛ بينما خدم ابنه في عهد خليفته «امنحتب الرابع». وإذا كانت المصادفة تسمح أحياناً بوقوع مثل هذا التناظر، يجدر بنا الاعتراف بندرة حدوث ذلك سواء في مصر أو في غيرها من البلدان. وبالتالي يجب علينا أن نتجاوز ذلك التصوّر البسيط، بل المفرط في السذاجة.

وبادىء ذي بدء نشير إلى أن دراسة القطع المكتشفة والنصوص، وعلى الأخص الفحص الانثروبولوجي للمومياوات سيكون من شأنه

تسليط أضواء جديدة لاسيما على فترة حياة كل من « عبريا » وابنه. ومن ثم ستظل بعض استنتاجاتنا مؤقتة.

نتكهن من خلال العديد من القرائن، لاسيما صور في حالة سيئة جداً من الحفظ منقوشة على إحدى ركائز الحجرة الثانية، بأن « عبريا » لم يكن له ابن واحد فقط وإنما إثنان على الأقل ؛ بالإضافة إلى ابنة واحدة أو بنات كثيرات على أية حال. غير أنه لا يسعنا إضافة أي شيء آخر في الحالة الراهنة. يبقى أمامنا إذن « حوي » الذي يُعد اسماً تصغيرياً مألوفاً لأسماء طويلة ومركبة تضم عادة عنصر « آمون » وتعني: « (الإله) آمون فعل (هذا الشيء أو ذاك) »، أو « هو (هكذا أو كذلك) ». وفضلاً عن ذلك فإن اسم « امنحتب Amenhotep » – الأكثر شيوعاً في شكله الإغريقي « امينوفيس Aménophis » – يمكن اختصاره إلى « حوي ». علماً بأن نفس الركيزة في الحجرة الثانية للمقبرة تحمل نصاً في حالة سيئة من الحفظ يوحي لنا بأن الاسم "الحقيقي" لـ« حوي » كان « امنمحات Amenemhat » بمعنى (آمون في المقدمة). ترى هل يقتصر الأمر على كونه عادة شائعة خاصة بأسماء الأعلام، أم يجدر بنا التكهن بأن الاعتبارات "السياسية" قد دفعت ذلك الشخص إلى طمس عنصر « آمون » الذي يدخل في تركيب اسمه في عهد أصبح فيه هذا الإله مثاراً للشبهات والريبة ؟

وعلى الرغم من شيوع إسمي « امنمحات » و« حوي »، ما من شيء يسمح لنا في الواقع بربط ابن « عبريا » بوثائق أو قطع أثرية أخرى تحمل اسمه على سبيل الاحتمال ؛ باستثناء لوحة حجرية صغيرة قد تأتي من قطاع هرم الملك « تيتي »، أي على مقربة من الجرف الصخري. وعلى هذا النحو يتضح لنا أن « عبريا »، أحد أصحاب الرتب العليا في الدولة المجهولين لنا حتى الآن، كان له إبن يُدعى « حوي » ذو منزلة رفيعة جداً هو الآخر وإن كان مجهولاً كذلك حتى الآن.

ترى من هو « حوي »، أو على الأحرى أي منصب كان يشغله ؟ إننا لا نعرف عنه شيئاً أكثر مما نعرفه عن أبيه، لدرجة أن حتى دفنه في هذه المقبرة يطرح العديد من التساؤلات. فإن المقابر العائلية معروفة تماماً في مصر، ولا تنقصنا الأمثلة على مدافن تضم رفات جيلين على

الأقل معاً. بيد أنه في حالة رجل على نفس القدر من الأهمية مثل «حوي» كان من الممكن أن يستأثر بمقبرة خاصة به، أو على الأقل أن نعثر على قرائن تشير إلى أن المقبرة العائلية التي سيُدفن فيها ستكون كذلك مقبرته هو. غير أن الأمر يختلف تماماً، إذ يطالعنا فقط نص موجز يشير إلى قيام «حوي» بإتمام مقبرة والده. إن وفاته قبل الأوان بصورة غير متوقعة - كما يمكن أن يوحي به الفحص الدقيق لهيكله العظمي - ربما يفسر لنا ذلك الوضع. غير أن مثل هذه الوفاة لا تتماشى من ناحية أخرى مع مكانة هذا الشخص التي لايمكن تخيلها إلا إذا افترضنا أنه تقلد مسئوليات ووظائف مرموقة في سن مبكرة جداً.

إن أهمية «حوي» لابد وأنها تنبع أولاً من أهمية والده ؛ إذ كان المجتمع المصري القديم يرتكز على توارث المناصب والامتيازات الاجتماعية، حتى وإن كان يبرز بين الحين والآخر رجال صفر اليدين يرتقون بجهودهم إلى ذروة المجتمع، ويقللون بعض الشيء من صرامة النظام الاجتماعي. غير أن منزلة «حوي» الاجتماعية تتجلى لنا بوضوح من خلال أثاثه الجنائزي وألقابه. وبالفعل يصعب علينا كثيراً إعزاء بعض القطع المكتشفة داخل الغرفة الجنائزية في المستوى الرابع إلى «حوي» أم إلى أبيه أم إلى أمه. ومع ذلك فإن التابوت المنقوش عليه صورة الإلهة «نوت» وعمود الأحرف الهيروغليفية المرصعة بعجينة الزجاج، يوحي لنا من خلال قيمته الفريدة بأن صاحبه كان شخصاً لا يستهان به إطلاقاً. كما تؤكد لنا ذلك ألقابه التي عثرنا عليها حتى الآن. وهي تدور في فلك المناصب العسكرية، وتقتصر على هذا المجال دون سواه. ولعل ذلك يوحي بأن مناصب «حوي» - وبالتالي حياته نفسها - كانت قصيرة ولم تسمح بتفتق كافة مواهبه وإمكانياته. أما عن ألقابه فهي : "رئيس الجياد" أو "رئيس الدواب"، و"كاتب المجندين الجدد لسيد الأرضين". كان «حوي» إذن قائد سلاح الفرسان، أي على رأس سلاح رئيسي يضم صفوة المحاربين في المؤسسة العسكرية المصرية. وقد عرفت مصر الحصان والعربة الحربية - اللذين يعود أصلهما إلى منطقة الشرق الأدنى وربما إلى الهكسوس - خلال الفترة السابقة للدولة الحديثة. وسرعان ما أصبحا إحدى العوامل المميزة والهامة للفتوحات العسكرية المصرية في ظل الأسرة الثامنة عشرة، مما سمح

بتأسيس امبراطورية كانت مصدراً للثراء والنجاح اللذين عرفتهما مصر في ذلك الحين. كما نعلم أن «يويا» و«أي» على سبيل المثال كانا كذلك قائدين لسلاح العجلات الحربية. وفضلاً عن ذلك ربما كان هناك أشخاص عديدون يحملون هذا اللقب (وللدلالة على ذلك يكفينا أن نشير إلى الأوجه المتنوعة والعديدة للقب ومنصب "القائد" في لغاتنا المعاصرة !). وفي نفس الوقت كان ذلك اللقب يعكس منزلة اجتماعية هامة لا تنطوي بالضرورة على نشاط عسكري متقد، لاسيما خلال فترات السيادة المصرية كما كان الحال في ظل عهد «امنحتب الثالث».

وبالاضافة إلى لقب "القائد"، ينتحل «حوي» أيضاً لقب "كاتب المجندين الجدد" للملك. إن لقب "كاتب" في اللغة المصرية القديمة (سش sesh) يمكن أن يشير إلى موظف صغير مرؤوس مهمته النسخ والتدوين، كما كان يرتبط في بعض الحالات برتب محددة يشغل أصحابها بالفعل مناصب وزراء في الدولة (مثل "كتبة الملك"). وينطبق هذا الوضع على «حوي»، إذ أن إضافة "المجندين الجدد" (في اللغة المصرية القديمة «نفيرو neferou» علاوة على العلامة الهيروغليفية التي تمثل الجندي) تضفي على ذلك اللقب إيضاحاً هاماً. ولعل المجندين الجدد لا يشيرون بالضرورة إلى الشبان الذين يتم تعبئتهم للخدمة في صفوف الجيش بحصر المعنى، وإنما أيضاً عند الاقتضاء فرق الشبان المجندين لتنفيذ مختلف الأعمال. وقد كان ذلك على ما نعتقد منصباً هاماً. ولنشر على سبيل المثال إلى أن المهندس المعماري الشهير «امنحتب بن هابو» – أحد المقربين إلى «امنحتب الثالث» – كان يضطلع بمسئوليات رفيعة في مجالات متنوعة، كما كان ينتحل من بين ألقابه ومناصبه الأخرى لقب "كاتب المجندين الجدد". وأخيراً سنكتفي بالتذكير بأن «حوي» قد اختار هذا اللقب فقط لتدوينه على تابوته الرائع. ولعل السر في ذلك هو كونه أكثر أهمية من لقب "قائد العجلات الحربية".

لانستطيع في الوقت الحاضر أن نؤكد أن «حوي» قد عاش بالفعل ومارس مهام منصبه عقب وفاة والده. فربما كان قائداً وكاتباً للمجندين الجدد بينما كان «عبريا» كبير وزراء وأباً إلهياً. بل لعله

توفي قبل والده بوقت قصير (مما يفسر لنا دفنه في نفس المقبرة العائلية). وكم كان من المفيد التوصل إلى معلومات دقيقة بهذا الشأن ! (وربما يتضح لنا ذلك في ضوء الدراسات التي سنجريها لاحقاً). إذ تتشابك كل هذه المسألة مع تحديد في أي عهد من العهود عاش الأب وابنه ومارسا سلطاتهما. وفي هذه النقطة تندرج أسماء الملوك التي تم اكتشافها داخل المقبرة.

وستطالعنا في هذا المضمار علاقة أخرى بين الأب وابنه معروفة بصورة أفضل وحافلة بالاستنتاجات من الناحية التاريخية ؛ كما أثارت كثيراً من التعليقات لدى المتخصصين، وقدراً من الاهتمام لدى الجمهور العريض. إننا نقصد بذلك تعاقب «امنحتب الثالث» و«امنحتب الرابع» على الحكم، وبصورة أشمل الدور الذي لعبه كل منهما في إرساء وإنعاش عقيدة الإله «آتون»، والنتائج العديدة والهامة التي تمخضت عن ذلك على المستوى الديني بدون شك، وكذلك على المستويات السياسية والفنية والايديولوجية ...الخ.

ولتلخيص ذلك الموقف سنكتفي بالإشارة إلى انقسام علماء المصريات الذين تناولوا هذه القضية إلى مذهبين رئيسيين. وتتمثل نقطة الاختلاف بينهما في احتمال المشاركة في الحكم بين الأب «امنحتب الثالث» وابنه «امنحتب الرابع»، الذي عُرف فيما بعد باسم «اخناتون». وفي الواقع يعتقد بعض علماء المصريات – استناداً إلى عدد من الوثائق والقرائن – أن الفرعون القوي (الذي حكم طيلة ثمانية وثلاثين عاماً) قد أشرك معه ابنه في الحكم عندما تقدمت به السن وفقاً للأعراف التشريعية التي كانت سائدة في البلاد. وتعني المشاركة تنصيب الوريث الشرعي للحكم كفرعون إلى جانب والده، ومنحه الخراطيش الملكية والتيجان وكافة الامتيازات والمظاهر الخارجية للسلطة. وفي حالة «امنحتب الثالث» و«امنحتب الرابع» كانت المشاركة في الحكم هامة على نحو خاص. أولاً من الناحية الزمنية، إذ دامت أكثر من عشرة أعوام، وهو أمر جلل. وثانياً من الناحية السياسية والتشريعية إذ أنه بمغادرة «امنحتب الرابع» لـ«طيبه» وتأسيسه لعاصمته الجديدة المعروفة بـ«تل العمارنة» في العام الخامس من

حكمه، ينبغي علينا التكهن بازدواجية البلاط الملكي ومراكز النفوذ والسلطة المتوازية على امتداد سنوات عديدة مما يطرح بعض المشكلات. وأخيراً فإن وجود تلك المشاركة في الحكم خلال سنوات حاسمة وعصيبة يغير من نظرتنا إلى أصول نشأة وتطور العقيدة «الآتونية»، وعلى الأخص النزعات الجذرية إلى حد ما التي صاحبت بداياتها.

وبالتالي يفسر لنا ذلك أن العديد من علماء المصريات الآخرين المتخصصين في تاريخ ذلك العصر - بل ربما أغلبهم - لا يؤيدون فكرة المشاركة في الحكم نظراً لأن وجودها يثير تساؤلات عديدة. كما يجدر بنا الاعتراف بصعوبة التسليم بكافة العلاقات الضمنية التي تنطوي عليها، لاسيما من الناحية التشريعية، وعلى الأخص على امتداد مثل هذه الفترة الزمنية الطويلة. ناهيك عن الخوض في المشكلات الشائكة والمعقدة والمتعلقة بالتسلسل الزمني. وبالمثل فإن نهاية عهد «اخناتون» والسنوات التالية له وفترة حكم خلفائه المباشرين تطرح كذلك العديد من المشكلات التي تثير بدورها مناقشات محتدمة. بيد أن تلك المناقشات تنهل غالباً من نفس المصادر، ومن نفس الوثائق، ومن نفس الحقائق. ومن هنا تبرز أهمية أي شيء من شأنه تجديد تلك التساؤلات، أو على أية حال إضافة عناصر جديدة إليها.

ومن هذا المنطلق نتبين أهمية كل من «عبريا» و«حوي»، ليس فقط من خلال الدور الذي لعبه كل منهما، وإنما أيضاً وبصورة أشمل نظراً للمعطيات الجديدة التي يمكن استخلاصها من دراسة المقبرة والأثاث الجنائزي المكتَشَف داخلها. ومن شأن ذلك إنعاش وإعادة طرح المناقشات حول أكثر المسائل المتنازع عليها بين علماء المصريات. ويُعتبر ذلك من بين المعطيات الرئيسية من وراء "إعادة بعث" «عبريا» وابنه إلى الحياة من جديد. ولكن حذار أن ننخدع : فلا يعني ذلك حسم الأمور بصورة نهائية إذ سيتطلب تفسير تلك المعطيات الجديدة - التي ليست واضحة تماماً - المزيد من الوقت، وسيختلف بالضرورة باختلاف ميول كل واحد من المتخصصين.

إن أكثر الأمور الموضوعية التي تم اكتشافها داخل المقبرة في هذا الصدد هو وجود قطع أثرية تحمل خراطيش «امنحتب الثالث» وقطع أخرى تحمل خراطيش «امنحتب الرابع». وفي الواقع فإن الميزان غير متكافيء بينهما، وإن كان ذلك مرجعه إلى عنصر المصادفة في سرقة بعض القطع واختفائها. وبالفعل فقد دُونت أسماء «امنحتب الثالث» المسهبة على قطع هامة : قرط وصندوق خشبي صغير يحمل أيضاً اسم الملكة «تي». وعلى النقيض من ذلك تقتصر خراطيش «امنحتب الرابع» على وجود اسم تتويج الملك (نيفر خبرو رع Nefer-Kheperou-Re الذي يحبه اونيفرOunnefer) على آثار أختام من الطين كانت تسد الآنية والصناديق. كما نوجه عناية القاريء إلى أنه في الوقت الراهن لم يتم العثور على أي صلة بين كبير الوزراء وابنه من ناحية وبين أحد هذين الملكين من ناحية أخرى. غير أنه يمكننا التكهن اعتماداً على مكان القطع الأثرية التي تحمل اسم «امنحتب الثالث» وبعض المؤشرات الأخرى إلى أنها ترجع إلى «عبريا» على أية حال.

ملك وملكة

من بين المستحدثات التي طرأت خلال عهد «امنحتب الثالث» يمكننا أن نذكر بكل تأكيد الدور الذي كانت تلعبه الزوجة الملكية العظيمة. إذ كانت هذه الأخيرة تحتل مركز الصدارة إلى جانب الملك، بل وعلى نفس مستواه بالفعل. وقد استمر ذلك العرف سائداً فيما بعد في عهد «امنحتب الرابع-اخناتون»، وحتى خلال الأسرة التاسعة عشرة و«رمسيس الثاني» على سبيل المثال.

بالطبع لم تكن الملكة «تي» الرفيقة الوحيدة لـ«امنحتب الثالث»، ولكنها الوحيدة التي تردد ذكرها بكثرة على امتداد فترة حكم الفرعون، بل وفيما بعد نظراً لامتداد العمر بها عقب وفاة «امنحتب الثالث»، ولعلها كانت تحظى بقدر من النفوذ على ابنها «اخناتون».

وقد عثرنا داخل الحجرة الجنائزية على قطعة أثرية تشير إلى أهمية الزوجين الملكيين «امنحتب الثالث» و«تي» : وهي عبارة عن صندوق خشبي صغير ورائع، مسطح الشكل، اكتشفنا عناصره واحداً تلو الآخر

خلال موسمي حفائر ١٩٨٨ و١٩٨٩. وقد صُنع هذا الصندوق المستطيل الشكل من الخشب الملون الجميل تزينه شرائط داكنة اللون. ويزدان محور الغطاء بشريط من الآبنوس، ومقبض مستدير من نفس الخشب، بالإضافة إلى مقبض آخر مماثل مثبت على الصندوق نفسه. كما عثرنا على بقايا الخيط المجدول الذي كان يسمح بربط المقبضين، ومن ثم إغلاق الصندوق بطريقة محكمة.

وقد نُقش على المقبضين خراطيش الملك «امنحتب الثالث» : «نب ماعت رع Neb–Maat–Re» و«امنحتب Amenhotep» (وهي الطريقة الصحيحة لنسخ الاسم الذي تحول عن خطأ إلى «امينوفيس Aménophis» في اللغة اليونانية). كما يحمل شريط الآبنوس نصاً طويلاً من الأحرف الهيروغليفية المحززة والملونة بالمداد الأبيض. ونقرأ فيه اللقبين الملكيين التاليين : [الإله المنزه عن كل نقص، الذي يعمل بيديه، مالك القوة، الوصي على الأقواس التسعة (أي الأعداء التقليديين للملك)، ملك مصر العليا والسفلى، «نب ماعت رع» ؛ والزوجة الملكية العظيمة، حبيبة قلبه، سيدة الأرضين، «تي»].

لازلنا نجهل إذا كان ذلك الصندوق الصغير يرجع إلى «عبريا» أو «تاؤورت» أو «حوي». ولعل الزوجين الملكيين قد أهدياه إلى أحدهم (ربما قبل وفاته) عرفاناً بفضله. وفي هذا الصدد ينبغي علينا أن نقرن تلك القطعة بالقرطين المستديرين المتماثلين المزدانين أيضاً بخراطيش الملك. كما يتعين علينا اعتبار ذلك المثال إشارة إلى هدية ملكية، ودليلاً على عمق الصلات التي كانت تربط «عبريا» بالعائلة المالكة.

وإذا كان يطيب دائماً لعالِم المصريات تأريخ وثيقة بدقة إلى حد ما بفضل وجود خرطوش ملكي أو عدة خراطيش، فإن سعادته تكون غامرة عندما يجد تاريخاً محدداً يشير إلى العام الفلاني من حكم الملك الفلاني. إذ يُعد ذلك معلومة ثمينة جداً من حيث التسلسل الزمني. فلم يكن المصريون القدماء يملكون تقويماً زمنياً متصلاً، وإنما كانوا يؤرخون الأحداث تبعاً لحكم الفرعون الذي كانت تقع في عهده. وقد أمدتنا المقبرة بمثل هذا النوع من التأريخ ؛ غير أن سعادتنا لم تكتمل بسبب وجود العام بالفعل واختفاء اسم الفرعون...

وقد وجدنا تلك المعطيات الهامة مرات عديدة مدونة على ما اصطُلح على تسميته "بطاقات الجرار". وفي الواقع فقد عثرنا على

قوارير عديدة لحفظ النبيذ مخروطية الشكل، نعكف حالياً على إعادة تجميع عناصرها المهشمة والناقصة أحياناً. وتحمل العديد من تلك الجرار – كما هي العادة غالباً بالنسبة لمثل ذلك النوع من القطع – نصوصاً مدونة بالقلم الهيراطيقي تشير إلى طبيعة ما تحتويه ومصدره، وتاريخ انتاجه واسم صاحبه. وفي حالة قوارير النبيذ، تشتمل البطاقة على سطرين يحددان اسم المصنع والكرمة، وتاريخ جني المحصول أو التعبئة في "البراميل"، واسم صاحب حقول الكروم أو على أية حال صاحب الجرة أو حتى رئيس زراع الكروم. ويشير عدد من الجرار الموجودة في غرفة الدفن إلى أن النبيذ الذي بداخلها يرجع إلى "رئيس الجياد، حوي". كما تحدد تاريخ الانتاج : "العام العاشر" دون ذكر اسم الفرعون كما لو كان ذلك بديهياً، أو على أية حال غير ضروري من الناحية العملية.

وعلى هذا النحو نستنتج من خلال تلك الإشارة الهامة أن «حوي» لم يمت على أية حال من الأحوال قبل العام العاشر من حكم ملك ما، وإن كان بالإمكان تحديد اسمه بدون صعوبة. فإذا وضعنا في اعتبارنا مجمل السياق الزمني للمقبرة ومحتوياتها، فلابد أن يكون ذلك الملك إما «امنحتب الثالث» وإما خليفته «امنحتب الرابع». ويمكننا استبعاد الملك الأول نظراً لأن العام العاشر من حكمه يُعتبر تاريخاً سابقاً عن اللازم بالنسبة لـ«حوي» ؛ علاوة على أن والده «عبريا» ربما عاش حياته وشغل منصبه كلياً أو في معظمه في ظل حكم «امنحتب الثالث». لا يبقى أمامنا إذن سوى «امنحتب الرابع». وفي هذه الحالة سنصطدم بقضية مشاركته في الحكم مع والده. فإذا نحينا فكرة المشاركة جانباً، فإن العام العاشر من حكم الملك الذي أصبح منذ خمسة أعوام «اخناتون» يجعلنا ندهش لعدم العثور وسط الأثاث الجنائزي على المزيد من القرائن المباشرة والمؤكدة لذلك الفرعون : ألقاب ومراجع دينية وفنية مميزة لعهده على سبيل المثال، على الأقل في أثاث «حوي». وعلى النقيض من ذلك توحي العديد من العناصر إلى أن المقبرة ومحتوياتها ترجع إلى فترة ما بين العهدين، وعلى أية حال إلى نهاية عهد «امنحتب الثالث». وفضلاً عن ذلك فقد رأينا أن «حوي» ربما لم يشغل منصبه لفترة طويلة، وبالتالي لم يمتد به العمر كثيراً.

وعلى العكس من ذلك، فإذا اتفقنا على وجود المشاركة في الحكم، فإن العام العاشر من عهد «اخناتون» يمكن أن يقابله العام الثامن والثلاثون من حكم «امنحتب الثالث». عندئذ يضيق التفاوت الزمني بحيث تصبح شتى المعطيات التي أمدتنا بها المقبرة ومحتوياتها أكثر تماسكاً، وتندرج بصورة أفضل داخل سياق الفترة الزمنية القصيرة التي نتكهن بها. وفي هذه الحالة يجدر بنا الاعتقاد بأن «حوي» كان يرتبط على الأخص بشخص «امنحتب الرابع»، ولعله مارس مهام منصبه تحت إشراف ذلك الفرعون مباشرة. وربما كان «امنحتب الثالث» لايزال على قيد الحياة عقب وفاة «عبريا». غير أن «حوي» قد أكمل المقبرة، ووضعها هي ووالده تحت حماية الإله «آتون» (النص المنقوش على إفريز الحجرة الأولى يشير بجلاء ووضوح إلى هذا الأمر). ولعل «حوي» قد دَوَّن على جدران المقبرة كذلك من بين ألقاب والده لقب «كبير كهنة آتون»، بينما لم يسنح الوقت لـ«عبريا» بحمل ذلك اللقب فعلاً. بيد أن كافة تلك الاستنتاجات تفترض قبول فكرة المشاركة في الحكم بين «امنحتب الثالث» و«امنحتب الرابع» كما سبق أن أوردنا. ولعل ذلك يمثل إحدى المعطيات الحديثة التي يلهث المؤرخون وراءها بغية تجديد وإنعاش جدال بدأ يدور في حلقة مفرغة. وعلى أية حال فإن ذلك هو الوضع لحظة كتابة هذه السطور. وسننجح بالتأكيد في المستقبل القريب في حسم تلك القضية. عندئذ ستتجلى لنا أهمية المقبرة ومحتوياتها في حل تلك المشكلات الشائكة والهامة جداً في نفس الوقت.

«طيبه» و«العمارنة» و«منف»

بخلاف التواريخ ومعطيات التسلسل الزمني الهامة بالنسبة للمؤرخين، فإن مقبرة «عبريا» — ويمكن أن نقول تقريباً مقبرة «حوي» — تقحمنا بالفعل في صميم قضية «العمارنة». ونقصد بذلك مجموع المشكلات التي تثيرها دراسة فترة تاريخية عصيبة لاتزال بداياتها ونهاياتها وحتى حيثياتها الأساسية غامضة بالنسبة للمؤرخين. إذ لا يجب أن ننخدع : فعهد «امنحتب الرابع» قد أثار

ولايزال تناولات واجتهادات تميل إلى الخيال وأدب الرواية التاريخية أكثر من ميلها إلى علم التاريخ المنهجي. ويرجع ذلك إلى خصوصياتها وسحرها المؤكد، وكذا إلى الانطباع الخاطيء بأن إلمامنا بها يفوق معرفتنا بغيرها من الحقب التاريخية. أضف إلى ذلك قدراً من التصور والخيال، وإقبال بعض الباحثين وإعراض البعض الآخر عن دراسة تلك الفترة التاريخية دون التقيد أحياناً بالنظرة الموضوعية، أو على الأقل تفسيرها وتحليلها بصورة ذاتية ووفقاً لمعطيات ترجع إلى عصر لاحق أو حتى معاصرة. وللدلالة على ذلك سنكتفي بالإشارة إلى كتابين من بين العديد من المؤلفَات لاثنين من الهواة أو على قدر عظيم من المعرفة والاطلاع : أولاً «دانيال روبس Daniel Rops » ومنظوره الديني الذي نستشفه من خلال كتابه « الملك المهووس بالإله *Le Roi ivre de Dieu* » ؛ وثانياً «سيجمون فرويد Sigmund Freud » في « موسي وعقيدة التوحيد *Moïse et le Monothéisme* »، وهو كتاب هام في حياة مؤلفه ومجموعة أعماله، وإن كان لا يمت بصلة إلى المنهج التاريخي والمعطيات الثابتة والمؤكدة.

تتمثل قضية العمارنة في مجموعة من التساؤلات الحائرة التي لا تجد حتى الآن إجابات شافية تماماً. ومن هنا تنبع الأهمية الخاصة لأي اكتشافات من شأنها تجديد، أو على الأقل تغيير نظرتنا إليها. ولكن ما مدى إسهام مقبرة « عبريا » والأثاث الجنائزي المُكتشَف داخلها في هذا الصدد ؟ وكيف يمكن لعودة تلك الشخصيات إلى الساحة التاريخية تسليط أضواء مختلفة على تلك الحقبة التي لانلم بها إلماماً تاماً؟ لن يسعنا في هذا المضمار سوى إبداء بعض الإجابات السطحية الممكنة في هذا الطور من أطوار البحث والتحليل.

وباديء ذي بدء ينبغي الإشارة إلى ضرورة عدم تقييم فترة حكم « امنحتب الرابع » منذ نشأتها وحتى نهايتها من منظور جغرافي يقتصر على « طيبه » و« تل العمارنة » فقط. فلانزال نميل حتى الآن إلى الاعتقاد بأن الحياة في مصر خلال تلك الحقبة التاريخية الخاصة كانت تنحصر في تلك العاصمتين دون سواهما. كما لو كانت « منف » – التي نجهل دورها تماماً في ظل الدولة الحديثة – وبقية أنحاء مصر لاسيما

شمال البلاد قد توقفت عن الحياة في ذلك الحين، أو كما لو كان نبض الحياة راح يخفق ببطء شديد فيها. وقد بدأنا الآن بكل تأكيد في إدراك أهمية « منف » عقب عهد العمارنة. ومن الثابت أن «توت عنخ آمون » قد استقر فيها وليس في « طيبه » بعد أن عادت الأمور تدريجياً إلى نصابها القديم. ومن ناحية أخرى، يتجلى لنا بوضوح تفوق « منف » من خلال انتشار المقابر الرائعة التي شُيدت فيها في الفترة التالية مباشرة لعهد العمارنة. وللدلالة على ذلك تكفينا الإشارة إلى الاكتشافات العظيمة التي قامت بها البعثات الأثرية الإنجليزية والهولندية والمصرية في سقارة منذ بضعة أعوام.

غير أن المظاهر المتنوعة لاكتشاف مقبرة « عبريا » التي ينبغي دمجها مع باقي الأمور المتفرقة حتى الآن تشير جيداً إلى أن « منف » وبالتالي سقارة قد لعبتا بكل تأكيد دوراً لايستهان به على الأقل على امتداد قرابة العشرين عاماً التي سبقت العودة إلى استقرار النظام الجديد. وما الذي يحول دون ذلك ؟ فهل قام السكان العديدون بهجرة المدينة في غمضة عين ؟ أم تراها فقدت موقعها الاستراتيجي ؟ وهل أصبحت ثكناتها خالية من الجنود ؟ وهل أغلق مرفؤها التجاري والعسكري وترساناتها وورشها ؟ وهل خلت أحياؤها المتعددة الجنسيات من ساكنيها ؟ يمكننا أن نفترض على أقصى تقدير أن الإقبال قد فتر على معابدها لفترة طويلة، أو أنها خضعت على أية حال لهيمنة لا تقبل المنازعة من طرف المعبد المحلي للإله « آتون ».

وتتمثل إحدى النتائج الإجمالية الهامة لاكتشاف المقبرة ومحتوياتها وشخصية أصحابها في إعادة إيجاد توازن لنظرتنا إلى الأمور. نعم، إيجاد توازن بين الدور الذي لعبته كل واحدة من المدن الكبرى الثلاثة في ذلك العهد. فإذا تخطينا ذلك يمكننا إعادة تقييم ما كانت عليه العمارنة (العصر) خارج إطار تل العمارنة (الموقع). وتشير الدراسة الواعية للوثائق إلى أن الانفصام السياسي والديني والفني المفترض حدوثه في عهد « امنحتب الرابع » لم يكن جذرياً بالصورة التي لايزال يحلو للبعض حتى الآن تخيلها أحياناً. فقد عثرنا داخل العاصمة الجديدة نفسها على قرائن تشهد بتقوى وورع عامة الشعب

بالنسبة للآلهة التقليدية التي تم تحريم عبادتها على ما يشاع. ولذا فبمقدورنا الاعتقاد بأن تلك الأفكار الجديدة كانت بالأحرى تبدو بعيدة جداً بالنسبة لمن يعيشون على بعد مئات الكيلومترات من البلاط الملكي، وذلك العالم المنغلق على نفسه الذي كانت تمثله «اخت آتون» ؛ لاسيما بالنسبة لمن يقطنون مدينة «منف» ذات التقاليد العريقة والتي لا غنى عنها لضمان حسن سير الأمور في البلاد. وقد يفسر لنا ذلك عثورنا داخل «منف» وسقارة مثل سائر المدن على آثار ترجع إلى عهد العمارنة تشير بوضوح إلى أشكال أخرى للإله الشمس مثل «رع حور آختي»، وهو أمر يسهل تفهمه ؛ وكذلك غيره من الآلهة مثل «أوزيريس» وهو أمر أكثر صعوبة على الفهم إذا انصب تفكيرنا داخل قوالب جامدة. ولعل كل ذلك السياق يفسر لنا أيضاً أن ما اصطُلح على تسميته فن العمارنة – الذي غالباً ما يخلط الناس بينه وبين مظاهره المبالغ فيها – نادراً ما نجده بصفته تلك في منطقة «منف» التي كانت تمتلك مدرسة خاصة في النحت والفن بصورة عامة، وتتمتع بتقاليد متأصلة جداً. وربما دعت الحاجة إلى التكيف قليلاً مع الأفكار الجديدة، ولكن دون أي زعزعة أو بلبلة للتقاليد السائدة. ولهذا السبب فإن الأمور والخصائص التي ترجع إلى عهد العمارنة بحصر المعنى ليست عديدة ولا تخطف الأنظار في مقبرة «عبريا» ومحتوياتها. ويمكننا الإشارة على نحو خاص إلى المنظر الكبير المنحوت على اللوحة الرابعة في الحجرة الأولى، والاختلاف في حجم تصوير الزوجين، ويدي وردفي الزوجة «اوريا»، والأشخاص الصغيرة التي تؤدي الطقوس الدينية. كذلك بوسعنا الإشارة إلى صورة «عبريا» المنقوشة على إحدى ركائز الحجرة الثانية. أما فيما يتعلق بالقطع الأثرية فينبغي علينا الالتفات على نحو خاص إلى بعض غطيان الآنية الكانوبية لـ«تاؤورت»، علاوة على الحلية وعناصر الترصيع، والآنية، ...الخ.

فى كنف الإله «آتون»

لامراء في أن عهد الملك «امنحتب الرابع» الذي انتحل اسم «اخناتون» في العام الخامس من حكمه يجسد انتصار الإله «آتون»، ولم يكن إلهاً جديداً نظراً لأننا بصدد تسمية قديمة لقرص الشمس، وبالتالي للإله–الشمس

التقليدي المعروف باسم «رع» أو «رع حور آختي» (بمعني رع-حورس الأفق) ؛ بعد أن أخذت أهميته من ناحية أخرى في التنامي منذ منتصف الأسرة الثامنة عشرة خاصة في عهدي كل من «تحتمس الرابع» ولاسيما «امنحتب الثالث». ولم يكن انتصار «آتون» بصفته إلهاً واحداً كما تجري العادة على تصويره. فلم تكن "الآتونية" بالنسبة لـ«اخناتون» عقيدة توحيد بالمعنى المتعارف عليه، كما نزلت به الديانات السماوية الثلاثة الكبيرة. وعلى أية حال فإن مفهوم التوحيد ليس من المفاهيم التي يسهل الإلمام بها خاصة عندما نضع في اعتبارنا أنه ثمرة تطور طويل (من البطاركة إلى الرسل لكي نقتصر على أولى العقائد الوحدانية العبرية).

في الواقع، يميل الآن أفضل المتخصصين إلى الاعتقاد بأن «آتون» كان بدون شك يحتل منزلة الإله الأسمى ولكن دون أن يعني ذلك إسقاط أو اقصاء باقي الآلهة كلياً، فقد ذابت فيه واحتواها. ومن ثم فإن النزعة إلى وحدانية الإله لا تنطوي على الاقتصارية بصورة منهجية. في الحقيقة سرعان ما ندرك التناقضات الهائلة التي تشوب الآتونية ومنهج «امنحتب الرابع». إن المنافس الرئيسي لقرص الشمس الذي تنتهي أشعته بأيدي (وهو التصوير التقليدي لـ«آتون») يتمثل أولاً في «آمون»، الإله العظيم الذي استفاد هو وكهنته من الثراء الهائل الذي عرفته مصر بفضل السياسة الامبريالية التي كانت تنتهجها. بيد أن العديد من مظاهر «آمون» كإله أسمى كانت تُعد تبشيراً لمفاهيم العقيدة الآتونية. ومن ناحية أخرى ينطبق نفس الأمر على بروز النزعة إلى إقصاء «أوزيريس» والمفاهيم الجنائزية التقليدية (المتمثلة في عالَم الموتى، والحياة داخل القبر، ومحاكمة الموتى، ...الخ).

وعلى أية حال فلا تزال «طيبه» وحتى العاصمة الجديدة «تل العمارنة» تحتفظ بقرائن تشير إلى أن المعتقدات والعبادات التقليدية ظلت قائمة داخل الأوساط الاجتماعية الأكثر شعبية، وربما كذلك في طبقة علية القوم. دون أن نغفل أيضاً بقية أنحاء مصر و«منف» على سبيل المثال، وغيرها من المدن والمناطق الأخرى. وفي هذا الصدد تُعتبر مقبرة «عبريا» ونقوشها ومحتوياتها من بين الشواهد العديدة التي تحثنا على إعادة النظر فيما كوّنّاه من مفاهيم بشأن "العقيدة" الآتونية.

لقد واصلت مصر الوجود والاحتفاظ بكيانها في ظل عهد «اخناتون». ولاجدال في أن تلك السنوات قد شهدت أحداثاً غريبة تماماً، وأن الملك قد أخذ يتدثر بعباءة الرسل، ونصب نفسه وسيطاً إجبارياً بين البشر والإله، وأن عبادته هو شخصياً (وعائلته الملكية) قد اتخذت أبعاداً هامة. غير أن كل ذلك كان قائماً بصورة متوارية في عهد «امنحتب الثالث». ولامراء أيضاً في أن «آتون» قد شغل أهمية فريدة وسط مجمع الأرباب ليس فقط

> بصفته الشخصية وإنما أيضاً من خلال المكانة التي احتلها. غير أن ذلك يستلزم قدراً من الرصانة والهدوء في الحكم على الأمور. إذ ينبغي ألا يظل «اخناتون» و«آتون» نقطة خلاف وانقسام بين علماء المصريات. ففي الوقت الراهن يمكننا رصد ثلاثة مواقف تجاههما قد تكون انفعالية ومبالغ فيها من قبل علماء ينبغي أن يتحلوا بالهدوء والتجرد، وحتى بالتعاطف المتزن والرزين تجاه أحداث غارقة في القدم، ولاتزال مجهولة بصورة كبيرة. فمن العلماء من يركزون كافة أبحاثهم على تلك الحقبة التاريخية، ويكنون لها تعلقاً انفعالياً وإعجاباً مفرطاً. وهناك أيضاً — وهم ندرة قليلة — من يدرسونها بدقة وإن كانوا يجاهرون بنوع من العداء والضغينة لـ«اخناتون». وأخيراً هناك باقي العلماء الذين يميلون إلى اعتناق النظرة الرسمية للمصريين أنفسهم إبتداء من عهد «حور محب»، وعلى الأخص إبتداء من الأسرة التاسعة عشرة : ومفادها أن «امنحتب الرابع» ربما ألحق أضراراً فادحة بمصر، وزج البلاد في حالة من الفوضى، ومن ثم لايستحق سوى اللعنة، وليس من الغبن إسقاط اسمه تماماً وأسماء من حذوا حذوه فيما بعد من سجلات التاريخ الرسمي وحتى من ذاكرة البشرية جمعاء. وبالطبع فإن ذلك الاستعراض لمواقف المحدثين من تلك الحقبة التاريخية يتسم بشيء من التسطيح : فهناك العديد من الفوارق الطفيفة التي يمكن رصدها، وعلى الأخص فإن ذلك الانحياز والأفكار المسبقة والشكوك تفتقد في أغلب الأحيان طابع الجد والرسوخ الذي تتسم به الأبحاث والدراسات التي ظهرت في هذا الموضوع. ويظل المستقبل غنياً بالوعود في هذا الشأن نظراً لأننا نرصد سواء على المستوى الأثري أو على مستوى دراسة النصوص، تجديداً للتساؤلات والمناهج يمضي على الطريق الصحيح.

وعسى ألا يلتبس علينا الأمر : فلا ينبغي أن ننساق وراء الانطباع بأن القطع الأثرية المكتشفة داخل مقبرة «عبريا» ليست نموذجية تماماً على فن عصر العمارنة، إذ أننا لا نلم تماماً حتى الآن بكافة مظاهره، ولا باختلافاته وتفاوتاته تبعاً لاختلاف المواقع والمدارس في العواصم والأقاليم. ولاتزال أمامنا العديد من الأمور التي تحتاج إلى توضيح في هذا المضمار. ويثبت لنا اكتشاف المقبرة نواحي القصور في معارفنا ونظرتنا إلى تلك الحقبة التاريخية.

ويقودنا ذلك في الواقع إلى إعادة تقييم مظاهر أخرى لتلك الفترة التاريخية في ضوء كل ما أشرنا إليه حتى الآن، ومن منظور المعطيات الجديدة التي أثمرت عنها الأبحاث التي تجري في ذلك القطاع في

مجرد خيال أو شبح تقريباً. إن الدور الذي من المحتمل أن يكون قد لعبه، والتساؤلات التي فجرتها عودته من جديد على الساحة التاريخية، وكل شيء يتضافر بالتأكيد لإعطائه مزيداً من العمق. ولكن ماذا عسانا أن نعرفه عن هذا الرجل كما كان في عصره ؟ وهل يتسنى لنا أن نذكر أي شيء في هذا الصدد ؟ فلا يجدر بنا أن نلخص شخصية رجل في المنصب الذي شغله حتى وإن كان منصباً مرموقاً لا نعرف عنه أي شيء بخلاف خطوطه العريضة.

ويجدر بنا الاعتراف – حتى وإن كان في ذلك خيبة أمل بالنسبة للقاريء – بأن شخصية «عبريا» نفسه لاتزال، وربما ستظل مجهولة لنا بصورة كبيرة. وحتى المعطيات الجوهرية عن حياته، وما يمثل تركيبة وجوده الإنساني، كل ذلك ربما ظل غائباً عنا. ولا يُعد ذلك من قبيل اللعنة التي حلت بكبير الوزراء والتي تقضي باحتوائه في ظلمات الجهل ؛ فإن هذا الوضع ينطبق بشكل أو بآخر على كافة المصريين القدماء باستثناء بعض الحالات الفريدة والنادرة. وحتى أكثر الشخصيات اللامعة في الظاهر، تلك التي تبدو واقعة في صميم التاريخ فإنها تخضع كذلك لتلك القاعدة. ومن ناحية أخرى فإن مسئولية ذلك تقع على عاتق المصريين أنفسهم. إذ أن الصورة التي يحاولون تركها عن أنفسهم، لاسيما داخل مقابرهم وآثارهم، هي صورة رسمية قبل أي شيء. أو أنهم يسعون دائماً على الأحرى إلى إدراجها في سياق عام لا يتقيد بزمان. وغالباً ما يتم تحاشي كافة الأمور الشخصية والحكايات الصغيرة، وتجنب التلميح إلى أي أمر شخصي. نعم، كان كبرياء الشخصيات الأكثر بروزاً من الناحية الاجتماعية، وحتى زهوهم وتفاخرهم يتمثل في إبراز أن شخصيتهم وحياتهم قد خضعت لنماذج محددة وجبرية. وعلى هذا النحو يسعى الإنسان كفرد إلى التستر خلف المجتمع ككيان. أما نصوص السيرة الذاتية – وهي نادرة للغاية – فتخلو من الإسهاب والطابع الشخصي الذي يتوافق كثيراً مع ذوقنا المعاصر. وبالطبع فإن ما ينطبق على الشخصيات البارزة في الدولة – لكي لا نتحدث عن السواد الأعظم من عامة الشعب – ينطبق بصورة أشد على الملوك أنفسهم. إذ يتعذر بالفعل استنباط شخصياتهم الحقيقية المتوارية خلف ما يشغلونه من مناصب. بل إن مآثرهم

سقارة. وعلى هذا النحو فإن الأهمية المحتملة لشخصية «عبريا» وعلاقته بـ«امنحتب الثالث» الذي قام بخدمته في كافة المجالات، ومسئوليته في تربية الأطفال الملكيين وربما «امنحتب الرابع»، ولقب "الخادم الأول لآتون" الذي يحمله، كل ذلك يعطينا الانطباع بأننا بصدد معطيات ستعيننا على التعرف بصورة أفضل على الأصول المباشرة وغير المباشرة لنشأة العمارنة. وعلى الصعيد الجغرافي سنكون مخطئين إذا بخسنا قيمة الدور المحتمل الذي لعبته «منف» ومدينة «عين شمس» المكرسة لعبادة الإله الشمس في الأحداث والأفكار التي مهدت للقرارات التي اتخذها «امنحتب الرابع». ولعل اكتشاف مقبرة «عبريا» يكون بالفعل تأكيداً لما أشار إليه كثيراً بعض علماء المصريات دون أن يتم دمجه تماماً حتى الآن : ألا وهو أهمية فترة حكم «امنحتب الثالث» وشخصيته، وربما أيضاً الملكة «تي». بل قد يتعين علينا في واقع الأمر إرجاع بداية عصر العمارنة ليس فقط إلى سنوات حكم «اخناتون» التي سبقت تأسيس مدينة «تل العمارنة» – وهو أمر مُسَلّم به ضمنياً – ولكن أيضاً إلى عهد «امنحتب الثالث» على الأقل في سنواته الأخيرة ؛ لاسيما إذا أقررنا بمبدأ المشاركة في الحكم بينه وبين ابنه «امنحتب الرابع» !

وكما يتضح لنا فإن كافة تلك الاعتبارات تباعد بيننا وبين نقطة انطلاقنا. إلا أنه من الطبيعي أن يصوغ الفكر فرضيات عندما يتم تغذيته بعناصر جديدة. ولم نكن نهدف في هذا المضمار إلى تتبع تلك الطرق حتى آخرها لمعرفة إذا ما كانت تفضي إلى شيء ما أم أنها مجرد طرق مسدودة. ولكن كان من المهم الإشارة إلى وجودها للدلالة على المعطيات الحقيقية التي تزودنا بها مقبرة «عبريا» في هذا السياق، وكذلك لكي نبرز بصورة موجزة كيف يمكن أن يقودنا علم الآثار إلى إعادة كتابة التاريخ من جديد.

مصري يدعى «عبريا»

بعد أن أعدنا وضع تلك الأبحاث والاكتشافات ودمجها في سياق أكثر شمولاً، لنعد الآن إلى «عبريا» نفسه الذي يمثل قبل أي شيء الشخصية الرئيسية في هذا الكتاب، ولكنه ظل حتى الآن على الأخص

وأعمالهم العظيمة تُعد جزئياً من قبيل التلفيق والخيال، أي الرغبة في تدوين فترة حكمهم داخل إطار وتصور محددين منذ الأبد.

وبعد ما تقدم، يمكننا رصد اختلافات كبيرة بالنسبة لبعض الحالات. فقد ترك لنا عدد من المصريين القدماء صورة عامة عن حياتهم وحتى عن شخصياتهم دقيقة في مجمل القول. ويتوقف ذلك على عنصر المصادفة في حفظ الوثائق والملابسات والظروف، ...الخ. ويمكننا أن نشير إلى شخص كثير التشابه مع «عبريا» : ألا وهو «امنحتب بن هابو Amenhotep fils de Hapou» الذي ربما كان معاصراً له، ومن بين المقربين بصورة خاصة للملك «امنحتب الثالث». وعن طريق التعميم يمكننا بسهولة إبراز الدور الهام على أية حال الذي لعبه هذا الشخص. وهكذا تقودنا مفارقات حفظ النصوص إلى إعطاء صورة غير صائبة بدون تعمد للأشخاص والأحداث في عصر من العصور. ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا إطلاقاً أن أهمية بعض الشخصيات لا تتوقف دائماً عل ما تم العثور عليه من وثائق. فكم من الشخصيات البارزة التي نجهلها بسبب غياب واختفاء المصادر التاريخية التي تؤكد ذلك والعكس صحيح !

ومن ثم يخرج «عبريا» من نطاق معارفنا ومعلوماتنا. وليس ذلك مدعاة للأسف فحسب، وإنما قد ينطوي أيضاً على بعض المخاطر إذ يفتح الباب على مصراعيه أمام التفسيرات المغرضة أو حتى الخيالية أحياناً. وسنتناول هذه النقطة بمزيد من التفصيل في الصفحات التالية. وقد ارتبط هذا الرجل عن كثب – كما سبق أن رأينا – بالعائلة المالكة ونشأة عهد العمارنة، والأزمة التي تمخضت عنها جزئياً. غير أن تلك الحقبة من تاريخ مصر القديمة تتميز بإثارة التفسيرات الأكثر غرابة والأقل استناداً إلى الحقائق على الإطلاق.

ويتحلى «عبريا» بخاصية مميزة وبارزة للغاية : ألا وهي اسمه. فغالباً ما يُعد الاسم انعكاساً أو تعبيراً عن كل ما يشكل الطابع الفريد لشخص من الأشخاص. ويجدر بنا الاعتراف بتلك الحقيقة لدي المصريين القدماء بدون شك، وحتى في ثقافاتنا المعاصرة : وسنستعرض في الفقرات التالية بعض التحليلات التي أثارها اسم

«عبريا» والتي تُعد أحياناً من قبيل الخرافات والمهاترات.

لامراء في أن هذا الاسم ليس مبتذلاً على الإطلاق : بل ربما يبدو لنا على الأحرى مدهشاً عند إدراك أهمية صاحبه. وفي الواقع فإننا بصدد اسم لا يبدو أنه مصري. وبالتالي يمكننا أن نستنتج بصواب أنه ربما كان اسماً أجنبياً. ولعل هذا الاستنتاج يقودنا إلى استنتاج آخر قد يكون أقل منطقية مفاده أن صاحب هذا الاسم كان شخصاً أجنبياً بالضرورة. وهي نقطة هامة للغاية يصعب علينا عدم تناولها بصورة تقنية جداً، وبالتالي غامضة ومبهمة بالنسبة لغالبية القراء.

وعلى الرغم من ذلك فلنحاول طرح المسألة في عدة كلمات. لم نتوصل بعد للقراءة المؤكدة والحاسمة لاسم «عبر-ال Aper–El». إذ يمكننا أن نعتبر الشكل الهجائي الأكثر تداولاً «عبريا Aperia» على ما يبدو ليس إلا اسماً تصغيرياً ينتهي بنهاية شائعة ؛ أو أن هذا الشكل الصغير يمكن قراءته «Aper–El» نظراً لإمكانية نسخ المقطع النهائي «يا ia» و«ال El» بنفس الطريقة. ولو لم يكن هناك ذلك المقطع النهائي «ال El» لكان الاسم المدون بالأحرف الهيروغليفية المصرية مثل الفعل المصري «عبرaper» خالياً من أي طابع أعجمي أو أجنبي. بيد أن وجود هذا المقطع بالإضافة إلى وجود أسماء مماثلة التركيب في منطقة الشرق الأدنى يخرجنا عن نطاق اللغة المصرية حتى وإن كان الطابع العام للاسم يظل مصرياً.

وخلاصة القول أن هذا الاسم ربما كان يرجع إلى منطقة الشرق الأدنى أو بلاد سام على سبيل الاحتمال. غير أن قراءته ومعناه يطرحان علينا مشكلة. إذ يشير المقطع النهائي «ال El» إلى معبود هام سوري وكنعاني. إلا أن «عبرaper» لا يعني أي شيء. وربما يتعين علينا اعتبار مصدره «عبرaber»، أو وفقاً لما اقترحه بعض العلماء طريقة لكتابة المصدر «عابد abed» أو «اوفد oved» بمعني "يخدم". عندئذ قد يعنى الاسم «خادم الإله ال El». بيد أنه توجد احتمالات أخرى.

اسم ذو مصدر أجنبي، بل فضلاً عن ذلك ربما يرجع إلى منطقة الشرق الأدنى : إن ذلك يُعد أمراً جللاً. غير أنه يتعين علينا وضعه داخل

سياق تاريخي. ألم تصبح مصر متعددة الأجناس في عهد الأسرة الثامنة عشرة التي أسست مملكة في الجنوب والشمال الغربي؟ نعم لقد كان امتزاج الشعوب وحركات الهجرة واحتكاك الثقافات المختلفة والمتنوعة إحدى سمات هذا العصر. وكانت مدينة «منف» على نحو خاص تتزعم هذه النزعة بأحيائها التي تكتظ بالغرباء والمهاجرين القدماء أو حديثي العهد، وكذلك معابدها وكهنة المعبودات "المستوردة" من بلاد كنعان وسوريا. وقد كانت كافة تلك الأمور شاخصة للعيان في ظل عهد «امنحتب الثالث» وحقبة العمارنة، وراحت تنمو وتتزايد في عهد الرعامسة.

لقد تميزت تلك الفترة بكثرة العلاقات بين مصر والعالم الخارجي، وتعدد الأجناس، وتزايد التأقلم الاجتماعي والثقافي، واعتناق عبادات الآلهة "الأجنبية". ومن ثم لاينبغي أن تدهشنا ملاحظة أن عدداً كبيراً من الموظفين وأصحاب المناصب العليا في الدولة كانوا على سبيل الاحتمال من أصل أجنبي. وقد امتد ذلك ليشمل حاشية الملك نفسه حيث كان بعض الرجال ممن لاتربطهم علاقات وطيدة بالاقطاعيات والمصالح المحلية ربما كانوا من الأوفياء الموثوق فيهم على نحو خاص. ولكن كيف يمكننا التأكد بصورة قاطعة من أن هذا الشخص أو ذاك كان من أصلي أجنبي؟ لايسعنا ذلك إلا اعتماداً على الاسم، وهو مسلك محفوف بالمخاطر نظراً لأن دراسة أسماء الأعلام المصرية القديمة لاتزال تنطوي على الكثير من الثغرات. أضف إلى ذلك صعوبة قراءة الأسماء بصورة مؤكدة أحياناً، وطابع العفوية الذي تتسم به الاكتشافات، والذوق الذي كان سائداً في استعارة بعض الأسماء الأعجمية، وغير ذلك من الأمور الأخرى. يُعد ذلك الدرب شائكاً خاصة وأن الوثائق المتعلقة بتلك الشخصيات تخلو في معظم الأحيان من أي إشارة إلى أصل أجنبي، كما تفتقر إلى أية خصوصيات متعلقة بالهيئة العامة أو الملابس أو الشعائر الدينية. إذ يبدو كل شيء مصرياً تماماً. ولعل ذلك دليلاً على إرادة قوية في "الانسجام الاجتماعي" أو حتى الذوبان الناجح في نسيج المجتمع المصري. وقد يكون هؤلاء الأجانب مولودين في بلد أجنبي، أو من أحد أبوين أو حتى من أبوين أجنبيين. غير أن المتخصصين في دراسة المجتمع المصري القديم قد دأبوا على

تعميم الأمور على هذا النحو دون أن يتورعوا في تفسير ذلك الماضي السحيق من خلال عادات فكرية حديثة، وقدر من الذاتية بعيداً كل البعد عن الرصانة والإيجابية التي ينبغي أن يتحلى بها المؤرخ.

ويبرز لنا «عبريا» بصورة واضحة مدى غموض والتباس تلك المفاهيم، والحذر والتأني اللذين ينبغي مراعاتهما حتى لا نتسرع في استخلاص النتائج الخاطئة. غير أن الوظائف المرموقة التي شغلها، والمكانة المحتملة التي احتلها في عهد العمارنة، وأصله الأجنبي يضاعف من صعوبة ذلك الدرب الشائك. ها هو شخص "أجنبي" على جانب من الأهمية ربما يزيد من نكهة حقبة تاريخية لا تفتقد إلى الإثارة ! بيد أن فحص المعطيات الأخرى فحصاً واعياً لا يكشف لنا عن أي طابع أجنبي آخر : فكل شيء مصري داخل مقبرة كبير الوزراء، وفي الأثاث الجنائزي الذي أمطنا عنه اللثام. كما أن اسمي «تاؤورت» و«حوي» لا يتميزان بأي مسحة "أجنبية" إطلاقاً. وعلى الرغم من ذلك تجدر بنا ملاحظة عدم الإشارة إلى والدي «عبريا» بصورة قد تكون متعمدة. وليس ذلك أمراً فريداً خاصة عندما ينحدر الشخص من وسط اجتماعي متواضع إلى حد ما. ومن ناحية أخرى يمكننا رصد نفس الأمر في حالة «يويا» و«تويا». وبالطبع ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن «عبريا» كان من بين "اطفال الكاب kap"، أي أنه قد تربى في القصر. ولا يعني ذلك تلقائياً أنه كان من أصل أجنبي مباشر، أو حتى أنه ليس مصري المولد. ولكن لاشك في أن هذا اللقب لا يعيننا على استيضاح الأمر.

ومن ناحية أخرى، لا تتوقف الأمور عند هذا الحد. إن اسم «عبريا» قد أثار وربما استمر في المستقبل في إثارة المزيد من التعليقات الطائشة أحياناً، أو حتى الجسورة : ومفادها أن كبير الوزراء قد ينحدر مباشرة من بلاد سام، ولعله ظل دائماً مرتبطاً بجذوره ؛ ومن ثم ربما تمثل شخصيته ووجوده والمناصب الرفيعة التي تقلدها في مصر القديمة معطيات جديدة وهامة تضاف إلى الملف المعقد جداً والذي يثير الكثير من الجدال حول العلاقات التي كانت قائمة بين عالم التوراة وعالم وادي النيل. وبعبارة أخرى ربما كان لـ«عبريا» ثمة صلة بإقامة العبرانيين في مصر. وقد تهامس البعض باسم يوسف بن

يعقوب من هنا وهنالك، ليس على سبيل المقارنة وإنما من قبيل تحديد هويته.

وتستند تلك المقارنات "البهلوانية" الخطيرة على اسم كبير الوزراء. ولعل اسم «عبر Aper» يوحي لنا على الرغم من طريقة كتابته بالاسم الاجتماعي العرقي المجانس والمعروف أكثر في صيغة الجمع «عبيرو apirou». وقد أطلق المصريون هذا الاسم الأخير على قبائل معروفة في الشرق الأدنى خلال الألف الثانية قبل الميلاد تدفعنا بعض الأسباب اللغوية والتاريخية إلى دمجهم بالعبرانيين المعروفين في التوراة باسم «Ibrim» . ومجمل القول فقد يكون العبرانيون من بني «عبيرو»، غير أن كل بني «عبيرو» ربما لم يكونوا عبرانيين فقط. وعلى صعيد آخر فإن الإله «ال El» يوحي لنا بالطبع بالإله «ال» المذكور في التوراة الذي أصبح تحت هذا الاسم أو تحت اسم الجمع «Elohim» يشير إلى إله العبرانيين، بل يتجاوز ذلك للإشارة إلى إله البشرية جمعاء. وفضلاً عن ذلك يدخل «ال» في تركيب أسماء الأعلام في التوراة مثل : «دانيال Daniel» و«جبريال Gabriel» و«رافايل Raphael» و«ناتانيل Nathanael» ...الخ.

وهناك من يطلقون العنان لأنفسهم لعقد مقارنات وتعميمات محفوفة بالمخاطر والرغبة في اعتبار «عبريا Aper–El» عبرانياً مستهينين بكافة المصاعب اللغوية والتاريخية التي قد يطرحها ذلك التفسير. إن الدور الرفيع الذي لعبه «عبريا» إلى جانب فرعون على الرغم من انحداره من أصل متواضع ربما يحمل تلميحات إلى سيرة يوسف كما وردت في التوراة، وارتقائه المذهل لطبقات المجتمع، وبلوغه مرتبة كبير الوزراء. أما نشأة «عبريا» وتربيته في نطاق البلاط الملكي فقد تجعلنا على الأحرى نتذكر سيرة سيدنا موسى... وبما أننا في عهد العمارنة فلسنا بعيدين عن «اخناتون» (الذي عمل «عبريا» في خدمته) وعقيدة "التوحيد" الخاصة جداً التي ابتدعها، وبالتالي يصبح كل شيء ممكناً حتى التصورات الخيالية والابتعاد عن الحقائق بل والهذيان.

ترى ما هو موقف المؤرخ ولاسيما عالِم المصريات في هذا الموضوع ؟ في الواقع لا يتمثل دور علم المصريات والآثار المصرية في البحث عن شواهد لتأكيد نصوص التوراة ؛ وقد يمكن تسليط أضواء هامة على تاريخ مصر القديمة نفسها شريطة حسبان كل شيء وعدم خلط الأوراق ؛ وأن سيرة سيدنا يوسف تعتبر مثالاً رائعاً لارتقاء بعض الأشخاص طبقات المجتمع في مصر القديمة ؛ وأن عقيدة التوحيد التي نادى بها رسل اسرائيل تختلف عن عقيدة البطاركة التي تختلف بدورها تماماً عن المفاهيم التي كان يعتنقها «اخناتون» كما تثبت المعطيات القديمة والحديثة وكما يوضحه لنا فحول المتخصصين ؛ وأن وضع العبرانيين في مصر لم يكن يختلف بتاتاً من حيث العديد من النواحي عن وضع الأجانب الآخرين المقيمين في مصر والقادمين من منطقة الشرق الأدنى ؛ وأخيراً أن الاصرار على المطابقة الحرفية بين نص التوراة ومعطيات علم المصريات مهما تكلف الأمر يُعتبر مهمة محكوم عليها بالفشل والإخفاق. وبالتالي فلا حاجة بنا – لكي نعود إلى أرض الواقع – للإشارة إلى أن سيدنا يوسف قد عاش قبل حقبة العمارنة، وأن رفاته قد غادرت مصر على أيدي أحفاده وفقاً لما ورد في سفر الخروج (١٣ و١٩).

وفي مثل هذا السياق لا غنى لنا عن التمسك بالاعتدال والحذر. إذ أن شخصية «عبريا» والاكتشافات التي تمت بشأنه وبشأن عائلته تندرج بدون شك في سياق خاص لايسع المؤرخ سوى تأكيد خطوطه العريضة بثقة. وليس من المستبعد أن ينطوي ذلك على عناصر جديدة بالنسبة للمتخصصين في دراسة تلك القضايا المثيرة والتي ترتكز على اللقاء الخصب بين عالمين وبين ثقافتين. ومن ناحية أخرى ليس من المستحيل أن تمدنا دراسة اسم «عبريا» قريباً بمعلومات جديدة. فليس من المألوف العثور على حالة بمثل ذلك القدر من الإثارة والتعقيد.

وبما أنه يتحتم علينا أن نختتم بصورة مؤقتة تلك المحاولة للإلمام برجل لايزال غامضاً حتى الآن، ولاتزال تخالجنا العديد من التساؤلات بشأن الدور الذي لعبه، فليسمح لنا القاريء بأن نشير في

خاتمة هذا الكتاب إلى وجه «عبريا» كما يبدو لنا منحوتاً على أحد غطيان الآنية الكانوبية. وهو وجه رائع من المرمر، ذو عينين مائلتين لوزتي الشكل، وأنف رفيع، وشفتين غليظتين تعلوهما ابتسامة خفيفة! وهو يشبه بشدة ملامح بعض التماثيل التي ترجع إلى تلك الحقبة التاريخية مثل تماثيل «امنحتب الثالث» في آخر عهده. وقد نكون بصدد صورة حقيقية لـ«عبريا»، ذلك الرجل المصري الذي استعاد من جديد وجهه، أو ربما أحد وجوهه فقط !

الخاتمة

عما قريب سنعود من جديد إلى سقارة ! وسيكون في انتظارنا المنزل الذي نقيم فيه، والشرفة التي تطل على الوادي حيث لاشيء تقريباً أو لاشيء البتة قد تغير، والرفاق الذين وقفوا إلى جانبنا في السرّاء والضرّاء، والموقع في نهاية فترة الظهيرة عندما تنسحب أشعة الصيف الحارة أمام طراوة المساء. وسنجد مرة أخرى المقبرة، ورسميات استلام مفاتيحها، وكسر الأختام، وصرير الباب، والحرارة والرائحة التي تنبعث منها فجأة، ومن جديد ذلك الإحساس بالعودة عقب سفر طويل.

وعما قريب سنستأنف العمل داخل مخزن الآثار الذي قمنا بتشييده عام ١٩٨٧ والذي يكتظ بالقطع المكتشفة داخل الغرفة الجنائزية. وسيطالعنا من جديد تحت الأتربة سحر «تاؤورت» وابتسامتها المتكلفة بعض الشيء على آنيتها الكانوبية، ووجه «عبريا» الجميل المنحوت في كتلة المرمر، والإلهة «نوت» المشكّلة من عجينة الزجاج الأزرق بجناحيها المنشورين، وكل ذلك الجمال الصافي المتألق. وسيكون في انتظارنا مزيد من الاكتشافات والحدس والمشاعر الفياضة بالبداهة والشكوك والتساؤلات. أضف إلى ذلك ما يتبقى من أعمال التصوير الفوتوغرافي والرسم والتنظيف والترميم وإعادة التركيب والتحليل والدراسة والنشر.

لم يبح «عبريا» حتى الآن بكافة أسراره إلى العلم. هل تراه سيفعل في يوم من الأيام ؟ كما أن رفاته هو وابنه لم تكشف لنا بعد كل ما

تخفيه من معلومات. ولاتزال المقبرة تكن أجزاء مجهولة، وربما نصوصاً مستترة على مقربة من المدخل في المستوى الأول. بيد أن التدعيمات والجدران التي تعود إلى عصر لاحق تحول في الوقت الراهن دون التأكد من كل ذلك. ترى هل سيكون في وسعنا في يوم من الأيام إزاحتها بعد اتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة ؟ وهل سنعثر عندئذ على معطيات جديدة لم تظهر لنا حتى الآن؟ وهل لاتزال توجد آثار لمشكاة تماثيل أو لوحات جدارية في آخر صالة الركائز المربعة ؟

ينبغي علينا مواصلة تتبع الطريق التي سلكها لصوص المقابر. وكما سبق أن رأينا فإن "السمكة الحمراء" وغيرها من القطع الأثرية والأجزاء المكتشفة عام ١٩٨٢ داخل "المقابر الشرقية" تأتي بكل تأكيد من مقبرة كبير الوزراء. ومن ثم فإن مواصلة تنقيب تلك المقابر والجرف الصخري في الناحية الشرقية ليس من المستحيل أن تنطوي على قدر من الأهمية. وعلى أية حال فإن تحديد المسلك الذي اتبعه هؤلاء اللصوص يمكن أن يعيننا على فهم تاريخ الموقع.

وعلى صعيد آخر، ليس «عبريا» بمفرده، وإنما هناك أيضاً مقابر أخرى منحوتة في الجرف الصخري تم اكتشاف بعضها عام ١٩٨٢، والاستدلال على البعض الآخر على مر السنين مثل مقابر كل من رئيس القضاة «نحسي Nehesy » وهي في حالة سيئة جداً من الحفظ للأسف الشديد ؛ ورئيس مخازن الغلال «ميري-سخمت Mery-Sekhmet » ؛ و«ميري-رع Meryre » المستشار و"المسئول عن تنفيذ أعمال الملك عندما كان جلالته لا يزال بعد طفلاً" ؛ وغيرها من المقابر التي نجهل أصحابها. وهناك نصوص ولوحات ملونة ومنحوتة يمكننا رؤيتها، وغيرها سيجري إزاحة الستار عنها، وستسهم إسهاماً عظيماً في تعريفنا بسقارة وبالتالي بـ«منف» في ظل عهد الأسرة الثامنة عشرة. بل لعلنا سنتوصل إلى جمع معطيات جديدة أخرى عن عهد العمارنة ؟ وستتوالى اكتشاف المقابر واحدة تلو الأخرى لرجال كانوا من علية القوم أو من المغمورين في الماضي السحيق "سيخرجون إلى النور" وفقاً للتعبير المصري القديم في «كتاب الموتى». وخلف مقاصير المقابر قد تكون هناك حجرات أخرى سبقنا إليها بكل تأكيد زائرون

لهم حوافز ودوافع تختلف تماماً عنا. غير أن ذلك لا ينفي بالضرورة إمكانية إحراز اكتشافات كما سبق أن رأينا.

وكل ذلك دون نسيان قطط الإلهة «باستت» ! فلا تزال تتكدس بأعداد لا تحصى في أحشاء الجبل سواء على شكل مومياوات أو مجرد عظام. وبكل تأكيد فإن ما يعنينا ليس مجرد تكديسها متعة للأعين، أو لكي تسكرنا أعدادها الهائلة. وإنما لأن القطط لاتزال تُكِن معلومات غزيرة عن الشعائر والعبادات والعالم الفكري الذي كان سائداً في مصر خلال العصر المتأخر واليوناني والروماني. وربما لم يلتفت اللصوص وتجار الأسمدة إلى وجود بعض الحجرات وعدد من الأثاث والوثائق المصاحبة لها والنفيسة بالنسبة للمؤرخ.

وإذا عادت بنا عجلة الزمان إلى الوراء عدة قرون أو حتى الآف السنين، فقد يمدنا جبل «البوباستيون» بمعلومات جديدة. فليس من المستحيل العثور داخل صخوره على مقابر ترجع إلى الدولة القديمة وعصر بناة الأهرامات وتقع على مستوى أدنى لاتزال تغمرها الرمال، أو ربما تم إعادة استغلالها وتعديلها أحياناً في ظل الدولة الحديثة. نعم، لايزال بانتظارنا الكثير من الأعمال والعديد من الأشياء التي ينبغي حمايتها بل وانقاذها. إذ لاينبغي أن نتصور أن الموقع سيظل ينتظر في هدوء وسكون الأجيال القادمة، مدفوناً بعناية وسط ذلك المحيط الرملي. فكافة الأبحاث الحالية وجميع الدراسات حول طبيعة التربة الأثرية في مصر بدءاً من هضبة سقارة تشير إلى مدى ضعف وهشاشة الأشياء في كل مكان وعدم ثبات الأوضاع. وتُعد منطقة «البوباستيون» والجبل مهددة بصورة أكثر بسبب الأوضاع المحلية. كيف لنا أن نثق في أن الانهيارات والتداعيات لن تتواصل في أعماق مقابر أخرى لم يتم استكشافها بعد ؟

وفي انتظار ذلك، فقد نجحنا في إبعاد شبح النسيان الذي كان يخيم على «عبريا» إلى الأبد. واستعاد مكانته وسط القائمة الطويلة التي تضم شخصيات مصر القديمة. وسيثير المزيد من التساؤلات، ستظل بعضها حائرة بدون إجابات، وسيصبح بالتدريج موضع تعليقات على الصعيد التاريخي أو الديني أو الفني. وربما يتم عرض بعض

عناصر كنزه الجنائزي في يوم من الأيام. ولعل بعض القطع الأثرية سيتم توثيقها في الكتب في المستقبل نظراً لأنها تستحق ذلك. ولكن هل يمكن لها حينئذ أن تبلغ نفس القدر من الجمال مثلما كانت عليه لحظة انبثاقها قطعة تلو الأخرى وسط الفوضى العارمة وأنقاض غرفة الدفن، متسخة لدرجة يصعب التعرف عليها أحياناً في ختام رحلتها الطويلة عبر دياجير الزمان ؟

قطعاً إن التاريخ لم يبلغ بعد نهاية المطاف. وستكون هناك انطلاقات أخرى، وسيبزغ فجر أيام أخرى حافلة بالوعود عندما تنقشع سحب الضباب رويداً رويداً فوق قمة نخيل وادي النيل، ومقابر أخرى وآبار أخرى وتوقعات أخرى. وسيكون هناك أشلاء أخرى من التاريخ يتم استئصالها من قلب الليل واجتثاثها من كبد النسيان.

باريس في ربيع عام ١٩٩٠

جدول التسلسل الزمني

جرت العادة على تقسيم التاريخ المصري القديم إلى ثلاثين أسرة وفقاً لما أورده الكاهن المصري «مانيتون Manéthon»، ذلك "المؤرخ" الذي عاش وكتب (باللغة اليونانية) في القرن الثالث قبل الميلاد. بيد أن توزيع تلك الأسرات داخل مجموعات كبيرة تتماشى مع أحقاب تاريخية متماسكة لم يتم وضعه إلا منذ عهد حديث جداً. ولايزال التسلسل الزمني المطلق (أي تحديد التواريخ الدقيقة على السلم الزمني) يطرح العديد من المشكلات بالنسبة للأحقاب الأكثر قدماً. ويتقارب ذلك "التفاوت الزمني" خلال الألف الثانية قبل الميلاد، ومن ثم يعيننا ذلك على تحرى المزيد من الدقة في تحديد التواريخ.

العصر العتيق
أو العصر الثيني
الأسرتان الأولى والثانية
نحو ٣٠٠٠ إلى ٢٧٠٠

الدولة القديمة
من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة
نحو ٢٧٠٠ إلى ٢١٥٠
شهدت الأسرة الثالثة حكم الملك «جسر»

عصر الانتقال الأول
من الأسرة السابعة إلى الأسرة الحادية عشرة (جزئياً)
نحو ٢١٥٠ إلى ٢٠٠٠

الدولة الوسطى
الأسرتان الحادية عشرة (جزئياً) والثانية عشرة

نحو ٢٠٠٠ إلى ١٨٠٠

عصر الانتقال الثاني
من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة
تشمل احتلال الهكسوس لمصر
نحو ١٨٠٠ إلى ١٥٥٠

الدولة الحديثة
من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين
نحو ١٥٥٠ إلى ١٠٨٠

تُعد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠-١٢٩٠) محور الأبحاث المسرودة في هذا الكتاب، وعلى الأخص عهدي «امنحتب الثالث» (١٣٩١-١٣٥٣ ؟) و«امنحتب الرابع اخناتون» (١٣٥٣- ١٣٣٦ إذا استبعدنا فكرة مشاركته في الحكم مع والده). وتمثل فترة حكم هذا الملك الأخير ما اصطُلح على تسميته بعهد «العمارنة».

عصر الانتقال الثالث
من الأسرة الحادية والعشرين إلى الأسرة الخامسة والعشرين
نحو ١٠٨٠ إلى ٦٧٠

العصر المتأخر
من الأسرة السادسة والعشرين إلى الأسرة الثلاثين
نحو ٦٧٠ إلى ٣٤١
(بالإضافة إلى الاحتلال الفارسي الثاني)

العصر اليوناني أو البطلمي
«الإسكندر الأكبر» والبطالمة ٣٣٢ إلى ٣٠

العصر الروماني
من عام ٣٠ قبل الميلاد وحتى القرن الرابع بعد الميلاد

بعض المراجع

لقد أثمرت الأبحاث ومواسم الحفائر المكرسة لمقبرة « عبريا » عن عدد من المقالات والمحاضرات العلمية. ومن الممكن الرجوع إليها عند الاقتضاء لتتبع تقدم سير الأعمال والاكتشافات. ومن بين المنشورات التي أصدرها مؤلف هذا الكتاب يمكننا أن نذكر :

« Une tombe d'Époque amarnienne à Saqqarah », dans Bulletin de la Société française d'égyptologie, 84, Paris, mars 1979, p. 21-32.

« Tombes rupestres de la falaise du Bubasteion à Saqqarah », dans Annales du Service des antiquités de l'Égypte, 68, Le Caire, 1982, p. ∂≥≠∂π[

« Les tombes de la falaise du Bubasteion à Saqqarah », dans Le Courrier du CNRS, 49, Paris, janvier 1983, p. 37-44.

« Trois saisons à Saqqarah : les tombeaux du Bubasteion », dans Bulletin de la Société française d'égyptologie, 98, Paris, octobre 1983, p. 40-56.

« Tombes rupestres de la falaise du Bubasteion à Saqqarah, IIe et IIIe campagnes (1982-1983) », dans Annales du Service des antiquités de l'Égypte, 70, Le Caire, 1985, p. 219-232.

« Aper-El et ses voisins : considérations sur les tombes rupestres de la XVIIIe dynastie à Saqqarah », dans Memphis et ses nécropoles au Nouvel Empire. Nouvelles données, nouvelles questions, Paris, Éd. du CNRS, 1988, p. 103-112.

« Un exemple d'archéologie de sauvetage à Saqqarah », dans Fifth International Congress of Egyptology, Abstracts of Papers, Le Caire, 1988, p. 299-300.

« Portrait de femme. Une tête en bois stuqué récemment découverte à Saqqarah », dans Revue d'égyptologie, 39, Paris, 1988, p. 179-195.

« La falaise du Bubasteion : bilan des travaux et perspectives pour l'avenir », dans Akten des Vierten Intern. Aegyptologen Kongresses München 1985, Hambourg, 1990, t. II, p. 291-298.

« Recherches et découvertes récentes dans la tombe d'Aperia à Saqqarah », dans Comptes rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris, avril-juin 1989, p. 490-505.

« Des ministres et des chats : les deux visages de la falaise du Bubasteion », dans Les Dossiers d'archéologie, 146-147, Dijon, mars-avril 1990, p. 106-109.

« Le trésor funéraire du vizir 'Aper-El », dans Bulletin de la Société française d'égyptologie, 116, Paris, octobre 1989, p. 31-43.

من الممكن أيضاً مراجعة الحوليات السنوية التي يكتبها «چان ليكلان « Jean Leclant» عن أعمال الحفائر في مصر وتُنشر في مجلة *Orientalia* التي تصدر في روما (الفاتيكان).

أما عن آخر الاكتشافات يمكن مراجعة مقال Cécile Lestienne «Aper-El, le vizir sauvé des décombres », paru dans Sciences et Avenir, hors série (Sur la piste des pharaons), 76, janvier-février 1990, p. 46-51

أما حول موقع سقارة بصورة عامة وتاريخه وأهميته وما تم فيه من اكتشافات، يجب الرجوع إلى كتاب Jean-Philippe Lauer,

Saqqarah. La nécropole royale de Memphis, Paris, Tallandier, 1977.
بالإضافة إلى كتاب آخر لنفس المؤلف بعنوان *Saqqarah, une vie* (entretiens avec Philippe Flandrin), Marseille, Rivages, 1988.

كما نشير إلى عدد كامل من مجلة *Les Dossiers d'archéologie* (146-147, Dijon, mars-avril 1990) تم تكريسه للموقع بعنوان « Saqqarah. Aux origines de l'Égypte pharaoniques ». وهو يعطي القارئ نظرة شاملة عن كافة الأحقاب التاريخية وجميع مظاهر جبانة «منف» الكبيرة، بالإضافة إلى مقالات بقلم أهم المتخصصين الدوليين.

وفيما يتعلق بالدولة الحديثة على وجه خاص، يمكن الرجوع إلى *Memphis et ses nécropoles au Nouvel Empire. Nouvelles données, nouvelles questions*, Actes du Colloque international CNRS (Paris 1986), édités par A.-P. Zivie, avant-propos de J. Leclant, Paris, Éd. du CNRS, 1988.

أما عن المسائل التاريخية التي تعرضنا لها في صفحات هذا الكتاب، يمكن الرجوع إلى مؤلفات عامة حديثة (مكتوبة أو مترجمة إلى اللغة الفرنسية) حول مصر القديمة ومن أهمها :

John Baines et Jaromir Malek, *Atlas de l'Égypte ancienne*, éd. française, Paris, Nathan, 1981 ; Nicolas Grimal, *Histoire de l'Égypte ancienne*, Paris, Fayard, 1988 ; Pascal Vernus et Jean Yoyotte, *Les Pharaons*, Paris, MA, 1988.

ومن بين المؤلفات الخاصة بأمنحتب الرابع وعصر العمارنة يمكننا ذكر كتاب Cyril Aldred, *Akhenaton*, éd. française, Paris, 1973.



فريق عمل البوباستيون

إن حفائر مقبرة «عبريا» وبصورة عامة الأعمال التي تم القيام بها في جُرف «البوباستيون» كانت في البداية وليدة مبادرة ومشروع شخصي. وقد عرفت أولى خطوات التنفيذ بفضل مساعدة فريق عمل مصري صغير، بالإضافة إلى بعض الإسهامات القيِّمه من هنا وهناك. ورويداً رويداً انضم إلى البعثة أشخاص آخرون استهوتهم تلك المغامرة؛ وأصبح بعضهم أعضاء دائمين. وعلى هذا النحو تكونت مجموعة عمل على قدر كبير من الكفاءة.

وفيما يلي نورد قائمة بأسماء الأعضاء المشاركين في مواسم الحفائر التسع التي أجريت في الموقع :

«روزالين كوتان-تمپوڤيسكي Roseline Cottin-Tompowsky» مُساعِدة ومسؤولة عن التوثيق (١٩٨٧، ١٩٨٨، ١٩٨٩) ؛ «ماريا-سول كروس Maria-Sole Croce» (متحف تورينو)، مُعاونة (١٩٨٩) ؛ «فرانك درايدمي Frank Dreidemie» مهندس معماري (١٩٨٧، ١٩٨٨) ؛ صلاح النجار (هيئة الآثار المصرية)، مهندس معماري (١٩٨١) ؛ «ماري-چنيڤياڤ فروادوڤو Marie-Geneviève Froidevaux» (CNRS)، رسّامه (١٩٨٨، ١٩٨٩) ؛ «ليونار جانزبور Léonard Ginsburg» (متحف التاريخ الطبيعي)، متخصص في دراسة الكائنات الحيوانية القديمة (١٩٨٤، ١٩٨٥، ١٩٨٨) ؛ «چورچ هوفمان Georges Hoffman» مُخْرج ومُصَوِّر (١٩٨٩)؛ «ڤاليري لاكودر-لوتن Valérie Lacoudre-Looten» كيميائية ومُرَمِّمه (١٩٨٨، ١٩٨٩) ؛ «چان-باتيست لاتور Jean-Baptiste Latour» كيميائي ومُرَمِّم (١٩٨٨) ؛ «آلان لكلير Alain Lecler» (بتصريح من مدير المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية)، مُصَوِّر (١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٨٨) ؛ «مارك ليهنر Mark Lehner» (مركز البحوث الأمريكي بمصر)، مهندس معماري وطوبوغرافي (١٩٨٣،

١٩٨٥) ؛ «فريديريك نوار FrédériqueNoir »، مُصوَّرة (١٩٨٧) ؛ «ماري-انياس پيليپنكو Marie-Agnès Pilipenko »، مسؤولة عن توثيق الفخار (١٩٨٧، ١٩٨٨) ؛ «ميشال ڤيتمان Michel Wuttmann»، كيميائي ومُرَمِّم (١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥) ؛ «كريستيان زيڤي-كوش Christiane Zivie-Cochf » (باحثة في CNRS)، عالمة مصريات. وفي مايو ١٩٩٠ استأنف العمل بالموقع جزء من تلك المجموعة (بالإضافة إلى «لورن A. Lorne » و«جرانچيه C. Granger».

كما يجدر بنا الاشارة إلى الدعم الهام الذي قدمه كل من الأستاذ هاني هلال (كلية الهندسة، جامعة القاهرة)، والدكتور «ايچان ستروهال Eugen Strouhal» (متحف براغ الوطني)، والسادة «فرنسوا دي هارو François de Haro » و«چان-ماري اسپانيه Jean-Marie Espagnet » ومحمد حسين العاملين في مشروع مترو الأنفاق بالقاهرة (SGE-TPI)، وأخيراً «د.ر. زيڤي D. R. Zivie».

أما مفتشو الآثار المنتدبون من قِبَل هيئة الآثار المصرية للإشراف على الموقع فقد شغفوا في الغالب مثلنا تماماً بالموقع وبمقبرة «عابر-آل» وتفانوا في العطاء. وقد توالي على الموقع الساده مجدي غندور (١٩٨٠، ١٩٨١)، ومحمد عاصم عبد الصبور (١٩٨١، ١٩٨٢)، وهشام سعيد حجازي (١٩٨٣)، وأسامه الحمزاوي (١٩٨٤، ١٩٨٥)، والسيدة أمل هلال (١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٨٧)، والسيدان نور الدين عبد الصمد (١٩٨٧، ١٩٨٨)، وأحمد محمد عبد العال (١٩٨٩).

وما كان من الممكن تنفيذ أي شيء بدون التواجد الفعّال للرؤساء الذين تولوا تنسيق فرق العاملين بالموقع، وهم : الساده سعيد امام سليم ورجب محمد، وعلى الأخص محمد شحات (أبو شنب). أما الرّيس عبد المتعال وعبد الحكيم والمعاونون لهم فقد ساهموا كثيراً في أعمال التدعيم والترميم.

وأخيراً لايسعنا إغفال الدور الحيوي الذي قام به السيدان صلاح حسب الله (سكرتير ووكيل أعمال البعثة) وعيسى (طاه).

شكر وتقدير

إن حفائر مقبرة «عابر-آل» وليدة لقاء بموقع يبدو ظاهرياً قاحلاً بخيلاً بالعطاء، وما يكنه من وعود غنية كانت خافية عن أعين الجميع. وقد حالفني الحظ رويداً رويداً في الحصول على دعم ومساعدات متنوعه بصورة مؤقته أو مستديمه. وسواء كانت مساعدات مادية ملموسة أو رمزية ومعنوية فقد كانت بالنسبة لي حافزاً هاماً على الاستمرار بالرغم من كل شيء. وفي الواقع لقد تأثرت بوجه خاص بالحماس والثقة التي أبداها لذلك المشروع أناس ينتمون إلى آفاق شتى، بينما كان المتخصصون أنفسهم يبدون أحياناً أكثر تشككاً.

ولهذا السبب أود أن أذكر في هذا المقام المؤسسات والهيئات والزملاء والأصدقاء الذين ساهموا بصورة أو بأخرى في إحراز ذلك النجاح عن طريق الاسهام في تنفيذ تلك الحفائر أو توفير الدعم في لحظة من اللحظات. بيد أنه يستعصي عليّ ذكر أسماء جميع الذين وقفوا بجانبنا عند الحاجة. ومن ثم فعسى ألا يغضب مني كل من سقطت أسماؤهم سهواً من القائمة التالية، وليكونوا على يقين من أنني لم أنساهم.

— وزارة الشؤون الخارجية، الإدارة العامة للعلاقات الثقافية والعلمية والتقنية، قطاع العلوم الاجتماعية والانسانية واللجنة الاستشارية للحفائر الفرنسية في الخارج (تأسست البعثة الأثرية الفرنسية بالبوباستيون إدارياً في عام ١٩٨٦) ؛ ولاسيما النائبان المتعاقبان على إدارة العلوم الاجتماعية والانسانية : السيد «فيليب

جيومان Philippe Guillemin » والسيدة «ماري-پيار دي كوسيه-بريساك Marie-Pierre de Cossé-Brissac ».

– المركز القومي للبحث العلمي، قطاع علوم الإنسان والمجتمع، قسم اللغات والحضارات الشرقية ؛ وعلى الأخص الإدارة العلمية لهذا القطاع ولجنة القسم رقم ٤٤.

– السيد «چان ليكلان Jean Leclant» أمين سرّ أكاديمية العلوم والآداب، وأستاذ بالمدرسة الفرنسية، ورئيس البعثة الأثرية الفرنسية في سقارة (التي كانت تتبعها البعثة حتي عام ١٩٨٦)، ومدير وحدة البحث المشتركة رقم ١٢٢٨ بالمركز القومي للبحث العلمي.

– السيد «چان-فيليپ لوار Jean-Philippe Lauer »، مدير فخري للبحوث بالمركز القومي للبحث العلمي.

– هيئة الآثار المصرية بالقاهرة، وبوجه خاص رؤساؤها المتعاقبون د. جمال مختار، ود. شحاته آدم، ود. أحمد قدري، وأ. نور الدين وأ. سيد توفيق، وكذلك د. علي حسن، والسيد أحمد موسى ود. زاهي حواس، والمديرون المتعاقبون على موقع سقارة : الساده سيد الفقي ومحمد إبراهيم ود. هليل غالي والسيد محمود أبو الوفا.

– سفارة جمهورية مصر العربية في فرنسا، والقنصلية وإدارة الشؤون الثقافية ؛ والمستشار الثقافي د. أحمد البرعي.

– سفارة فرنسا في جمهورية مصر العربية، والقنصلية وإدارة الشؤون الثقافية ؛ وعلى الأخص السيد «پيار هانت Pierre Hunt » سفير فرنسا السابق بجمهورية مصر العربية، وكذلك السيدان «چيروم كليمون Jérôme Clément» و«برنار مالوزا Bernard Malauzat » اللذين تعاقبا على شغل منصب المستشار الثقافي.

– المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

– جامعة القاهرة، كلية الهندسة، قسم المناجم، معمل ميكانيكا الصخور، الأستاذ حسن إمام وهاني هلال.

– مؤسسة مارتين–ليون Fondation Martine-Lyon بباريس، سيادة الرئيسة « مارتين باران Martine Baranes »، ومجلس الإدارة وكذلك د. «چان چوزيه باران Jean José Baranes».

– مؤسسة پاريبا Fondation Paribas، سيادة الرئيس « فيليپ ديلاك Philippe Dulac »، والسيده « مارتين تريد–مظلوم Martine Tridde≠Mazloum »، السكرتيره التنفيذيه، وكذلك السيد « اندريه ازولاي André Azoulay » مدير العلاقات في بنك پاريبا.

– مؤسسة سوسيتيه چنرال Société générale بباريس.

– شركة سوسيتيه چنرال للمقاولات Société générale d'entreprise، بالقاهرة.

– رابطة الفرنسيين المقيمين في الخارج، فرع جمهورية مصر العربية.

– مكاتب تمثيل البنوك الفرنسية التالية العاملة في مصر :
BNP, Crédit agricole, Crédit commercial de France, Crédit lyonnais, Paribas, Société générale.

– الشركات الفرنسية التالية العاملة في مصر : Air France, CGEE Alsthom, Club Méditerranée, Elf Aquitaine, SCREG (Albaric), Chambon-off-shore, Total.

وفي الختام نذكر بعض الأشخاص الذين غمرونا بالعون والمساعدة والصداقة الثمينة بشتى الطرق وبصورة عامة بالعلاقة المباشرة مع بعض المؤسسات أو الشركات التي سبقت الإشارة إليها :

M. J.-P. Adam, M. G. Alicot, M. et Mme A. de Chantérac, M. et Mme J. CHEVAILLOT, M. et Mme B. Delaye, M. et Mme R. Farge, M. A. Fouquet-Abrial, M. F. Jorda, M. et Mme J. Laguens, M. et Mme J.-G. Leroy, M. et Mme J. Luciani, M. et Mme C. de Mailly-Nesle, M. G. Mas, M. et Mme C. Moulin, M. C. Mourot-Bergeon, M. C. Picard.

وأخـ ـراً فإن تنفيذ الطبعة الفرنسية يدين بالكثير للسيدين « ماسون J.-R. Masson » و« دي نوفيون H. de Novion »، وكذلك للسيدتين « ليكارمونتيه J. Lescarmontier » و« ماركنديه-سيزار V. Marcandier-Cezard » من دار نشر Éditions du Seuil.

فهرست الكتاب

الفصل الثالث : الحجرة الخفية (١٩٨٧-١٩٨٩)

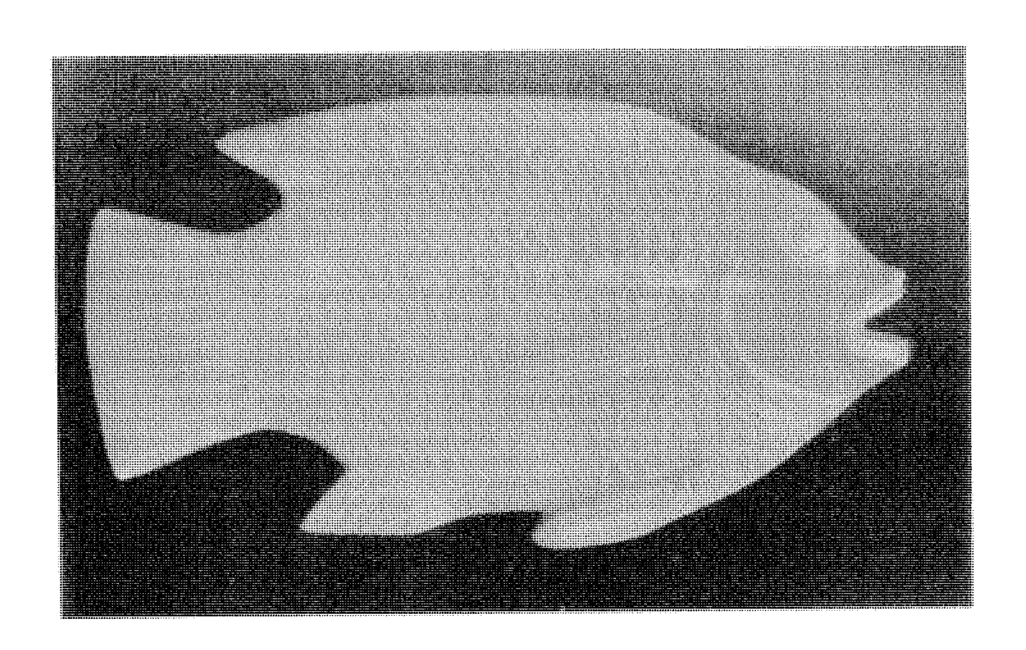
الفصل الرابع : العثور على كبير الوزراء

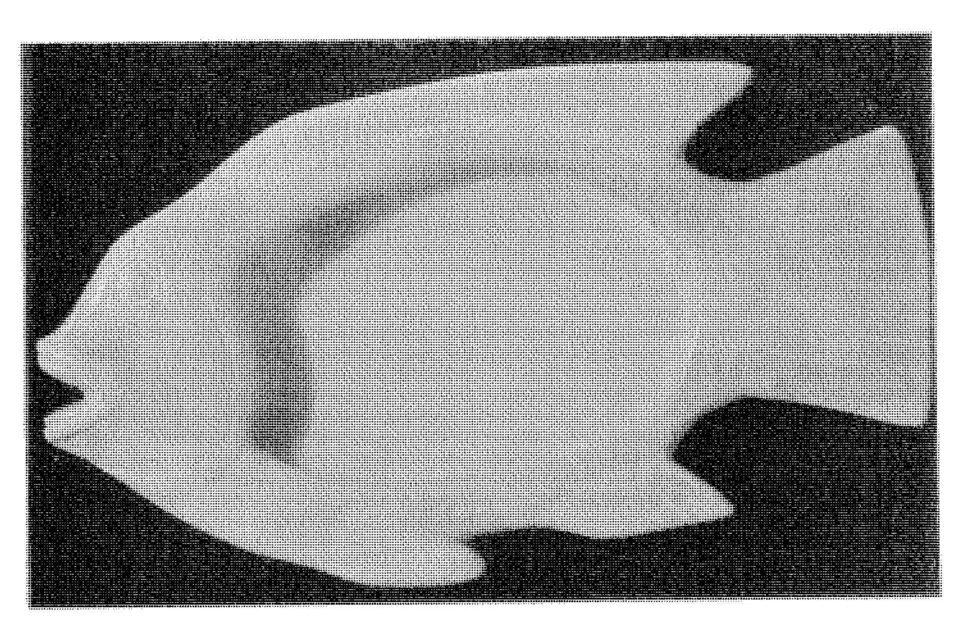
شكـــر وتقـديــر

تتقدم دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بخالص الشكر والتقدير إلى بنك باري با "Banque PARIBAS" القاهرة باريس لتعاونه معنا في إصدار هذا الكتاب.

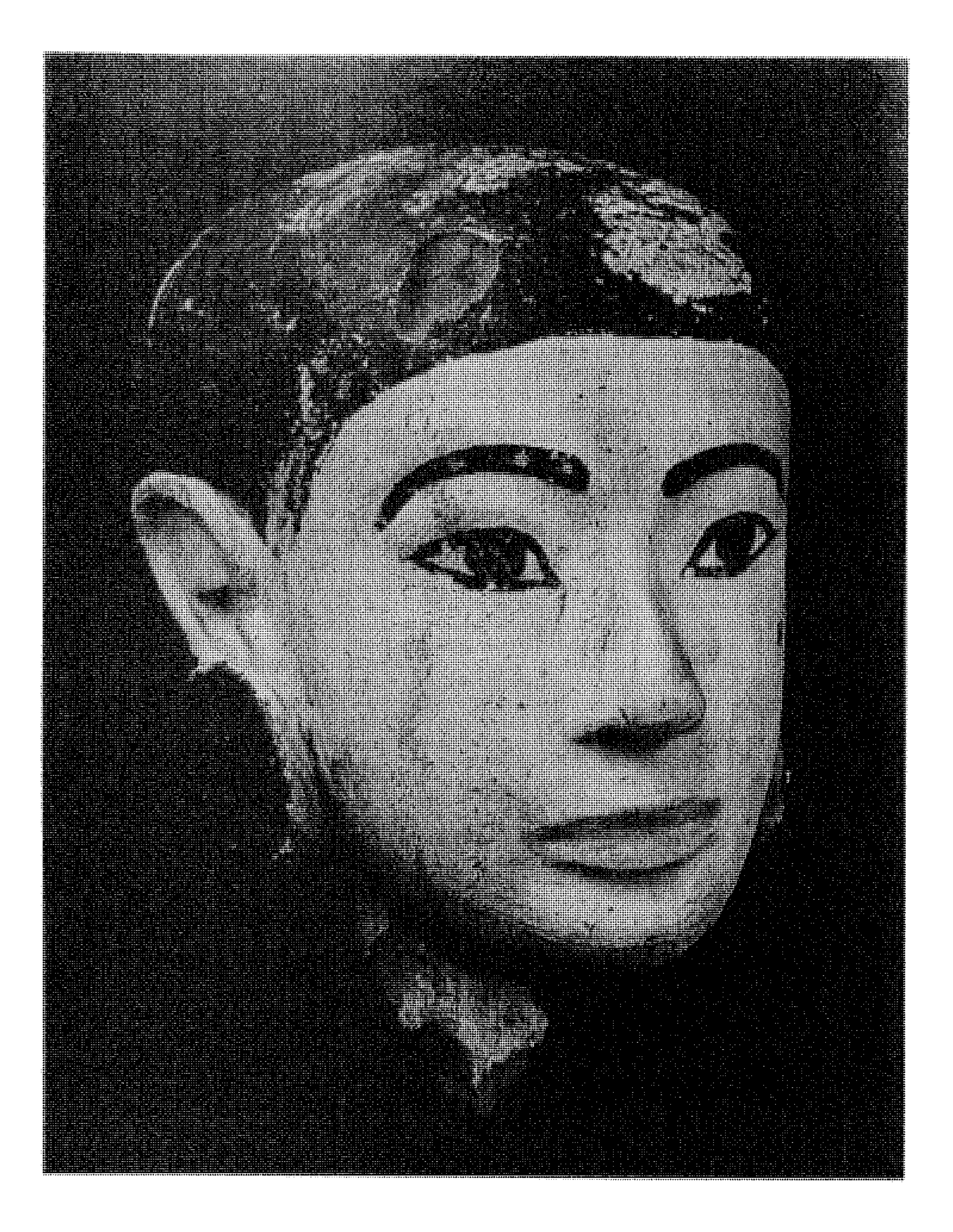


صورة (١) – مَدْخَل المقبرة، اللوحة الرابعة للجدار الشرقي. كبير الوزراء عبريا (عابر-آل) وزوجته المسماه هنا "اوريا" يتقبلان طقس سكب الماء الطهور وقرابين الأقمشة من ابنيهما على الأرجح. تصوير A.Lecler/MAFB





صورة (٢) و (٣) – وجه وظهر أداة زينة (بالبيته، ملْعَقة ؟) ذات مدلول شعائرى على الأرجح، على هيئة سمكة البلطى. عاج ملوَّن. الطول: ١٢سم. تصوير A.Zivie/MAFB

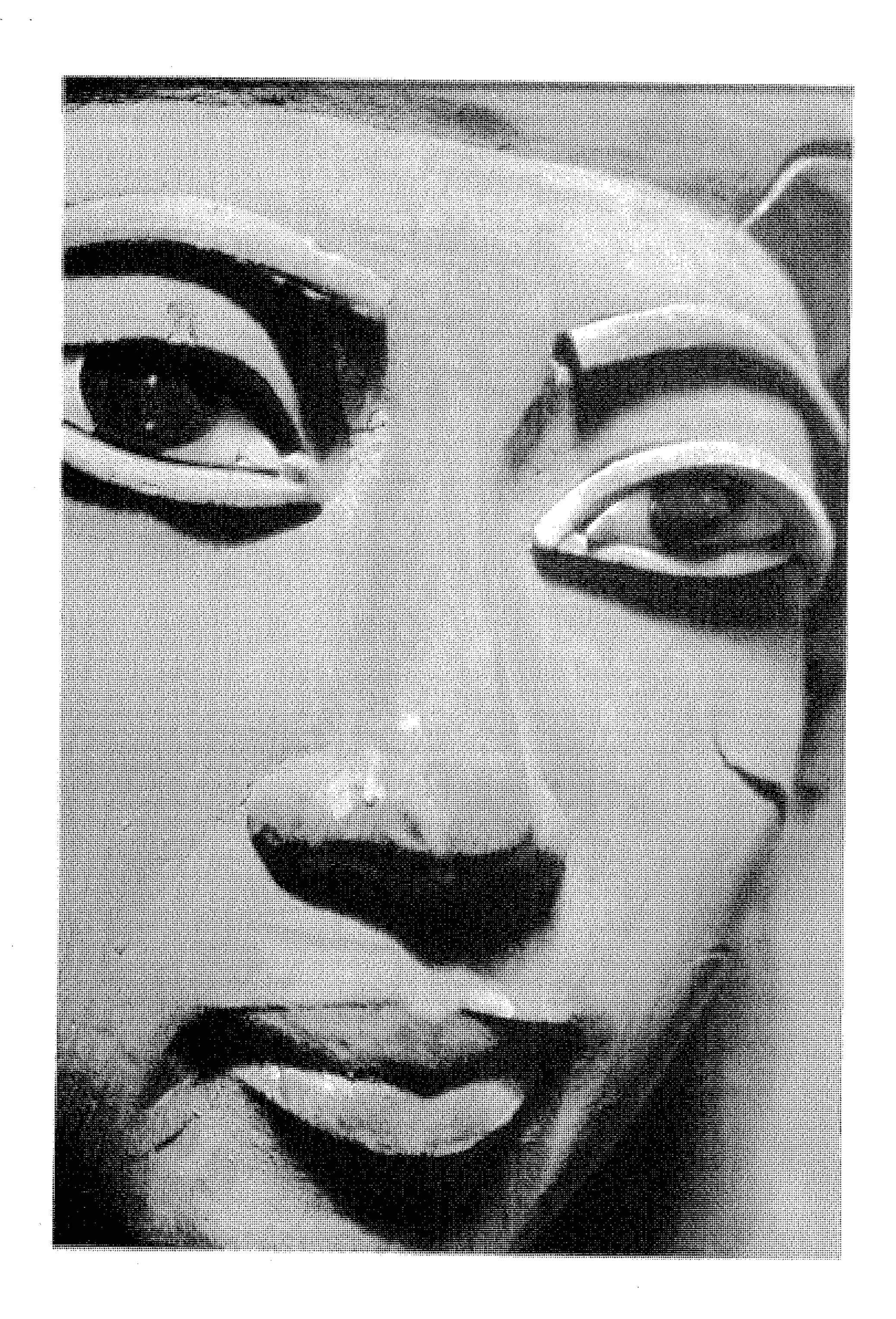


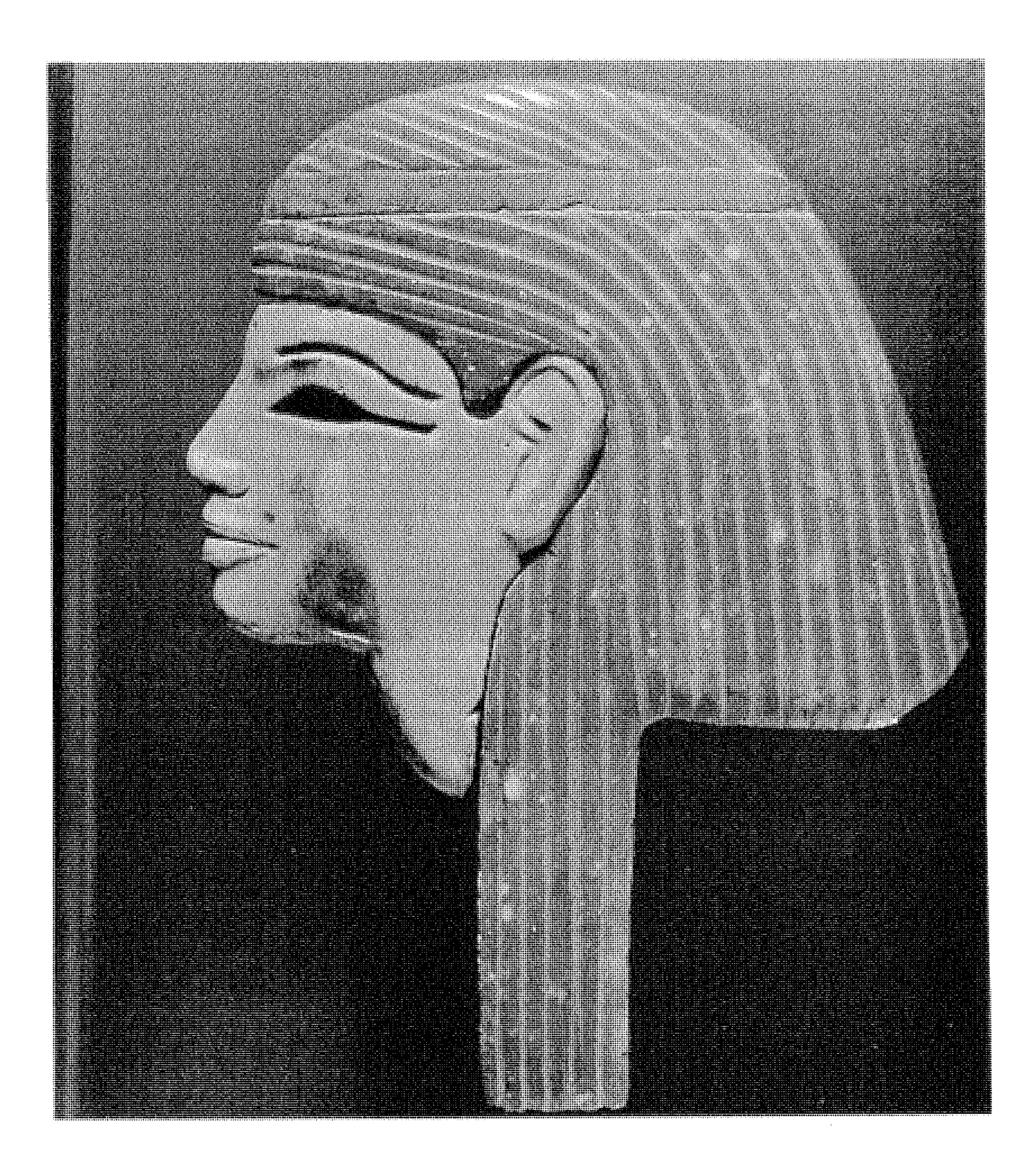
صورة (٤) – رأس امرأة من الخشب المجصص والملون، عُثِر عليها فى قَعْر بئر تفضى إلى المستوى الثالث للمقبرة، ولعلها كانت مزوده بعنق طويل وكانت تُستَخدم لحفظ وتعليق الشعر المستعار الذى ينطوى على قيمة طقسية وإيحاءات جنسية فى نفس الوقت، قطعة فريدة لانعرف لها مثيلاً إلا شبيهة إلى حد ما (اكتشفها "چان فيليب لوار" فى سقارة ومعروضة حالياً فى المتحف المصرى). تصوير A.Zivie/MAFB



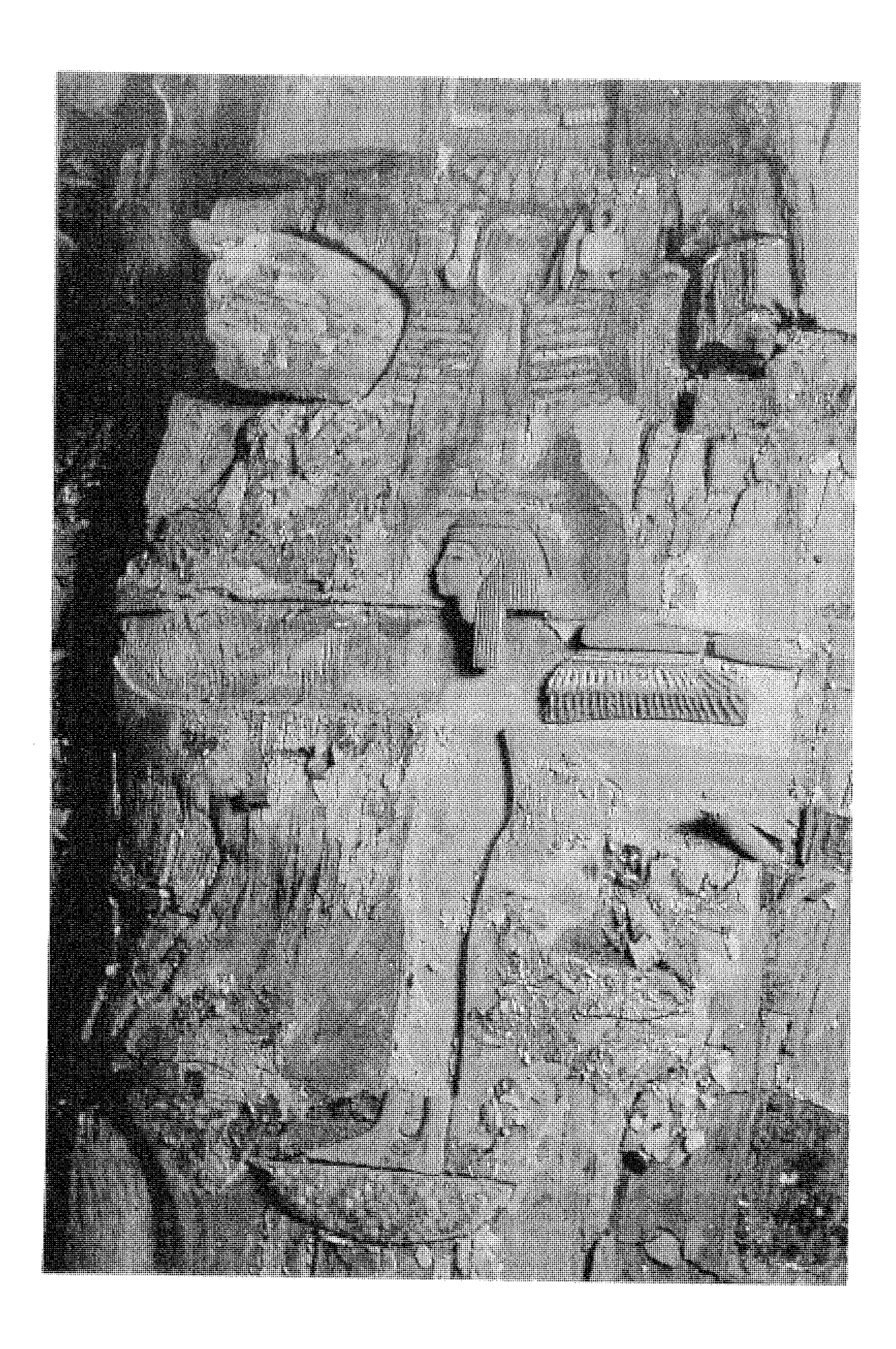
صورة (٥)
جزء من غطاء التابوت الداخلي للسيدة "تاوورت". إلهة السماء "نوت" بذراعيها المجنحين لاتزال على قدر رائع من الحفظ؛ وهي مُشَكَّلة من عناصر من الزجاج أو عجينة الزجاج والخشب المُجَزَّع، تصوير A.Zivie/ MAFB

صورة (٦)
قناع التابوت الداخلي (من الخشب المُذَهّب قديماً) للسيدة "تاوورت". لايزال يحتفظ بالعينين والحاجبين المُشكَّلين من عناصر من الزجاج أو عجينة المُرَصَّعة (تم التعرف على بعضها وإعادتها إلى مكانها الأصلي لاحقاً) تصوير A.Zivie/ MAFB

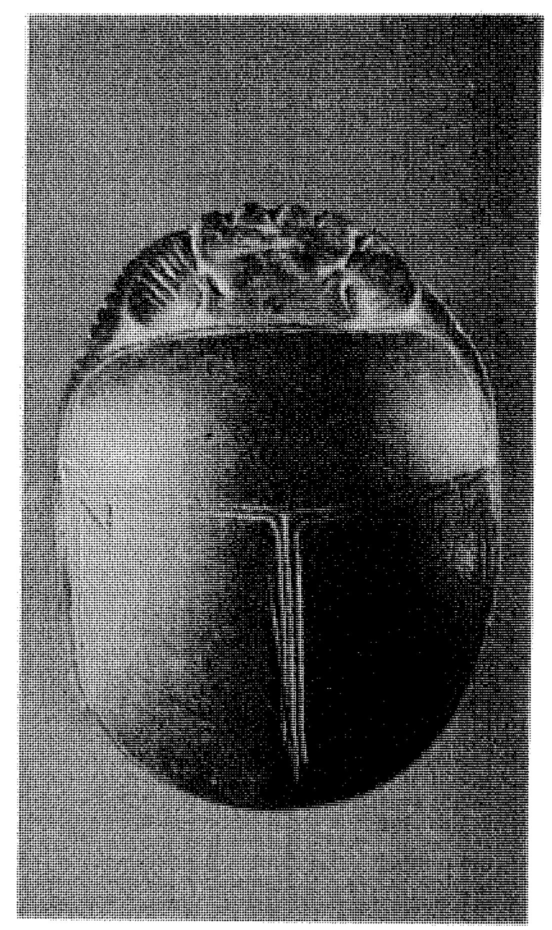




صورة (٧) – رأس الإلهة "نوت" من الزجاج أو عجينة الزجاج تزين غطاء التابوت الداخلي لـ"تاوورت" (انظر لوحة ٨). نلاحظ جمال الوجه، وتناغم درجتي اللون الأرق (في البشرة والشعر المستعار) التي تبرزها عُصابة الرأس الحمراء، قارن باللوحة التالية، تصوير. صورة (٨) – صورة للإلهة "نوت" مماثلة لتلك التي تزين تابوت "تاوورت"، ولكن بمظهر جانبي يختلف اختلافاً طفيفاً، عُثر عليها غطاء فوق التابوت الداخلي لـ "حوى" (لم يُعثر على عُصابة الرأس على افتراض وجودها أصلاً). قارن باللوحة السابقة، تصوير A.Lecler/MAFB

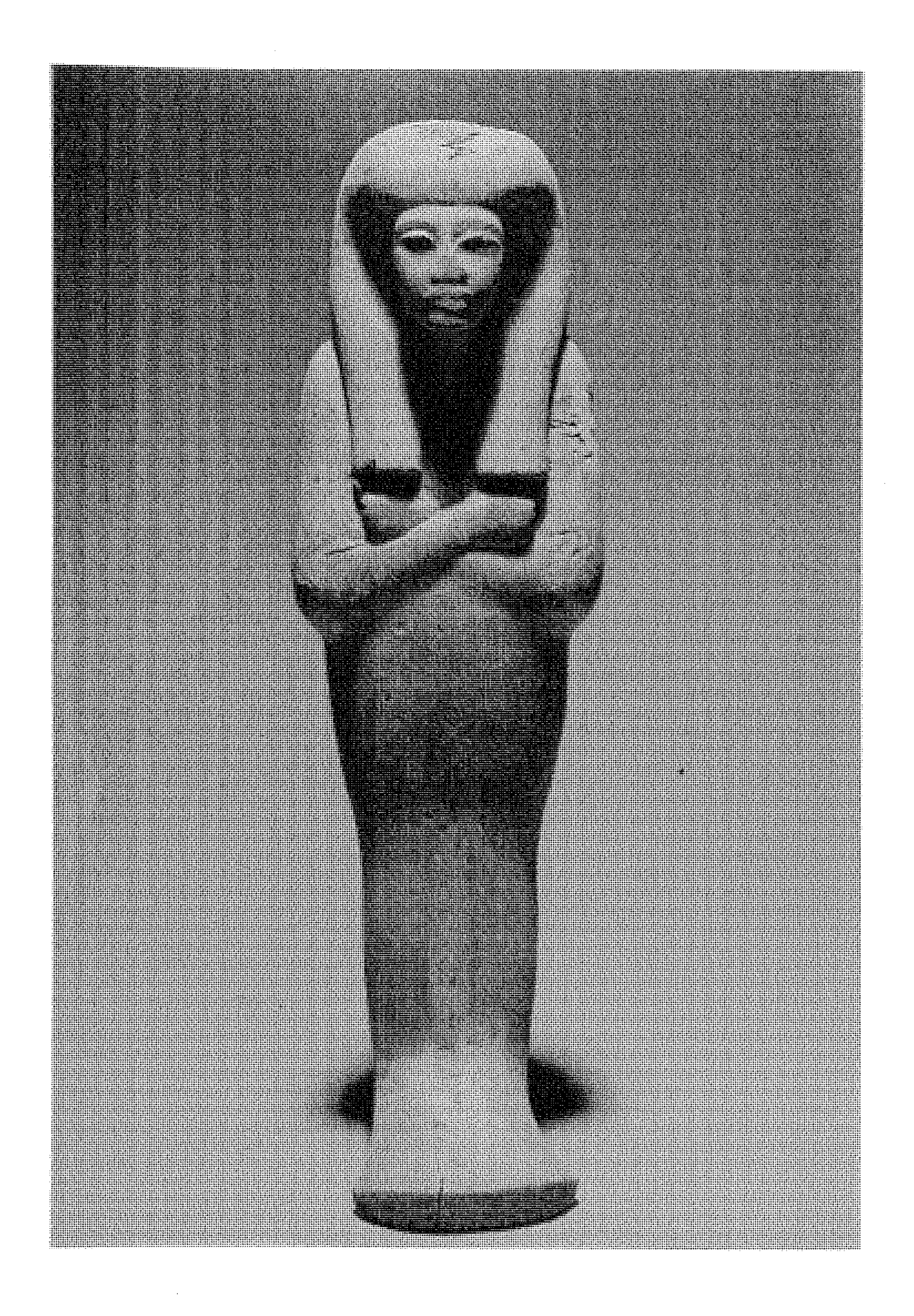


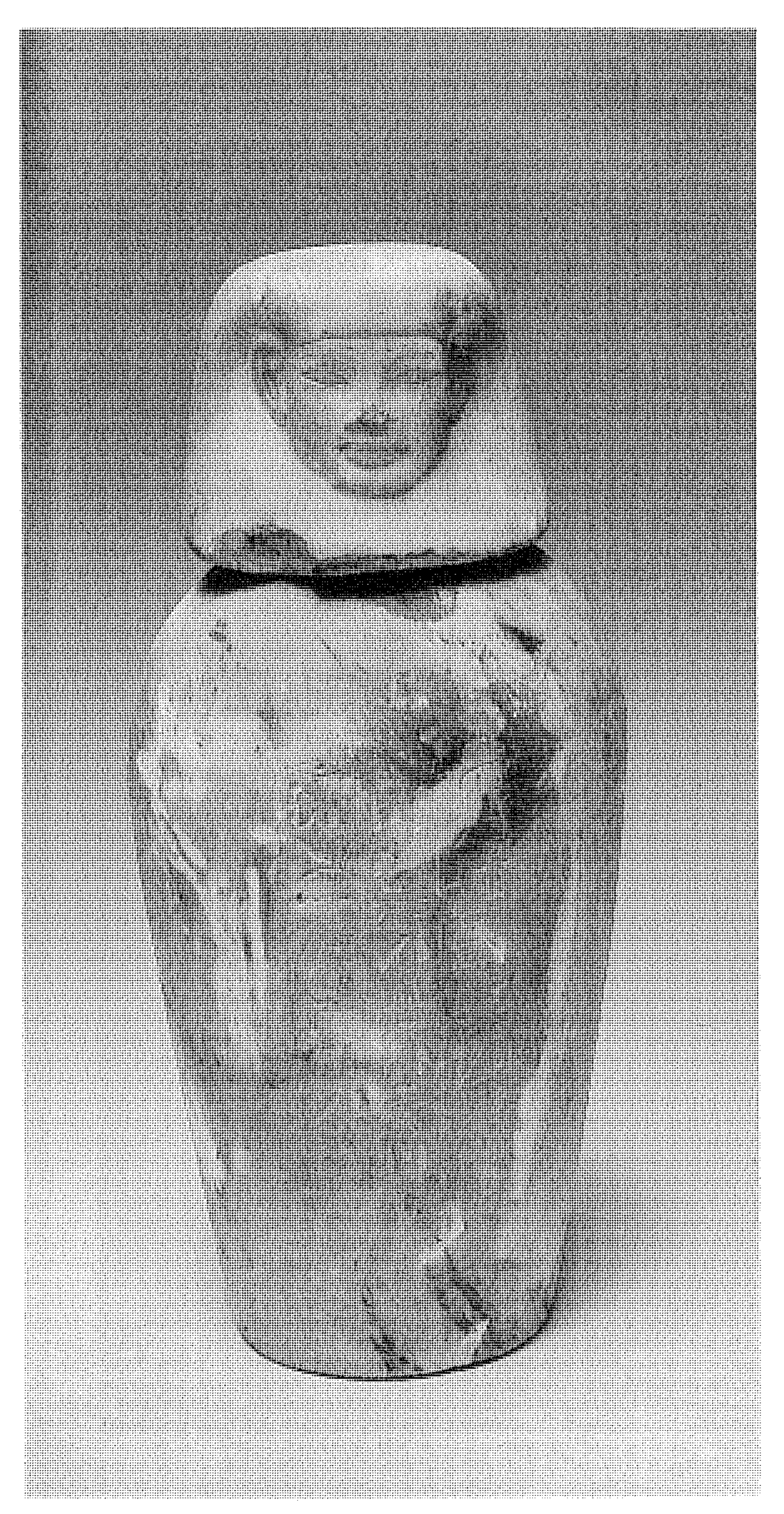




صورة (٩) - (١٠) - وجه وظهر "جعران قلب" كبير من حجر الشست، عُثر عليه داخل الحجرة الجنائزية، بالقرب من جثمان "تاوورت". مدون عليه النص التقليدى من "كتاب الموتى" الخاص بحفظ وحماية القلب. لون رمادى-أخضر. تصوير A.Lecler/MAFB

صورة (١١) - تمثال جنائزى صغير يُسمى "شاوبتى" أو "اوشبتى" (فى اللغة المصرية القديمة) يقوم بدور "الخادم" المتوفى فى العالَم الآخر. وهو مصنوع من الخشب ولايحمل أية نصوص. ولعل ذلك التمثال يرجع لـ"حوى" نظراً لعثورنا على شاوبتى (من المرمر) خاص بكبير الوزراء (انظر اللوحة التالية). تصوير A.Lecler/MAFB

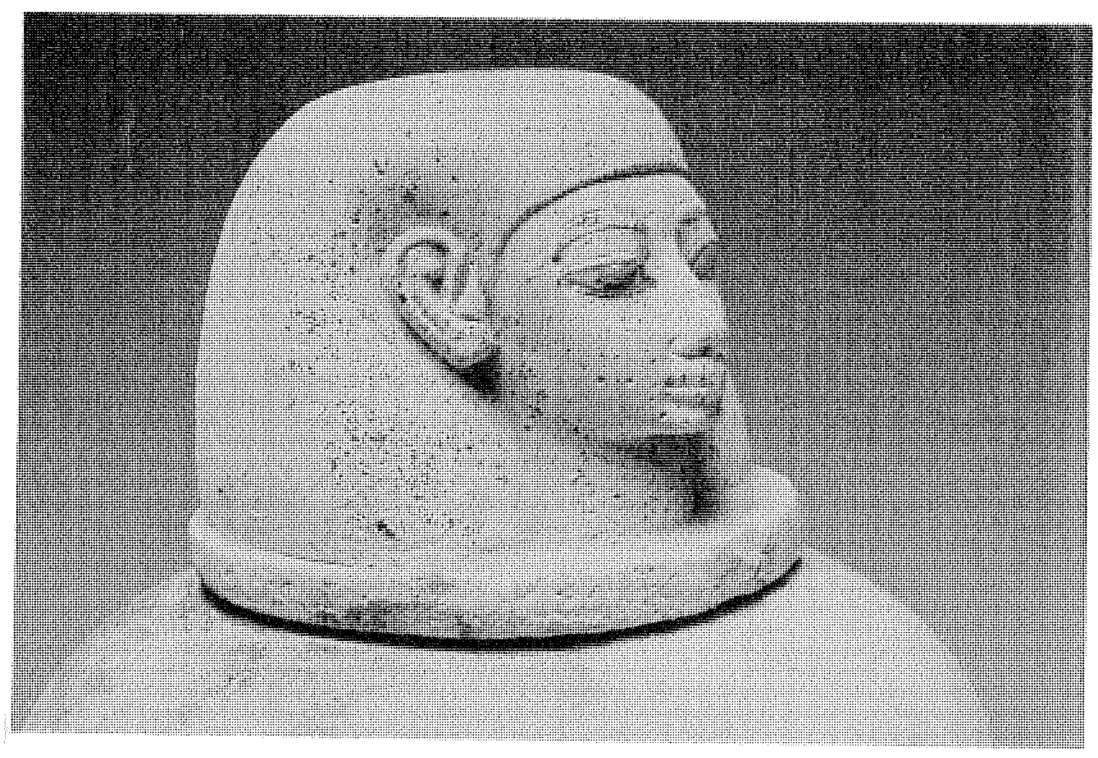


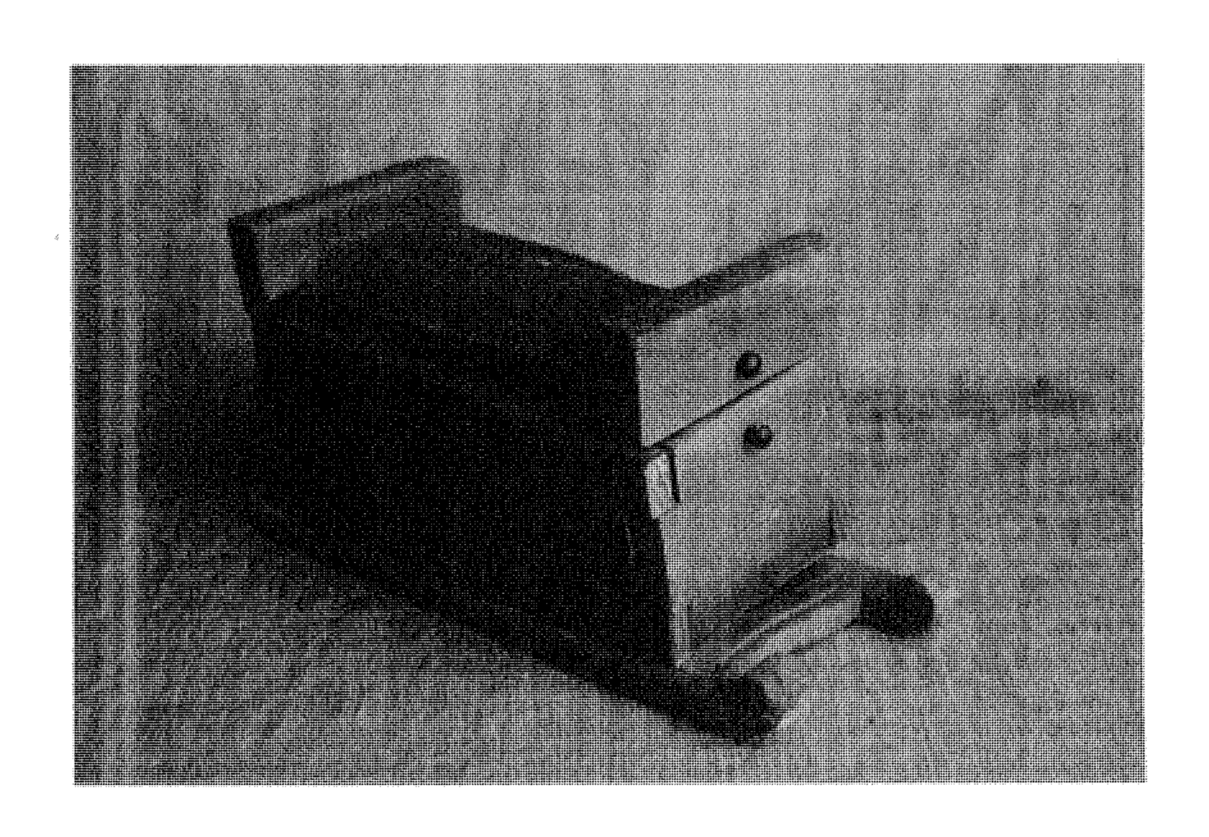


صورة (١٢)-أحد الأوانى الكانوبية الأربعة لعاب -آل (عبريا) من المرمر، كل إناء منها مُكَرس عادة لأحد أبناء الإله "حورس" الأربعة تقترن به إحدى الإلهات (حابى وإيزيس هنا). كان يحتوى على بعض الأحشاء المحنطة للمتوفى جداً رؤوس الغطيان الأربعة فيما بينها. وهذا الغطاء هو أروعها جميعاً. وهو يصور كبير الوزراء بملامح مثالية وفنية للملك "امنحتب الثالث" (الذى كان طاعناً فى السن فى الحقيقة)، وفقاً للعادة المتبعة فى تصوير ذوى المقامات العلا آنذاك. تصوير A.Lecler/MAFB

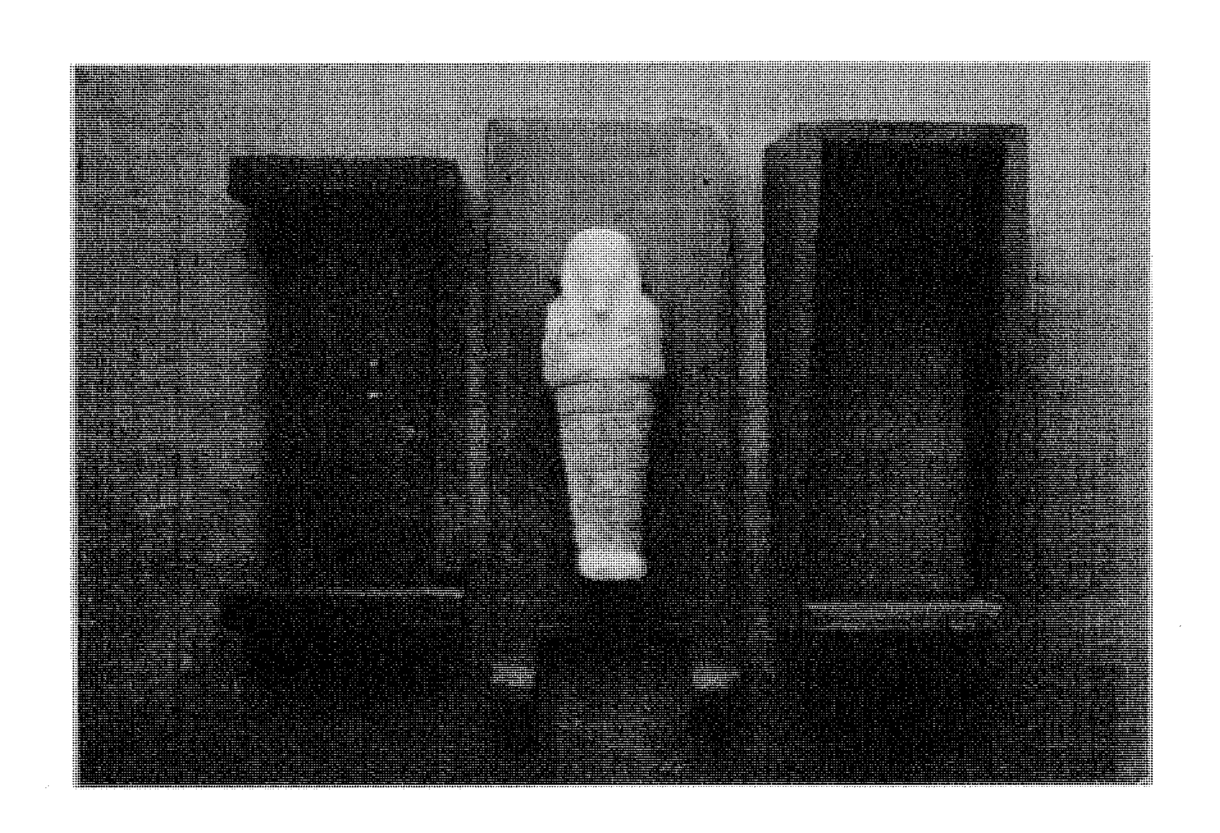
صورة (١٣) - غطاء أحد الأوانى الكانوبية الأربعة لكبير الوزراء عابر - آل (عبريا) من المرمر. انظر كذلك اللوحة السابقة تصوير MAFB/A.Lecler

صورة (١٤) - غطاء أحد الأوانى الكانوبية الأربعة للسيدة "تاوورت" من الحجر الجيرى. هنا أيضاً تختلف رأس كل غطاء، وإن كان اختلافاً بسيطاً مقارنة برؤوس غطيان كبير الوزراء. وتشير الملامح الفنية والدقيقة إلى بعض السمات المميزة لما يعرف بفن "العمارنة" ولكن بصورة مخففة. تصوير A.Lecler/MAFB

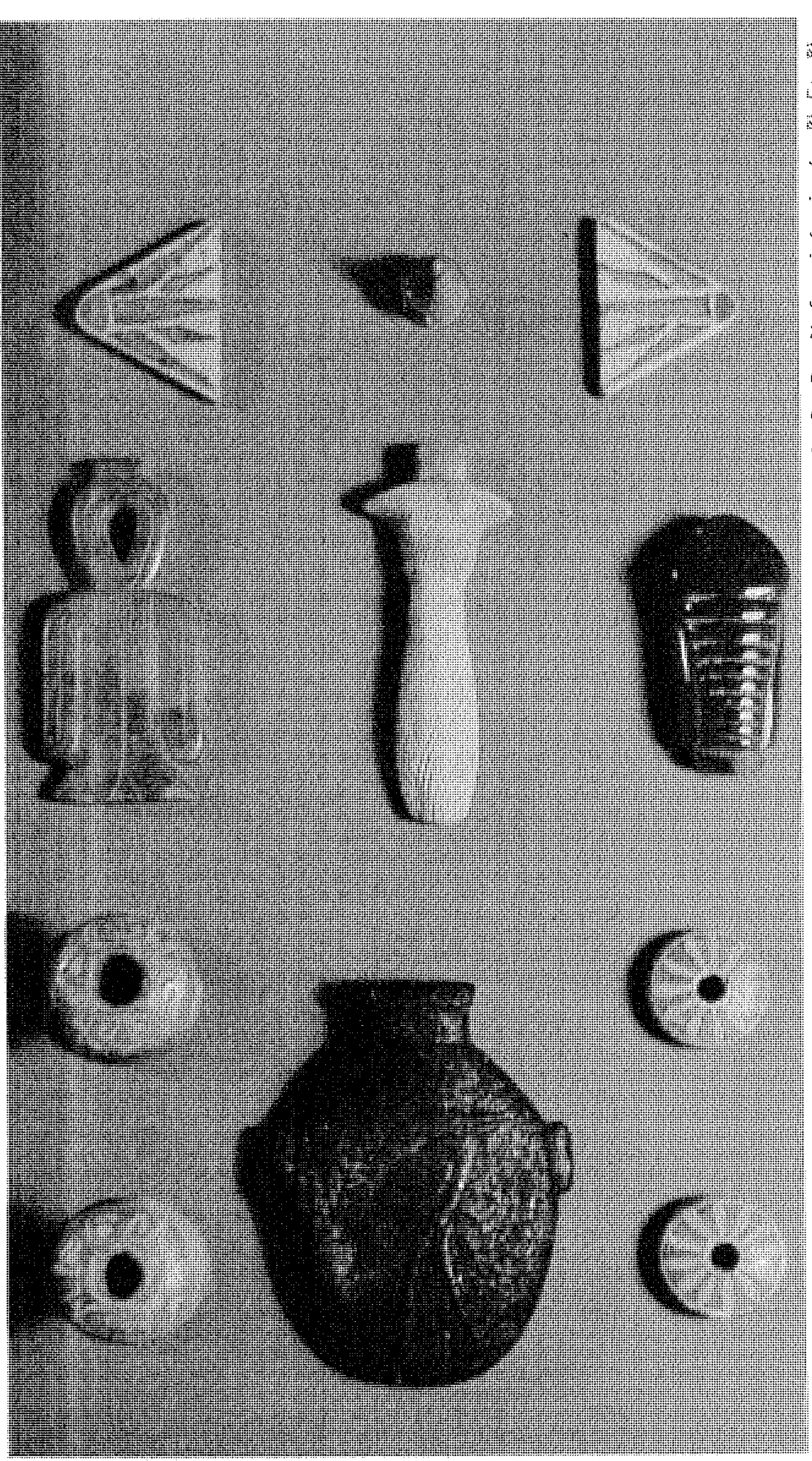




صورة (١٥)   صورة (١٦) - صندوق خشبي لحفظ الشاوبتي (تمثال جنائزي صغير) من المرمر لايزال يحتفظ

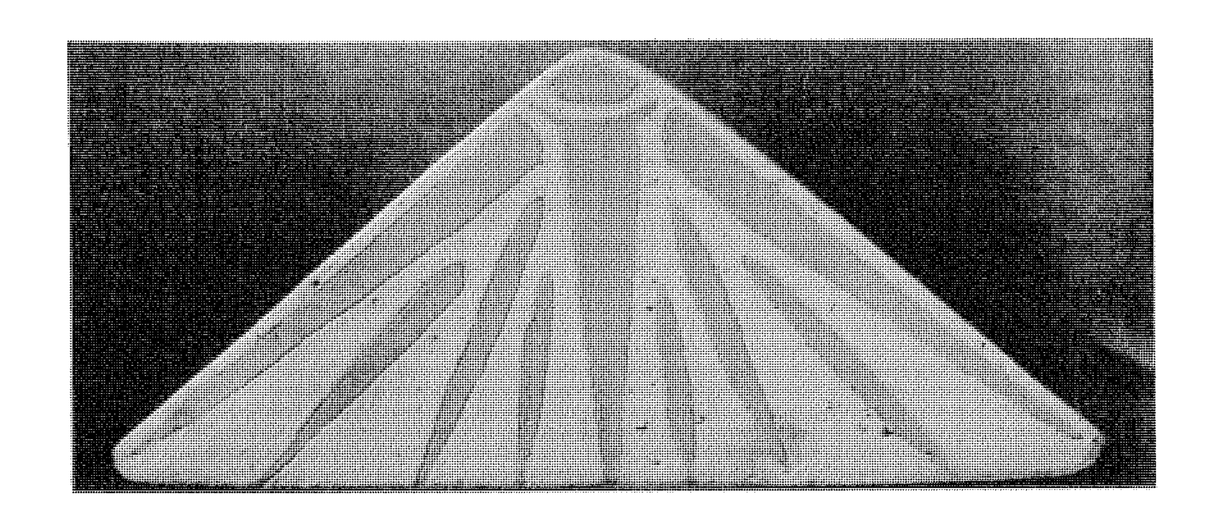


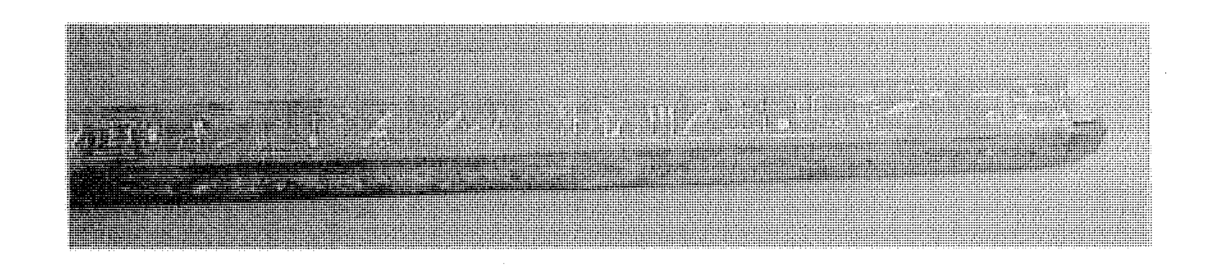
بالنص التقليدى لكتاب الموتى، وكذلك لقب رئيس المدينة وكبير الوزراء "عبريا". تصوير V.Lacoudre-Looten

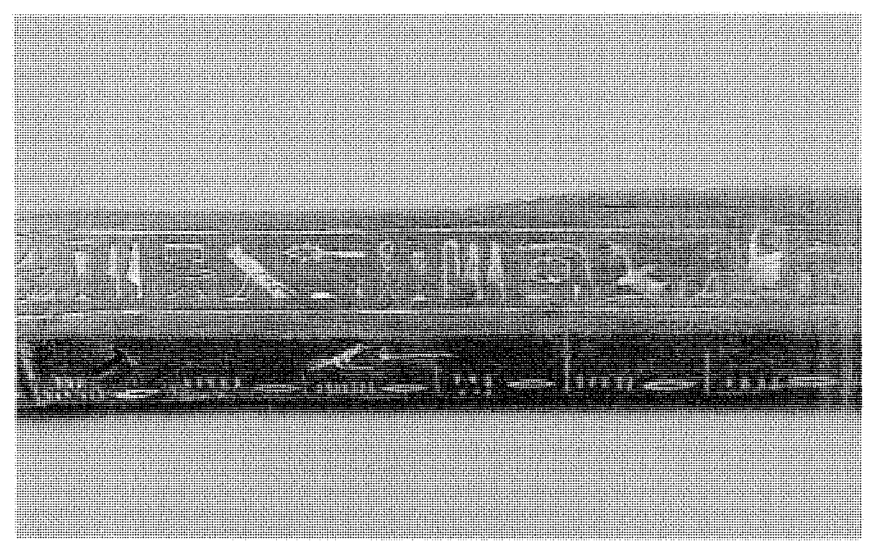


صورة (١٧) – قطع صغيرة متنوعة عُثر عليها بالقرب من رُفات كبير الوزراء داخل الحجرة الجنائزية. فى أعلى الصورة نجد عنصرين من القاينس لقلادة. أسفل من ذلك فى الوسط نجد تمائم لحفظ مومياء "عابر – آل" تحتوى على اسمه فى ثلاث حالات (ثعبان من الحجر، مظلة من البردى، عقدة إيزيس، جعران القلب). فى أعلى الصورة فى الوسط وعلى جانبى الجعران عناصر ترجع بالتأكيد إلى عجلة حربية صغيرة الحجم جداً (قطعة نذرية أو لعبة ؟)؛ إثنان منها يحملان خراطيش "امنحتب الثالث"، مما يشير إلى إمكانية كون هذه القطعة هدية من الملك. A.Zivie/MAFB

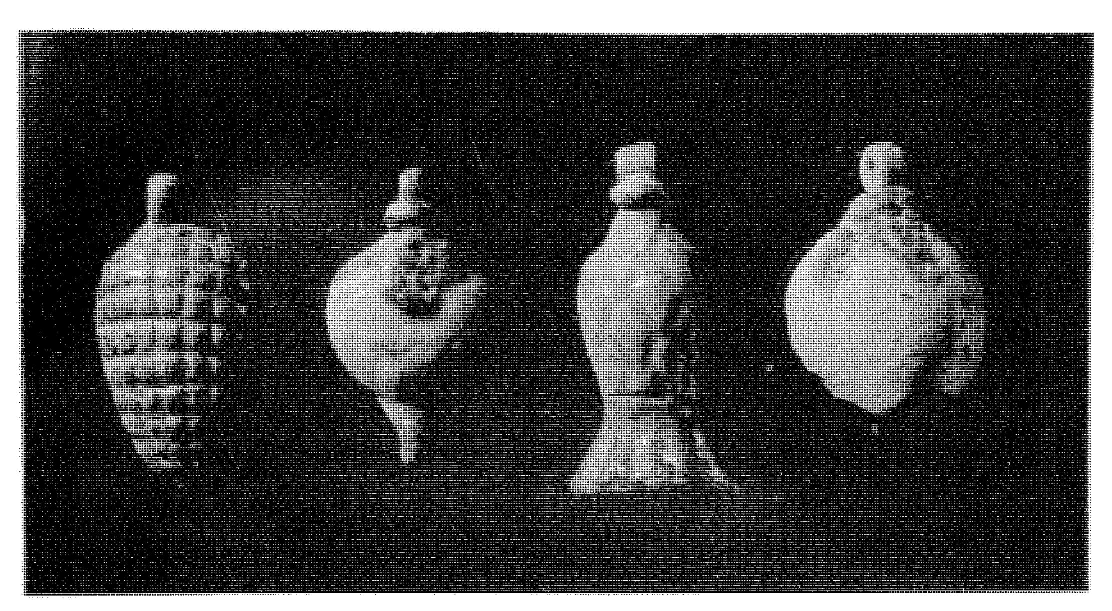
صورة (١٨) و(٢١) – عناصر من الحلية عُثر عليها داخل الحجرة الجنائزية، فى أعلى الصورة مثلث كبير من القاينس مزين بزخارف زهرية (عُثر على مثلث آخر مماثل له) كان مستخدماً فى حفظ وفصل الصفوف المتنوعة لعقْد من حبات القاينس و/أو الذهب. فى أسفل الصورة تشكيلة صغيرة من حبات القاينس على هيئة الفواكه (كالعنب واللُفّاح والرُمّان) عُثر على عشرات أخرى منها. وكلها حبات انفرطت من عقود كانت تزين المومياوات أو محفوظة داخل علب حلى. تصوير A.Lecler/MAFB







صورة (١٩) و (٢٠) - ذراع خشبية (منظر عام وتفصيلى) تغطيها النصوص الغائرة والملونة بعجينة بيضاء، وهى تشير إلى كل من الإله "آمون رع" و "تحوت" بالإضافة إلى عدد كبير من الألقاب والنعوت الفخرية لعا - آل (عبريا). تصوير/A.Zivie/ MAFB



صورة (٢٢) – منظر تفصيلى لصورة الوزير "مرى–رع" داخل مقبرته التى تقع على مقربة من مقبرة كبير الوزراء "عابر–آل". وعلى الرغم من آثار التخريب والحرائق، فإن الوجه المميز لفترة حكم "امنحتب الثالث" لايزال غاية فى الروعة والجمال. لم تنته أعمال تنقيب واستكشاف تلك المقبرة التى اكتشفتها البعثة الفرنسية منذ نحو اثنتى عشر عاماً، مثل العديد من المقابر الأخرى المنقورة فى صخرة "البوباستيون". تصوير A.Zivie/MAFB

